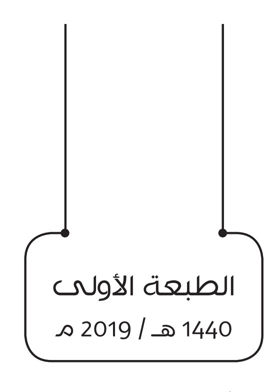
أوراقُ

الوَرْدِ المحمّدية

في سيرةِ زوْجات خيْر البريّة



الطبعة الأولى

1440 هـ / 2019 م

اسم الكتـــــاب: أوراقُ الوَرْدِ المحمّدية

في سيرةِ زوْجات خيْر البريّة

المـــؤلـــــف: د/ محمد علي محمد عبد الرحمن

موضوع الكتاب: تراجم

عدد الصفحات: 208 صفحة

عدد المـــلازم: 13 ملزمة

مقاس الكتـاب: 14 x 21

عدد الطبعـات: الطبعة الأولى

رقـــم الإيـــداع: 10242 / 2019

الترقيم الدولي: 5 - 755 - 278 - 977 - 978 :ISBN

التوزيع والنشر:



القاهرة - جمهورية مصر العربية

هاتف: 01012355714 - 01152806533

E-mail: elbasheer.marketing@gmail.com

elbasheernashr@gmail.com



أوراقُ الوَرْدِ المحمّدية

في سيرةِ زوْجات خيْر البريّة

رؤية وتأليف

د/ محمد علي محمد عبد الرحمن





إهداء

(١) إلى أرواح أمّهات المؤمنين الطاهرة

إلى مَن تعلّمت منهنّ معنى الإخلاص والنّقاءِ والتّضحية

إلى المُنْفقات في سبيل الله لا يخشينَ فقرًا ولا حاجة..

أهْدي هذه الدّراسة المتواضعة.

(٢) إلى القلبِ الطيّب الذي فارقنا بجسدِه

لكنّ كلماتِه العذبةَ باقية

إلى أختي في الله، المهندسة/ أمّ هاشم زغلول

أهدي هذه الدّراسة.

د / محمد علي





المقدمة

الحمدُ لله ربّ العالمين، وصلّى الله على سيّدنا أجلّ المُرسلين محمّد، وعلى آله وصحبه الطيّبين الطّاهرين، وعلى أصحابه الكرام المُنتخَبين.

أمّا بعد، فإنّ سيرة زوجاتِ النّبيّ- ﷺ- من كنوز الأمّة الغالية، فهي تجربةٌ إنسانية فريدة، خرجتْ من بيت النّبوة، وتأثّرت بأخلاق النّبيّ الكريم، وقدّمت أمثلة نادرة في التّضحية والعطاء والمُجاهدة والمثابرة ونشْر العلم والحرْص على السنّة، والرّغبة في الارتقاء بالمُجتمع، وتقدُّمه للأمام؛ لذلك فموضوعُ هذا الكتاب من الموضوعات الهامّة التي تحتاج إليها الأمّةُ في وقتنا الرّاهن.

وفي الحقيقة، فإنّه لم يدُرْ في خلدي- يومًا- أنْ أكتبَ كتابًا عن أمّهات المؤمنين، ذلك لانْشغالي في حقلٍ آخر مِن حقول التّاريخ الإسلامي، واهتمامي بالموضوعات الجديدة، هذا مِن ناحية، ومِن ناحيةٍ أخرى لكثرة ما كُتب في هذا الباب قديمًا وحديثًا، لكنّ الله له أقدارٌ، وأقدارُه ماضيةٌ، فقدّر لي- بفضله وحوْله- أنْ أكتب هذا الكتابَ الطيّب.

وظروفُ تأليف هذا الكتاب تؤكّد أنّه خرج للنّور بأمْر ربّي وتوفيقه، فكما نعلمُ أنّ دروس العلمِ تكثرُ في بلدِنا مصر، وغيرها من

بلادِ المسلمين في شهر رمَضان المبارك، وبما إنّني قد انْشغلت- منذ صغري- بالتحدّث في السّيرة، وما تيسّر من لطائفَ دينية، ثمّ مَنَّ الله عليَّ بالتخصّص في التّاريخ الإسلامي، فقد كنتُ من فرسان هذه المجالس الرّمضانية في محافظتي التي أشرفُ بانتمائي إليها، وكان من عادتي أنْ أُعدّ سلسلةً تاريخيّة، وأقصّها على النّاس في هذا الشّهر المبارك، وقد فعلتُ هذا لسنواتٍ عديدة، وإذا بي رمضان الفائت أَملُّ من إلزامِ نفسي بسلسلةٍ معيّنة ترهقني في التّحضير والبحث ثمّ العرْض، وقلتُ في نفسى فليكنْ درسُ رمضان درسًا عامًّا في موضوعٍ دينيّ أو تاريخيّ، أو حتّى اجتماعي، وبدأتُ في عرض هذه الدّروس اليسيرةِ غير المُرهقة لي في بعض المساجد، وإذْ بأخٍ فاضل يعترضني بعد الدّرس، ويقول لي: يا دكتور، أنتَ قد وعدتنا في العام الماضي أن تحدّثنا عن أمّهات المؤمنين، فأين هي؟! فقلتُ للأخ: والله لقدْ نسيت، لكنْ إنْ شاء الله في اللقاء القادم سوف أبدأ هذه السّلسلة. وبالفعل كنتُ قد نسيتُ ما وعدت به، وذكّرني الله على يدِ ذلك الأخ الطيّب، فعدتُ إلى مكتبتي، وأخذت أحضّر حديثي عن أمّ المؤمنين السيدة خديجة، أولى زوجاتِ النّبي- ﷺ-، وهكذا كلّ يومٍ أقرأ وأجهّز شخصيّة وألقيها على الناس، حتّى تمكّنت- خلال شهر رمضان- من عرضِ سلسلة أمّهات المؤمنين في أكثرَ من مسجد.

وبعد انتهائي من قصّ هذه السّلسلة اقترحَ عليَّ بعضُ الأفاضل أن أصيّرها كتابًا؛ حتّى تعمّ المنفعة، وشجّعوني على هذا، ويسّروا ليَ العقبات؛ فشرعتُ في جمع مادّة هذا الكتاب بشكلٍ علمي، وفرّغت نفسي لهذا؛ فإذا بكنْز دفينٍ في بطون المصادر يسمّى أمّهات المؤمنين، معلوماتٌ كثيرة غائبةٌ عن الناس، مشاعرُ راقية قدّمتها أمّهاتُ المؤمنين، دروسٌ وعِبَر، رسائلُ للبيت المسلم، رسائلُ للأمّة، مشاريع تنْموية، تجارةٌ مع الله.. كنز بكلّ ما تعنيه الكلمة، فالحمدّ لله ربّ العالمين على ما يسّر مِن خير، وأرجو أن يتقبّل الله هذا العملَ خالصًا لوجهه.

وكتابي هذا «أوراقُ الوَردِ المحمّدية في سيرةِ زوجات خيْر البريّة» يجمعُ ما بين التاريخ والأدب؛ فهو كتابٌ في التّاريخ والسّيَر، مكتوبٌ بلغة أدبيّة أرجو أنْ تكون راقية، ولا يعني هذا أنّ الكتابة الأدبيّة أخرجتِ النّصوص التّاريخية عن مضمونها لخيالاتٍ تصويرية أو بلاغية تبعدُ عنِ الأصل، فالأسلوبُ الأدبيّ في الكتاب مستوحًى من النّصوص التاريخية، ومستخرَج منها، فما هو إلّا تعبيرٌ عن مكنونها الذي لا يظهر إلّا بلغةٍ أدبية رشيقة، ولو أنّ المادّة التاريخية الخاصّة بأمّهات المؤمنين وضعتْ بين يدِ أديبٍ لبيبٍ كالأستاذ مصطفى صادق الرافعي- رحمه الله- لصاغَ منها مجلّدات، ولشيّدَ بها قصورًا من البَيان، ومع كلّ ذلك لم يتعدّ الحقيقة قيدَ أنْمُلة.

أمّا عن منهجي في هذا الكتاب، فهو المنهجُ العلميّ ما استطعتُ إلى ذلك سبيلًا، فقد عدتُ للأصول أبدأ بأقدمِها ثمّ الذي يليها، وأقارنُ بين الرّوايات التّاريخية، وأستفيدُ من أهل الحديث، ومِن المحقّقين في هذا الباب كلّما وجدت عندهم ما يخدُمُ الحقيقة، وأقدّم القرآن الكريم على كلّ المَصادر، وأعتمدُ أوثقَ التّفاسير، وأقيّد ما صحّ من حديث رسول الله- ﷺ-، وأقدّمه على الرّوايات التّاريخية المرسلة أو المعضلة حتّى لو كانت قديمة، وبذلك جاءت المادة التّاريخيةُ في الكتاب أصيلةً إلى حدٍّ كبير، وفى إطارِ ما تيسّر لي.

وقد حرصتُ عند كتابة سيرةِ أيّ أمّ من أمّهات المؤمنين أنْ أحاول- قبلَ الكتابة- أنْ أصل إلى مفتاحِ شخصيّة المُترجَم لها، فإذا وصلتُ إلى هذا كتبت، وقد وجدتُ أنّ لكلّ أمّ من أمهات المؤمنين مفتاحًا لشخصيّتها، وعطائها؛ فالسيّدة زينب بنت جحش- رضي الله عنها- نشأت على حبّ العطاءِ والإنفاق في سبيل الله، وقد صاغَها هذا صياغة فكانت أطولَ زوجات النبي- ﷺ- يدًا في الصّدقة، فهي مؤسّسةٌ خيريّة تسير على الأرض دونَ أدنى مُبالغة. والسيّدة أمّ حبيبة- رضي الله عنها- جُبلتْ على الجهاد، والمثابرة، واتّباع الحقّ وأهله، ومعاداة الباطل وأهله، فكانت نموذجًا فريدًا في كفاحها. والسيدة سوْدَة- رضي الله عنها- كانت صاحبةَ طُرفة، مرحةَ الرّوح، فكانت صانعةَ البهجة في بيت رسولِ الله ﷺ. وهكذا ساعدني مفتاحُ الشّخصية على حُسن عرضها في صورةٍ قريبة من الواقع.

وعند كتابتي لهذا الكتاب الطيّب، لم أذكرْ كلّ المرْويّات التي تخصّ المُترجَم لها، ففي الرّوايات المنكَر، وفيها الموضوع، وفيها ما يمسّ جلالَ النّبي – ﷺ – وهيبةَ زوجاته، فحاشَى أن تكتب أيدينا، أو تروي ألسنتَنا ما يمسّ هذه الجلالةَ وذلك التّقدير. من ذلك أمورٌ خاصّة بغيرةِ بعْض زوجاتِ النّبي – ﷺ –، بعضهنّ من بعض، فمنها المُعتدل والمعقول، والذي روتْه الكُتب الصّحاح، فهذا أوردْتُه وبحرْص، ومنها المبالَغ فيه والمُنكر، وهذا الذي أعرضتُ عنه لما تقدّم من أسباب.

وقد صدرتْ كلّ شخصيةٍ ببطاقة حياة، وهي عبارةٌ عن نبذةٍ لتاريخ الميلاد – إنْ وجد –، والنّسب، وبعض الملامح العامّة أو المشهورة للشّخصية، وقد حرصت ألّا أكتبَ تاريخًا للميلاد إلّا إذا كان مكتوبًا في المَصادر، أو له قرائنُ معروفة، وأدلّةٌ تشير إليه وإلى صحّته، حتّى لو كانت نسبيّة، أمّا دونَ ذلك؛ فلا.

وبالنّسبة لعُمْر المُترجَم لها عند الوفاة، فلم أذكرْه إلّا إذا كان هناك دليلٌ أو تصريح بذلك في المصادر الموثوق بها.

وبعد، فإنّ هذا الكتاب قيمٌ في بابه، بسيطٌ في عرْضه، أصيلٌ في مادّته، قد نجحَ لحدٍّ كبير في عرْض صورةٍ واضحة لشخصيّات أمّهات المؤمنين، زوجاتِ النّبي – ﷺ – وقدّم نماذجَ مُبْهرة لعطاء نساء بيتِ النّبوة، ووجّهَ رسائلَ قويّة للأمّة، وعرَضَ لجانبٍ مهمّ من حياة النّبي –

ﷺ-؛ فدعونا نأمل أنْ يكون إضافةً طيّبة للمكتبة الإسلامية، وكتابًا مهمًّا في كلّ بيتٍ مسلم.

وفي الختام، أتوجّه بخالص الشّكر لكلّ مَن قدّم لي يدَ العوْن خلال رحلتي المُمتعة في تأليفِ هذا الكتاب، وهُم كُثر، ولا أريدُ أن أزكّيهم بذكْر أسمائهم، فالله- عزّ وجلّ- يزكّيهم، ويعرفُهم، واللهَ أسأل أن يرفعَ من مكانتهم في الدّنيا والآخرة.

مدينة السويس الباسلة

٩ / رجب /١٤٤٠هـ - ١٦/ ٣ /٢٠١٩م

١- القلبُ الطيّب:
خديجةُ بنت خويلد رضيَ الله عنها

مفتاحُ شخصيّتها :

الدّارسُ لحياة السّيدة خديجة- رضي الله عنها- يستطيعُ في سهولةٍ ويسرٍ الوقوفَ على مفتاح شخصيّتها، فهي قلبٌ طيّب يسيرُ على الأرض، وهذا يختصرُ مسيرتَها اختصارًا، ويجعلك- عزيزي القارئ- تتفهّم تصرّفاتها في جميع المواقف التي واجهتها، بل وتتوقّعها قبل أنْ تقرأها.

وهذا القلبُ الطيّب صاغَ من الحُسن مَعانيه، فخرجَ قلبٌ واحد متعدّد المعاني، فتراه تارة بمعنى الحكمة؛ فهو قلبٌ متّصف بالحكمة، كأنّ الحكمة لم تخلَقْ إلّا له، وتراه تارةً بمعنى الأخلاقِ العالية في كبريائها وتساميها، وتراه تارةً بمعنى الاتّزان والوَقار والعقل الحازم، وتراه تارةً بمعْنى الجود والكرم، فقد تعدّدت معانيه وصاغتْ من الحُسْن معنى، فكأنّنا مع جسدِ إنسانٍ يحيا بقلبِ ملكٍ كريم، فهلمّوا إلى التعرّف على سيرة هذا القلبِ الطيّب.

خديجةُ.. هديّةُ السّماء:

لا شكّ عندي أنّ السيدة خديجة كانت هديةَ السّماء لرسولِ الله ﷺ، فقد شبَّ- كما نعلم- على مكارمِ الأخْلاق، وفي ذلك يقول ابنُ هشام: «فَشَبَّ رَسُولُ اللهَّ- صلّى اللهُّ عَلَيْهِ وسلّم- وَاَللهُّ تَعَالَى يَكْلَؤُهُ ويحفظُه وَيَحُوطُهُ مِنْ أَقْذَارِ الْجَاهِلِيَّةِ، لِمَا يُرِيدُ بِهِ مِنْ كَرَامَتِهِ وَرِسَالَتِهِ، حتّى بلغ أنْ كان رجلًا أفضلَ قَوْمِهِ مُرُوءَةً، وأحسنَهم خُلقًا، وأكرمَهم حَسَبًا، وأحسنَهم جِوَارًا، وَأَعْظَمَهُمْ حِلمًا، وأصدقَهم حَدِيثًا، وأعظمَهم أَمَانَةً، وَأَبْعَدَهُمْ مِنْ الفُحش وَالْأَخْلَاقِ الَّتِي تدنِّس الرِّجَالَ تنزُّهًا وَتَكرُّمًا، حَتَّى مَا اسْمُه فِي قَوْمِهِ إلّا الْأَمِينُ، لِمَا جَمَعَ اللهُّ فِيهِ مِنْ الأمورِ الصّالحة.[(١)]»

هذا الأمينُ، محمّد بن عبد الله، المستقيمُ على مكارم الأخلاق، الجامعُ لخصال الخير، كان خليقًا بهديّة أعدّتها يدُ القدر من أجلِ أن تكونَ له الأمّ، والأخت، والحبيبة، والسّند، والونيس، والرّاعي.. إنّها السيدة خديجة رضي الله عنها، فمَن خديجة؟

بطاقةُ حياة:

- إنّها السيّدة الفاضلة، أمي قبل أمّي، أمّ المؤمنين، خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزّى بن قصي، القرشيّة الأسديّة[(٢)].

---

(١) -السيرة النبوية، حـ ١، ص ١٩٩، دار الفكر، القاهرة، ١٩٨٠ م.

(٢) - راجع اسم السيدة خديجة كاملاً فى: ابن إسحاق: السيرة النبوية، حـ ١، ص ١٢٩، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٩ م.

- ولدتْ- رضي الله عنها- قبلَ عام الفيل بخمسَ عشرةَ سنة على ما رجّح الرّواةُ الأول للسّيرة النبوية[١]، أيْ حوالي عام ٦٨ قبل الهجرة، الموافق لعام ٥٥٦ م.

- كانت تدْعَى قبل البعثة «الطاهرة»[٢].

- هي أوّلُ زوْجات رسول الله- ﷺ-، لم يجمعْ قطّ معها غيرها[٣].

مميّزاتُها النّفسية والأخلاقيّة:

كانت خديجةُ- رضي الله عنها- من أسرةٍ طيّبةِ الأصل، وعُرفت كما ألَمَحْنا بالطّاهرة؛ لشرفِها ومكانتها بين أهلها، ويبدو أنّ هذا اللقبَ كان مستمدًّا من شخصيّة السيدة خديجة أكثرَ من أيّ شيء آخر، فهي متفرّدة بين أهلها، بأخلاقِها العالية، واتّصافها بالحكمة، ويبدو أنّها لم تكنْ تسلك مسلكَ غيرِها من بناتِ سنّها في شبابها الأوّل، فقد كانت وقورةً متّزنة عاقلة، يفهم هذا مِن لقبِها «الطّاهرة»، الذي أضفى عليها كلّ هذا البهاء والثّناء، ويفهم- أيضًا- من بعض النّصوص التي تحدّثت عن وقارها وسكينتِها[٤]، ويفهم بأوضحَ مِن هذا من أنّها رشّحت من

---

(١) - انظر: ابن سعد: الطبقات الكبرى، حـ ٨، ص ١٧، المكتبة القيمة، القاهرة، د.ت.

(٢) - ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة، حـ ٤، ص ٣٧١، مكتبة مصر، القاهرة، د. ت.

(٣) - ابن عبد البر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب، حـ ١، ص ٤٤، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٢ م.

(٤) - انظر: ابن سعد: الطبقات، حـ ٨، ص ١٥.

أجلِ أن تكون زوجةً لابن عمّها ورقة بن نوفل، ذلك العابد المذكور، وهذا قبل أن تتزوّج بأيّ أحد، لكن لم يقض بينهما نكاح[1].

حياتُها قبلَ رسول الله ﷺ:

تتضاربُ الرّوايات وتختلفُ فيما بينها بما يخصّ زواج السيّدة خديجة قبل رسول الله ﷺ، لكنّ المُجمع عليه أنّها تزوّجت مرّتين، والكثيرون على أنّ الأولى مِن أبي هالة هند بن زرارة التّميمي، وأنجبتْ منه، والثّانية من عتيق بن عائذ (وفي روايات عابد) بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، وهو ابنُ عمّها، وأنجبتْ منه أيضًا[2]. والرّوايات بعد هذا تختلف أشدّ الاختلاف في ولدها مِن هذا وذاك، ما بين ذكور وإناث، وتختلفُ في أسمائهم اختلافًا بيّنًا، فيذكرُ- مثلًا- ابنُ إسحاق أنّها ولَدَتْ لأبي هالة: هند بن أبي هالة، وزينب بنت أبي هالة، وولدَتْ لعتيق بن عائذ: عبد الله وجارية[3]، بينما يذكر ابنُ سعد- وروايته عندي أوضحُ وأقوى- أنّها أنجبتْ لأبي هالة رجلًا يُقال له هند، وهالة رجلٌ أيضًا، وأنّها أنجبتْ لعتيق جاريةً يقال لها هند، وأنّ خديجة كانت تدعَى أمّ هند[4].

---

(1) - نفسه، ص١٤ «وكانت خديجة بنت خويلد قبل أن يتزوجها أحد قد ذُكرت لورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي، فلم يقض بينهما نكاح».

(2) - نفسه، ابن عبد البر: الاستيعاب ح ٤، ص ١٨١٧.

(3) - السيرة النبوية، حـ ٢، ص ٧٠٢.

(4) - الطبقات الكبرى، حـ ٨، ص ١٤.

ولعلّ هذا الخلاف يعود لتعدّد واختلاف المَصادر التي اعتمد عليها الرّواة، وعدم وجود معلوماتٍ وافية عنِ السيدة خديجة فترة ما قبلَ ارتباطها برسول الله- ﷺ-، وعلى أيّة حال فإنّ هذا الخلاف لا يعنينا كثيرًا، لكنّ ما يعنينا أنّ السيدة خديجة استفادت من هذه الظّروف التي مرّت بها فجعلتها صاحبةَ تجربةٍ وخبرة بالحياة ومعاركتِها، وكأنّ يدَ القدر كانت تهيّئها من أجلِ أن تكونَ زوجةً لرسول الله- ﷺ-، الذي كان بحاجةٍ إلى زوجة جلدةٍ تتحمّل معه ظروفَ الدّعوة الأولى، وتصبر على البلاءات المتعدّدة.

كيف تعرّفتْ خديجةُ على رسول الله؟

وبهذه الظّروف، وهذه الوضعيّة، التقتْ خديجة الثريّة الجميلة، ذاتُ الشّرف؛ برسول الله- ﷺ- إذ تروي كتبُ السّيرة أنّ سيرة رسول الله وما اتّصف به من صدقِ الحديث، وعظمِ الأمانة، وكرمِ الأخلاق.. كلّ هذا وصلَ لمسامع السيدة خديجة، وقد كانت امرأةً تاجرةً تستأجرُ الرّجال في مالها، وتضاربهم إيّاه بشيءٍ تجعله لهم، فلمّا بلغها ما بلغها عن رسول الله عرضتْ عليه أن يخرج في مالٍ لها إلى الشام تاجرًا، وتعطيه أفضلَ ما كانت تعطي غيرَه من التّجار، مع غلامٍ لها يُقال له ميْسرة، فقبِلَ رسولُ الله منها، وخرج في مالها ذلك حتّى قدِمَ الشّام، وباع واشترى وعادَ بالخير الوفير[1].

---

(١) - انظر: ابن إسحاق: السيرة النبوية، حـ ١، ص ١٢٨ : ١٢٩، ابن هشام، حـ ١، ص ٢٠٤ : ٢٠٥.

السّببُ الحقيقيّ لإعجاب خديجة برسول الله:

والرّوايات التّاريخية بعد ذلك تتحدّث عن إعجاب «ميسرة» غلام السيدة خديجة بشخصية رسول الله- ﷺ- خلال رحلته تلك، وتذكرُ أنّه نقل ذلك للسيدة خديجة، ونقل لها خبرَ الشّجرة التي نزل في ظلّها رسول الله، والتي قال فيها أحدُ رهبان الشام: إنّه ما نزل تحتها إلّا نبيّ، ونقل لها ما رآه حينما اشتدّ الحرّ؛ إذْ كان «يرى مَلكيْن يظلّان رسولَ الله من الشّمس»[1]، وسواء أصحّت هذه الرّوايات التي بدا فيها التكلّف والصّنعة أمّ لا؛ فالغالبُ أنّ ذلك لم يكنِ السّبب الرئيسَ لإعجاب السيدة خديجة برسول الله، ويبدو أنّ أخلاق النبيّ- ﷺ-، وحُسن سيرته كانا من وراء إعجابها برسول الله، فقد ذكرَ ابنُ إسحاق أنّ السيدة خديجة لمّا خطبها رسولُ الله قالت: «إنّي قدْ رغبتُ فيكَ لحُسن خلقك، وصدقِ حديثك»[2].

---

(١) - انظر: ابن إسحاق: السيرة النبوية، حـ ١، ص ١٢٨: ١٢٩ .

(٢) - ابن حجر: الإصابة، حـ ٤، ص ٣٧٤، وهو ينقل عن ابن إسحاق ويقول إنّ هذا القول تمّ بعد خطبته ﷺ لها، بينما الجزء الموجود بين أيدينا من سيرة ابن إسحاق (حـ ١ ١٢٩) يذكر فيه هذا المعنى على لسان خديجة لكن عندما فاتحت رسول الله- ﷺ- في أمر الزواج منه، فلعل ما ينقله ابن حجر من كلام ابن إسحاق من الأجزاء التي لم تصلْ إلينا وحفظتها كتبُ التراجم اللاحقة.

كيفيّةُ الوصول لقلبِ رسول الله ﷺ:

إذًا، أعجبت السيدة خديجة برسول الله ﷺ، لكنْ كيف السبيلُ إليه؟ هل تتحدّث إليه مباشرة وتعرضُ عليه فكرة الزّواج منها؟ أمْ تعرضُ الأمر عليه عن طريق إحدى صديقاتِها أو قريباتها؟

والحقيقة أنّ الإجابة على هذه التّساؤلات من الصّعوبة بمكانٍ؛ نظرًا لاختلاف الرّوايات التّاريخية في هذا الصّدد، فرواية ابنِ إسحاق وتلميذِه ابن هشام لا تشيرُ من قريبٍ ولا بعيد إلى الافتراض الثّاني؛ بل وتصرّح بوضوحٍ واضح أنّ السّيدة خديجة هي مَنْ عرضتْ نفسها زوجةً على رسول الله[١]، بينما تذكرُ مصادر أخرى أنهّا كلّفت إحدى صديقاتها بعرْض المسألة على رسول الله ﷺ[٢]، وأنّه تردّد نظرًا لضيقِ ذات اليد، فقالت له: «فإنْ كفيت ودعيت إلى المال والجمال والكفاءة؟!!»[٣] فوافق رسولُ الله، وعرض الأمر على أعمامه الذين رحّبوا بخديجة، وتزوّجها رسولُ الله، زوّجها إيّاه عمُّها «عمرو بن أسد» لأنّ أباها كان قد مات يومَ الفجار[٤].

---

(١) - السيرة النبوية لابن إسحاق، حـ١، ص ١٢٩؛ سيرة ابن هشام، حـ١، ص ٢٠٥: ٢٠٦.

(٢) - ابن سعد، حـ٨، ص ١٥: ١٦ (وصديقة خديجة هذه هى: نفيسة بنت أمية، أخت يعلى بن أمية) وفى رواية ابن حجر (نفيسة بنت منية أخت يعلى).

(٣) - ابن حجر: الإصابة، حـ٤، ص٣٧٣ (وهو ينقل عن الواقدي).

(٤) - ابن سعد، حـ ٨، ص ١٦ (قال محمد ابن عمر»الواقدي»: وهذا المجمع عليه عند أصحابنا ليس بينهم فيه خلاف» أي أنّ الذي زوّجها إنما هو عمّها عمرو بن أسد لأنّ أباها مات يوم الفجار، وقد ذكر هذا مسندا ابنِ سعد لأنّ هناك أقوالًا لابن إسحاق تقول إنَّ الذي زوّجها إنما هو أبوها خويلد، أو أخوها عمرو (السيرة النبوية، حـ٢، ص ٧٠٢).

وظاهرُ الأمر أنّ رواية ابن إسحاق القائلة بأنّ خديجة هي مَن عرضت نفسَها على رسول الله هي الأقربُ للصّواب، فهي بعيدة عن التكلّف وإعمال العقل؛ لأنّك لو أعملتَ عقلك لقلت: إنّ الخيار الثّاني هو الأنسبُ للسيدة خديجة، وهو أنْ تعرض المسألة عن طريق إحدى صديقاتها، لكنْ يفوتك أنّ السيدة خديجة كانت قد حنكتْها الحياة، فهي صاحبة تجربة؛ بل تجربتيْن قبل معرفتها برسول الله، وهي امرأةٌ في الأربعين من عمرها، صاحبةُ عقل وفطنة.. كلّ هذه الأمور تدفعُها لفهم شخصيّة رسول الله، الذي لربّما بدَا منه إعجابٌ بها، الأمرُ الذي لا يغيبُ عن خديجة، ففاتحته وهي السّيدة الطاهرة الكريمة في أمرِ زواجه منها، ثمّ هي قبل هذا- وبعد هذا- لا تعرضُ عليه أمرًا منكرًا، وإنّما تعرض عليه الزّواج، فما العجبُ في هذا!! فإنما هي إنسان- بما تعنيه كلمةُ إنسان- يبحث عن إنسان، وقد وجده.

ورغم أنّ هذه قناعتي، إلّا أنّه لا مانع من قبول الرّوايتين معًا، بمعنى أنّ السيدة خديجة أرسلت مَن مهّدت لها الطريق، ثمّ فاتحتْ رسول الله في الأمر على نحْو ما تقدّم؛ وذلك لأنّ رواية الواقدي، والقائلة بإرسال صديقة من قِبَل خديجة لرسول الله- ﷺ- مسندة عن موسى بن شيبة عن عميرة بنت عبيد الله بن كعب بن مالك عن أمّ سعد بنت سعد بن الربيع عن نفيسة بنت أميّة، صاحبة خديجة، والتي أُرسلت لرسول الله ﷺ(١).

---

(١) - انظر: ابن سعد: الطبقات، حـ٨، ص ١٥: ١٦.

عمرُ السيّدة خديجة حين تزوّجها رسول الله:

مسألة عُمْر السّيدة خديجة حين تزوّجها رسولُ الله من المسائل المُثارة قديمًا وحديثًا، فما هو القولُ الرّاجح في هذه المسألة؟

الذي عليه أهلُ العلم أنّ السيدة خديجة ولدَتْ قبل الفيل بخمسَ عشرة سنة، وأنّها كانت يوم تزوّجها رسولُ الله– ﷺ– بنتَ أربعين سنة[١]، لكن نظرًا لأنها أنجبت من رسول الله ولديْن، وفي رواية أربعَ، فضلًا عن زينب ورقية وأمّ كلثوم وفاطمة؛ فإنّ البعض يجد شيئًا من التحرّج في التسليم بأنّ السيدة خديجة كانت في الأربعين من عمرها حين تزوّجت من رسول الله، وأنّها أنجبت جميعَ ولدها مِن رسول الله وهي فوقَ الأربعين، ومن ثمّ يلتمس البعض رواياتٍ أخرى وأخبارًا جديدة في هذا الشّأن، فهل هناك رواياتٌ تتحدّث عن سنّ آخر للسيدة خديجة؟

نعمْ، هناك روايةٌ أوردها ابنُ سعد عن غير شيخه وأستاذه محمد بن عمر الواقدي، جاء فيها: «أخبرنا هشامُ بن محمد بن السّائب، عن أبيه، عن أبي صالح، عن ابن عباس قال: كانت خديجة يومَ تزوّجها رسولُ الله– ﷺ– ابنة ثمان وعشرين سنة»[٢] وهي رواية ضعيفة جدًّا

---

(١) – انظر: نفسه، ص ١٧؛ ابن عبد البر: الاستيعاب، حـ ٤، ص ١٨١٨.

(٢) – الطبقات، حـ ٨، ص ١٦: ١٧.

بسبب ضعف رُواتها[1]، ومن ثمّ لا يمكنُ القبول بها، ومجافاة المشهور المعروف عند أهل العلم.

فالرّاجح أنّ السيدة خديجة كانتْ في الأربعين من عمرها حين تزوّجت رسولَ الله ﷺ، أمّا عن مسألة إنْجابها في هذا السنّ فالطبّ الحديث يؤكّد قدرةَ بعض النساء على الإنْجاب في سنّ الأربعين، وما بعد الأربعين، ولو طبّقنا التجربة الطبيّة على السيدة خديجة نجد أنّها تعضّد إنجابها في سنّ كبير، فالمرأة يمكنُها الحملُ في سنّ الأربعين بنسبة ٢٠٪، وتقلّ النّسبة إلى ٥٪ في سنّ الخامسة والأربعين، وتزيد نسبةُ تعرّض الجنين لمشاكل صحيّة قد تؤدّي بعد ذلك للوفاة في سنّ صغير، ولو سحبنا هذا على السيّدة خديجة نجد أنّها لم يعشْ لها من رسول الله- ﷺ- سوى الأربعة بنات، بينما ماتَ القاسم، وعبد الله وهو الطيب والطّاهر في سنّ صغير، كذلك فالإنجابُ في سنّ كبير يعوق المرأة عن إرضاع صغارها رضاعةً طبيعية، والرّوايات التاريخية تؤكّد أنّ السيدة خديجة كانت تسترضع لأبنائها، وتُعدّ ذلك قبلَ ولادتها[2].

---

(١) - انظر: نبيل بن منصور بن يعقوب البصارة: أنيس الساري في تخريج وتحقيق الأحاديث التي ذكرها الحافظ ابن حجر العسقلاني في فتح الباري، ص ١٢٤٤، بيروت، ٢٠٠٥ م، وقد ذكر ما نصّه: «.. وهشام بن محمد، قال ابن معين: غير ثقة، وقال الدارقطني متروك، وقال ابن عساكر: ليس بثقة.

وأبوه قال النسائي وغيره: متروك الحديث، وكذبه الجوزجاني وغيره، وقال الحاكم: أحاديثه عن أبي صالح موضوعة».

(٢) - انظر: ابن سعد: الطبقات، حـ ٨، ص ١٦؛ ابن حجر: الإصابة، حـ ٤، ص ٣٧٣.

الحكمةُ في فارق السنّ بين السيّدة خديجة والنبيّ عليه السلام:

وتزوّجها- عليه الصلاة والسلام- وقد تمّ له من العمر خمسة وعشرون عامًا[1]، ولها من العمر أربعون، وهذا يطرحُ سؤالاً: ألم تصنعْ حياة النبي- ﷺ- على عين الله (عزّ وجلّ)؟ فلماذا يزوّجه الله- تعالى- بامرأةٍ كبيرة عنه في السنّ بفارق خمسة عشَرَ عامًا؟!!

كان ذلك لحكمةٍ بالغةِ الرّقي، وهي أنّ النبي- ﷺ- لم يكن بحاجة إلى زوجةٍ فقط، وإنّما كان بحاجةٍ إلى أمّ وأختٍ وحبيبةٍ وسندٍ يُعاونه في شئون الدّعوة حين يبعثُ ويواجه أمواجَ الشّرك والكفر وحدَه... وقد كان لدى أمّنا خديجة (رضي الله عنها) من خبرة الحياة والعقل الرّاجح والسنّ الذي زكّته الأيام حنكة وتجربة تمكّنها من أن تكون أمًّا وأختًا وحبيبةً وسندًا لرسول الله- ﷺ- في رحلته الشاقة في الدعوة.

دلالةُ زواج النّبي ﷺ من السيدة خديجة:

دلّ زواج النبي ﷺ من السيّدة خديجة وهي في هذا السنّ على ما اتّصف به رسول الله ﷺ من عفّة وطهر، فهو لم يفعلِ السّوء في شبابه أبدًا- على نحْو ما أسلفنا- ولمّا تزوّج لم يكن موضوعُ اللذّة والشّهوة له كبيرُ وزنٍ عنده؛ فقد تزوّجها [أي خديجة] لشرفِها ونُبلها بين جماعتها وقومها؛ حتى أنّها كانت تلقّب في الجاهلية بالعفيفة الطاهرة، ولو كان

---

(١) - ابن سعد، حـ ٨، ص ١٧؛ ابن عبد البر: الاستيعاب، حـ ٤، ص ١٨١٨.

له (ﷺ) رغبةٌ في مجرّد المتعة لتزوّج ببكْرٍ أو بمَن هي أصغرُ سنًّا من خديجة (رضي الله عنها)، كذلك فقد ظلّ هذا الزّواج قائمًا حتى توفّيت خديجة عن خمسةٍ وستّين عامًا، وقد ناهز النبي (ﷺ) الخمسينَ من العمر دون أن يفكّر في الزّواج بأيّة امرأةٍ أو فتاة أخرى، وإبّان زواجِه بالسّيدة خديجة لم يتّخذ زوجةً أخرى أو أمَة، ولو شاء لوجَدَ الزّوجة والكثيرَ من الإماء[1]. ولعلّ هذا يكون فيه الردّ القاطع على مَن تقوّلَ على رسول الله ﷺدونَ علمٍ أو بيّنة.

ثمرةُ الزّواج المبارك:

تزوّجها- إذًا- رسولُ الله في ظروفٍ استثنائية من عُمر الزمن، فهو يبحث عن السكينة والرّحمة والمودّة والسّند، وهي كذلك، فأحبّها رسولُ الله ﷺ إذ حباها الله- عزّ وجلّ- بنعمةِ المال والجَمال فوق ما تقدّم، وأنجبَ منها رسولُ الله ﷺولدَه كلّه عدا إبراهيم فهو من السّيدة مارية، فقد ولدتِ السّيدة خديجه له: القاسم وبه كان يُكنّى، وعبد الله وهو الطّيب وهو الطاهر سمّي بذلك لأنّها ولدته في الإسلام، وبناته الأربع: زينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة (رضي الله عنهم أجمعين)[2] وهذا ما أجمعَ عليه أهل النّسب، أمّا ما جاء في بعض الرّوايات من أنّ

---

(١) - انظر: البوطي: فقه السيرة، ص ٥٣.

(٢) - ابن سعد: الطبقات، حـ ٨، ص ١٦

الطّاهر ولدٌ مستقلّ، وكذلك الطيّب؛ فهذا تخليط[١] وقد ماتَ القاسم وعبد الله صغارًا في مكة[٢]، وأمّا بناته فكلّهنّ أدركنَ الإسلام فأسلمنَ وآمنّ به، وهاجرنَ معه صلّى اللهُ عَلَيْهِ وسلّم[٣].

حبّ السّيدة خديجة لرسول الله، وإسلامُها:

وبعد ما تقدّم لا أجدُ من الكلمات وسحْرِ البيان ما أعبّر به عنْ هَناء النبيّ - ﷺ- بزوجته خديجة، وما وفّرته له من بيئةٍ حانية وحبٍّ يفوقُ الوصْف، ولكنْ دعونا نستعينُ بالله ونقول: لقدْ أحبّت السيدة خديجة رسولَ الله ﷺ حبًّا جمًّا، ومعي على ذلك شاهدٌ ودليل، فهي لمّا رأت حبَّ رسول الله وتقديرَه لمَوْلاها زيد بن حارثة وهبَتْه إيّاه، فكانت هي السّببَ فيما امتازَ به زيد من السّبق إلى الإسلام، حتّى قيل إنّه أوّل مَن أسلم مطلقًا[٤]. ولمّا أراد رسول الله ﷺ أن يردّ الجميل لعمّه أبي طالب ويخفّف عنه؛ فكفل عليّ بن أبي طالب[٥] لا تذكر كُتب السّيرة أنّ خديجة اعترضتْ على ذلك، بل رعتْ عليًّا، وكانت له أمًّا عطوفًا، كذلك فقد كانت تخرجُ إلى رسول الله تلتمسُه بأعلى مكّة ومعها

---

(١) - انظر: ابن عبد البر: الاستيعاب، حـ ٤، ص ١٨١٩.

(٢) - نفسه، ص ١٨١٨.

(٣) - ابن إسحاق: السيرة النبوية، حـ١، ص ١٣٠.

(٤) - ابن حجر: الإصابة، حـ ٤، ص ٣٧٤.

(٥) - ابن هشام: السيرة النبوية، حـ ١، ص ٢٦٣.

غذاؤه[1]!! في صورة تفوقُ الرّوعة بمراحل، وتشي بحبٍّ وعاطفة تفوق الوصف. وهي قبلَ هذا- وبعد هذا- تحترم النبي ﷺ وتحترم رغباته، فحينما كان يخرجُ إلى الخلوة، وينقطعُ لأيّام في غار حراء كانت تشجّعه وتساعده وتمدّه بما يحتاج من شرابٍ وطعام في غير ضجرٍ أو ضيق؛ بل بنفسٍ راضية مُقتنعة بما يفعل خليلُها[2].. ولمّا جاءه الوحي، وعاد إلى بيته وقد أخذَه الرّوْع، وقال لها: «قد خشيت على نفسي»، قالت له بقلبٍ مطمئن:» كَلَّا وَاللَّهِ مَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الكَلَّ، وَتَكْسِبُ المَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الحَقِّ»[3] فقد طمأنته حين قلق، وأراحته حين جهد، وذكّرته بما فيه من فضائل، مؤكّدة له أنّ الأبرار أمثاله لا يخذلون أبدًا، وإنّ الله إذ طبعَ رجلًا على المكارم الجزلة والمناقب السّمحة فلكيْما يجعله أهل إعزازه وإحسانه[4].. وكانت- رضي الله عنها- أوّل مَن آمن به وصدّقه[5]. وكان لا يسمع شيئًا يكرهه من الردّ عليه فيرجع إليها إلاّ

---

(١) - ابن حجر: الإصابة، حـ ٤، ص ٣٧٤.

(٢) - انظر: ابن سعد: الطبقات، حـ ١، ص ٢٧٢.

(٣) - البخاري: الجامع الصحيح، حـ ١، ص ٣ (كتاب بدء الوحي)، دار ابن الجوزي، القاهرة، ٢٠١١ م؛ وانظر نفس المعنى في ابن هشام: السيرة النبوية، حـ ١، ص ٢٥٤؛ وابن سعد: الطبقات، حـ ١، ص ٢٧٢.

(٤) - الغزالي: فقه السيرة، ص ٩٣: ٩٤، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ١٩٧٦م.

(٥) - ابن هشام: السيرة النبوية، حـ ١، ص ٢٥٨.

تثبته وتهوّن عليه أمرَ النّاس[1].. وصبرت- رضي الله عنها، كما هو معروف- في الحصار الظّالم الذي فرضته قريش على رسول الله لمدّة ثلاث سنوات، وكانت فوق هذا تكرم وتبرّ مَن يحبّهم رسول الله ﷺ، فتراها تصلُ السيدة ثويبة (أوّل مرضعة لرسول الله) وتكرمها لمجرّد أنّها أرضعت النبي لمرّات قليلات[2]، وتُكرم كذلك السّيدة حليمة، التي جاءتها ذات مرّة تشتكي الفاقة، فعادتْ من عندها ومعها بعيرٌ يحمل الخيرات، وأربعون رأسًا من الغنم[3]!! فهل تريد- عزيزي القارئ- دليلًا أدلّ، وشاهدًا أشهدَ على حبّ السيدة خديجة لرسول الله بعد ما تقدّم؟!

وفاةُ السّيدة خديجة (أمّ العيال، وربّة البيت):

مرّت السّنون الطيبة سريعًا، وفي العام العاشر من البعثة توفّيت السيدة خديجة لعشرٍ خلوْن من رمضان وهي بنتُ خمس وستّين سنة، ودفنها رسولُ الله بالْحَجُونِ ونزل في حفرتها[4]، ولم تكنْ وفاة السيدة خديجة بالأمْر الهيّن على رسول الله؛ فقد دخلته خلّة لوفاتها[5]، فلمّا

(١) - نفسه، وانظر: ابن عبد البر: الاستيعاب، حـ ٤، ص١٨٢٠.

(٢) - ابن حجر: الإصابة، حـ ٤، ص ٣٤١.

(٣) - ابن سعد: الطبقات، حـ ١، ص ١٦١.

(٤) - نفسه، حـ ٨، ص ١٨، ١٩ [والحَجُون: جبلٌ بِمَكَّة]

(٥) أي أصابه الحزن لوفاتها.

سُئِلَ في هذا قال: أجلْ «كانت أمّ العيال وربّة البيت»[١].. وإنها وربّ الكعبة كلمات تكتب بماء العيون.. ويا ليتَ كلّ امرأةٍ في بيتها تدرك هذا المعنى الذي ألحّ عليه رسول الله- ﷺ-، تدرك أنّها أمّ العيال، وربّة البيت، فتحافظُ على بيتها، وعلى ولدها، وعلى زوجها.

وفاءُ النبي ﷺ لذكرى خديجة:

ماتتِ السّيدة خديجة، وظلّ رسول الله- ﷺ- محبًّا لها وفيًّا لذكراها، وكتبُ الحديثِ والسّيرة مليئة بالأدلّة على ذلك، لكنْ أجمل وأرقّ ما جاء في هذا ما رواه البخاري، من حديث عائشة رضي الله عنها، أنّ النبيّ- ﷺ- كان إذا ذبح الشّاة، يقول: أرْسلوا إلى صديقات خديجة، فلمّا لفت هذا نظرَ السّيدة عائشة، قالت: «كأنّه لم يكنْ في الدنيا امرأةٌ إلّا خديجة»، فقال لها رسولُ الله: «إنّها كانت.. وكانت.. وكان لي منها ولدٌ»[٢]، وفي رواية مسلم «فقال رسولُ الله: إنيّ قد رزقتُ حُبَّهَا»[٣] وفي رواية أخرى «إنيّ لأحبّ حبيبها»[٤] وكأنّه- ﷺ- يرتقي بالعلاقة بين الرّجل وزوجته إلى درجةٍ لا تدرك، فهو يحبّها، ويحبّ مَن

(١) - ابن حجر: الإصابة؛ حـ ٤، ص ٣٧٣ (وقد أسند الحديث برواية ابن سعد، وقال: وسنده قوي مع إرساله).

(٢) - صحيح البخاري، حـ ٢، ص ٢١٠ (باب تزويج النّبي خديجة وفضلها) حديث رقم ٣٨١٨.

(٣) - صحيح مسلم بشرح النووي، حـ ١٥، ص ٢٨٩٩ (باب فضائل خديجة أمّ المؤمنين)، دار التقوى، القاهرة، ٢٠٠٤ م.

(٤) -ابن حجر: الإصابة، حـ ٤، ص ٣٧٥.

أحبّت.. في صورةٍ نادرة من الوفاء والحبّ مثلها في أجْمل معانيها محمّد رسول الله- ﷺ- معلم الدّنيا معنى الحبّ والرحمة.

كذلك فقد أثنى النبي- ﷺ- على خديجة ما لم يثنِ على غيرها، تقول عائشة فيما أسنده ابنُ عبد البر: «كَانَ رَسُولُ اللهَّ- صلّى اللهُّ عَلَيْهِ وسلّم- لا يَكَادُ يَخْرُجُ مِنَ الْبَيْتِ حَتَّى يَذْكُرَ خَدِيجَةَ فَيُحْسِنُ الثَّنَاءَ عليها، فذكرها يومًا مِنَ الأَيَّامِ، فَأَدْرَكَتْنِي الْغَيْرَةُ، فَقُلْتُ: هَلْ كَانَتْ إلّا عَجُوزًا، فَقَدْ أَبْدَلَكَ اللهُّ خَيْرًا مِنْهَا، فَغَضِبَ حَتَّى اهْتَزَّ مُقَدَّمُ شَعْرِهِ مِنَ الْغَضَبِ، ثمّ قَالَ: لا وَاللهَّ، مَا أَبْدَلَنِي اللهُّ خَيْرًا مِنْهَا، آمَنَتْ [بِي] إِذْ كَفَرَ النَّاسُ، وَصَدَّقَتْنِي إِذْ كَذَّبَنِي النَّاسُ، وَوَاسَتْنِي فِي مَالِهَا إِذْ حَرَمَنِي النَّاسُ، وَرَزَقَنِي اللهُّ مِنْهَا أَوْلادًا إِذْ حَرَمَنِي أَوْلادَ النِّسَاءِ. قَالَتْ عَائِشَةُ: فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: لا أَذْكُرُهَا بِسَيِّئَةٍ أَبَدًا.»[١].

فضلُ السّيدة خديجة:

لنْ أطيلَ هنا القول؛ ففضلُ السيدة خديجة مشهورٌ معروف؛ لذلك فسوف أكتفي بما رواه البخاري ومسلم أنّ عليًّا (رضي الله عنه) سمع رسولَ الله (ﷺ) يقول: «خيرُ نسائها مريم بنت عمران وخير نسائها خديجة بنت خويلد.»[٢] بمعنى أنّ السّيدة مريم خير نساء الأرض في

(١) - الاستيعاب، حـ ٤، ص ١٨٢٣: ١٨٢٤.

(٢) - انظر: البخاري، حـ ٢، ص ٢١٠ (باب تزويج النّبي خديجة وفضلها) حديث رقم ٣٨١٥؛ صحيح مسلم بشرح النووي، حـ ١٥، ص ٢٨٩٨ (باب فضائل خديجة أمّ المؤمنين) حديث رقم ٢٤٣٠.

عصْرها، وأنّ السّيدة خديجة خيرُ نساء الأرض في عصرها، كما أوضحَ النّووي رحمَه الله[١].

بشارةُ السّيدة خديجة بالجنة:

وبعد رحلةِ كفاحٍ مع رسول الله- ﷺ- جاءت البُشرى من السّماء لأوّل مؤمنةٍ مع رسول الله ﷺ بأنّها من أهل الجنة، فقد أتى جبريل- عليه السلام- النبيّ، ﷺ، فقال: «أقرئ خديجةَ من الله ومنّي السّلام، وبشّرها ببيتٍ في الجنّة من قصبٍ، لا صخبَ فيه ولا نصب»[٢]، فرضي الله عن أمّي، أمّ المؤمنين خديجة، وجمعنا معها في الجنّة إنْ شاء الله.

كلمةٌ قبلَ الختام:

بعد ما تقدّم من سيرةٍ عطرة لسيّدة عظيمة، تُرى هل كان رسولُ الله- ﷺ- بحاجةٍ إلى ذلك القلب الطيّب؟ والإجابة القطعيّة: نعمْ كان بحاجةٍ إليه، وكلّنا فخورون بانتسابنا لهذا القلب الطيّب، أوّل قلبٍ مؤمن مع رسول الله، أوّل قلبٍ يحمل همّ الدّعوة مع الحبيب المُصطفى- ﷺ-، فهنيئًا لنا بأمّ المؤمنين خديجة.

---

(١) - نفسه، ص ٢٩٠٠.

(٢) - انظر: البخاري، حـ ٢، ص ٢١٠ (باب تزويج النّبي خديجة وفضلها) حديث رقم ٣٨٢٠ ؛ صحيح مسلم بشرح النووي، حـ ١٥، ص ٢٨٩٨ (باب فضائل خديجة أمّ المؤمنين) حديث رقم ٢٤٣٢.

٢- سَوْدَةُ بنْت زَمْعَة
(رضي اللّه عنها)

مفتاحُ شخصيّتها:

تمحْورت شخصيّة السّيدة سوْدة- رضي الله عنها- حولَ القناعة والرّضا، فهي راضية النفس، وهذا هو مفتاحُ شخصيّتها، والذي حمَلَ لها السّعادة في الدّنيا والآخرة، ففي الدّنيا هي تتعامل مع كلّ ما واجهتْ من مِحن أو ملمّات بالرّضا، والرّضا فقط، ومن ثمّ عاشت مطمئنّةَ البال راضية. وهي لمّا رضيت بالقليل أكرمَها الله بالكثير فصيّرها أمًّا للمؤمنين وزوجةً لخاتم المرسلين فسعدتْ في الدّنيا والآخرة. وقد أكسبها الرّضا مُلحة، غلّفتها ابتسامة صادقة، فصارتْ صانعة البهجةِ في حياة رسول الله ﷺ.

كلمةٌ قبل البداية:

لو أحببتُ أن أقدّم بكلمةٍ رقيقة في حقّ السّيدة سوْدة، تلك السيّدة التي تعلوها ابتسامة كابتسامةِ الفطرة السّليمة، ونقاءٌ كنقاءِ الملائكة، ما وجدت أجمل ولا أحلى من القول أنّها مَن خلفتْ خديجة في حياةِ

رسول الله- ﷺ-، والسيدة خديجة تلك الشمسُ المشرقة مَن يأتي بعدَها لا بدّ أن يأخذ مِن سناها وضيائها ما يجعله متوهّجًا في عطائه وإخلاصه، فهنيئًا لسوْدة أن تكون تاليةَ خديجة في حياة رسول الله ﷺ.

بطاقةُ تعارفٍ بالسّيدة سوْدة:

- هي السيّدة الفاضلة أمّ المؤمنين سوْدة بنت زمعة بن قيس بن عبد شمس القرشية العامرية[١].

- أمّها الشّموس بنتُ قيس بن زيد الأنصارية، من بني عدي بن النجار[٢].

- كانت من السّابقين للإسلام، فإسلامُها قديم[٣].

- مِن المهاجرات الأول للحبشة[٤].

حياتها قبل رسول الله :

تذكر كُتبُ السّير أنّ السيدة سوْدة عاشتْ حياةً بسيطة كمعظم

---

(١) ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة، حـ ٨، ص ١٩٦، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥ هـ.

(٢) نفسه.

(٣) ابن سعد: الطبقات الكبرى، حـ ٨، ص ٤٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٠م.

(٤) نفسه

أهل مكّة، فتزوّجت بالسّكران بْن عَمْرو بْن عَبْد شمس بْن عَبْد ودّ بْن نصر بْنِ مَالِكِ بْنِ حِسْلِ بْنِ عَامِرِ بْنِ لؤي، فلمّا وصلها خبرُ الدين الجديد أسلمتْ بمكّة قديمًا وبايعت. وأسلمَ زوجُها السكران بن عمرو، وخرجا جميعًا مهاجرين إلى أرض الحبشة في الهجرة الثانية(١).

وهذه النصوصُ المتواترة عن حياةِ السّيدة سوْدة قبل زواجها برسول الله- ﷺ- تفصح عن عدّة رسائل :

أوّلها: أنّها- رضي الله عنها- من أصحابِ الفطرة السّليمة، فقد قبلت بدين الفطرة النقية في سهولةٍ ويُسر، وكانت من أوائل مَن أسلمنَ لله ربّ العالمين، ولعلّ اقترانها برسول الله- ﷺ- بعد ذلك كان بمثابة مكافأةٍ ربّانية لها، غير أنّ المكافأة الدّنيوية محدودة، أمّا عطاءُ الله فهو غيرُ محدود، فقد صارتْ أمّ المؤمنين، وسوف تبعث كزوجةٍ لإمام المتّقين ﷺ، ولعلّ مقعدَها في الجنّة قد أُعدّ لتجمع مع مَن أحبّت في عليّين.

ثانيها: أنّها عانتْ وزوجُها ما عانى المسلمون من تضييق وآلام، وأنّها صبرت على دينها كالصّبارة الأصيلة التي تصبرُ لحرّ الشّمس، فلا يزيدها إلّا نداوة، ونحن نعلم أنّ البعض قد يفتنْ لكنْ ليس مِن هذا البعض السّيدة سوْدة الصّابرة المحتسبة قوية الإيمان كالنّخلة في كبريائها.

---

(١) نفسه

ثالثها: تُرى لماذا هاجرت السيّدة سوْدة إلى الحبشة، وتركت أهلَها وبلدها، وتغرّبت في بلاد بعيد، وضحّت براحتها؟! ليس مِن إجابة سوى أنّها اقتنعت بفكرةٍ أصيلة وهي الحفاظُ على الدّين، وتبليغه للعالمين، فالمرءُ مهما ضحّى وبذل الغالي والنّفيس ما عدل هذا قيمة الدّين وحياطته وصوْنه، والمرءُ حينما يضحّي من أجل دينه بكلّ ما يملك؛ فهو كمَن باع ترابَ الدّنيا بجنّةٍ عرضُها السّموات والأرض، أعدّت للمتقين، فنعمَ البيعُ، البيعُ لله وفي الله.

والآنَ أسأل: قلب طيّب كهذا ألا يستحقّ أن يكون قلبَ أمٍّ من أمّهات المؤمنين؟!

زواجُها من رسول الله ﷺ :

ظلّت السّيدة سوْدة فترةً في الحبشة، ثمّ عادتْ مع زوجها وابن عمّها السّكران بن عمرو إلى مكّة حيث توفّي عنها، فأصبحتْ أرملةً وعانتْ فوق معاناتها معاناةً جديدة، ولم يكنْ يدور بخلدِها أنّ هذه المعاناة قد تكون بوّابةَ الفرج، وبدايةَ مرحلة جديدة في حياتها.. فها هو رسولُ الله- ﷺ- يرسلُ خوْلةَ بنت حكيم، امرأة عثمان بن مظعون لخطبتِها بعد أن أحلّت، ويتزوّجها رسولُ الله- ﷺ- في رمضان سنة عشرة من النبوة[1].
وفي زواجها مِن رسول الله- ﷺ- عدّة دروس وعِبَر مهمّة:

(١) انظر: ابن سعد، حـ٨، ص ٤٢.

١- قد نجدُ في مجتمعاتنا المعاصرة حرجًا إذا تزوّجت المرأةُ بعد وفاة زوجها، خاصّة إذا كان لديها أبناء، وقد ترغبُ بعض النّسوة في الزّواج، لكنّ مخافة اللّوم والحرج تمنعُها من هذا، والبعضُ قد يتزوّجن سرًّا، أو يعشنَ راغباتٍ في الزواج، ممتنعات عنه بحُكْم ما تقدّم، فيتعرّضن للفتن. وهنا نجد خصيصةً تمتّع بها المجتمعُ المسلم الأوّل حاربت مثل هذه العادات والتقاليد الخاطئة، وهذه الخصيصةُ هي الحرصُ على إعفاف المجتمع، وتحصينِ رجاله ونسائه، فبمجرّد وفاة زوج السّيدة سوْدة وانقضاء عدّتِها طلبَها رسولُ الله- ﷺ- للزّواج، وهي- وقد علمت مكانته- وافقتْ ورحّبت به دون أدنى حرج.

لكن، ماذا لو ظلّت المرأة وفيّةً لذكرى زوجها، مفرّغةً نفسها لتربية ولدها؟ لا حرج، فقد أثنى رسولُ الله- ﷺ- على امرأةٍ رفضت الزواج بعد وفاة زوجها، وفرّغت نفسها لرعاية ولدها، وهنا تظهرُ عظمة الإسلام؛ فهو يعطي الحلولَ الشرعيّة للمشكلات الاجتماعية، ثمّ يترك الحرية للمرأة المسلمة للاختيار بما يناسب ظروفها وقدرتها، وهذه عظمةٌ تحسب للإسلام لا شكّ.

٢- أخرج ابنُ سعد بسندٍ مرسل، رجالُه ثقات، أنّ خوْلة بنت حكيم قالت لرسول الله- ﷺ- عقب وفاة السّيدة خديجة: أفلا أخطبُ عليك؟ قال: بلى. قال: فإنكنّ معشرَ النساء أرفقُ بذلك،

فخطبتْ عليه سوْدة بنت زمعة[1].. وهنا نلاحظُ تطبيقًا عمليًّا لقول الله تعالى» ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾«، فالسيّدة خولة بنت حكيم رأتِ النّبي- ﷺ- مهمومًا لوفاة خديجة؛ فأحبّت أن تخفّف عنه، وتروّح عن قلبه بعروسٍ جديد.. وهي في نفس الوقت تحاول أن تساعد هذه المسلمة الكريمة السّابقة للإسلام «سوْدة» بأن تصيّرها زوجةً لرسول الله- ﷺ-، وأمًّا للمؤمنين.

٣- وأفضلُ الشّفاعات- فيما روينا- أنْ تشفع بين اثنين في نكاح، وهذا المعنى طبّقته السيدة خوْلة بنت حكيم بصورةٍ رائعة تنمّ عن فطرةٍ سليمة وسريرةٍ نقيّة، فهي حينما توسّطت في زواج بين رسول الله- ﷺ- وأختٍ مسلمة بحاجةٍ إلى ونيسٍ لم يدفعْها إلى ذلك إلّا رغبةٌ صادقة في الخير، فهي تعرض السّيدة سوْدة على رسول الله- ﷺ- زوجة، وترغبه في ذلك آملةً في الخير، حريصةً عليه، مستبشرةً بعواقب ما أقدمتْ عليه.

ولو نظرنا واقعَ الأمّة الآن نجدُ الكثير يبتعد- وبحرصٍ- عن مثل هذه الشّفاعات؛ خوفًا من مغبّتها، بل ويطلقُ الأمثلةَ الشّعبية المخالفة للسّنة النبوية من باب تحذير النّاس أنْ يمشوا في شفاعة زواج، وحجّة هؤلاء أنّهم قد يتشفّعوا في زيجةٍ، ثمّ تفشل؛ فيكون اللومُ

(١) نفسه، ص ٤٥؛ ابن حجر: الإصابة، حـ٨، ص ١٩٦.

عليهم وسوءُ العاقبة.. وهذا أمرٌ وارد، وهو يدفع في اعتقادي إلى أنْ نصدّق فيما نفعل أو نقول، فإذا رشحتَ بنتَ صديق، أو إحدى بناتِ المسلمين لأخٍ مسْلم، فلتتبيّن أمرها من حيث الأصل الطيب، ومتانة الدّين، وليكنْ هذا بالنّسبة للطرفين، أمّا البعدُ عن شفاعة الزّواج لمجرّد الخوف من الفشل وما يتبعُه من لوْم؛ فمُخالف لسنّة النبيّ ﷺ.

٤- وفي زواج النبي- ﷺ- من السيّدة سوْدة لمسةٌ لطيفة، فهي أرملة، وهي كما تصفُها كتبُ السّير امْرَأَة ثَبِطَة، أيْ ثقيلة[1]، ولم تكنْ في حُسن السّيدة خديجة، ومع ذلك تزوّجها رسولُ الله- ﷺ-، وجبرَ بخاطرها، كأختٍ مسلمة، مجاهدة، صابرة، محتسبة، ومسألةُ جبر الخواطر مسألةٌ مُعتبَرة في الإسلام؛ فقد اشتهرَ على ألسنة الصالحين «أنّه ما عُبدَ اللهُ بأفضلَ من جبر الخواطر والقلوب».

صانعةُ البهجةِ في بيت النبوّة:

تزوّجت السيدة سوْدة رسول الله- ﷺ- ونعمَتْ بجواره، واستأنستْ به بعدَ وَحْشة، وأكرمَها الله بكرمه الموصول، فما كان منها إلّا أنْ شكرت لربّها ما أعطاها، فكانت خيرَ زوجةٍ لرسول الله ﷺ، فهي مُطيعة له، حريصةٌ على رضائه، وفوقَ هذا ناشرة للبهجةِ في قلبه، مُبديةٌ للابتسامةِ على شفتيه، فقد ذكرَ ابنُ سعد ما نصّه: «أَخْبَرَنَا أَبُو مُعَاوِيَةَ

(١) انظر: ابن عبد البر: الاستعاب، حـ ٤، ص ١٨٦٧

الضَّرِيرُ. أَخْبَرَنَا الأَعْمَشُ عَنْ إِبْرَاهِيمَ، قَالَ: قَالَتْ سَوْدَةُ لِرَسُولِ الله ﷺ: صَلَّيْتُ خَلْفَكَ الْبَارِحَةَ فَرَكَعْتَ بِي حَتَّى أَمْسَكْتُ بِأَنْفِي مَخَافَةَ أَنْ يَقْطُرَ الدَّمُ. قَالَ: فَضَحِكَ. وَكَانَتْ تُضْحِكُهُ الأَحْيَانَ بِالشَّيْءِ[1]»، وهذا النصّ اللطيف يشي بروحٍ مرحة، راضية، زرعَ الرّضا في قلبها ابتسامةً جعلتها صانعةَ البهْجة في بيت رسول الله- ﷺ- فهي تضحِكُ النبيَّ- ﷺ-، وتحرص على سروره، ويا ليتَ نساء الأمّة يتعلّمن هذا الأدبَ الرّاقي من أمّ المؤمنين سوْدة فيحرصْنَ على نشر البهجة والسرور في بيوتهنّ، ويخفّفن عنْ أزواجهنّ ما يلاقونَ من مشقّة الحياة وصعوبتها.

أهمّيةُ العامل النّفسي عند اختيار الزّوجة:

كانت السيّدةُ سوْدة مرحةً راضية، تشعّ سعادة وسرورًا؛ فانعكس هذا على بيتِ النّبي- ﷺ-، لكن تُرى هل ما كانتْ عليه سوْدة من بهجةٍ وسرور خلقٌ ظهر فجأة؟ وهل من المُمكن أن يتحوّل الإنسان من طابع الكآبةِ والعبوس إلى البشاشة والسّرور؟ لا شكّ أنّ التحوّل من حالةٍ إلى حالةٍ على النّقيض منها مِن الصّعوبة بمكان، ولا شكّ أنّ ما عليه الإنسان من طبعٍ وخُلق لا يظهرُ فجأة، وإنّما هو نتاجُ تربيةٍ وبيئة أثّرت على نفسيّته فظهرَ على الصورة التي هو عليها، ومِن هنا أشدّ على يدِ إخواني ضرورةَ تحرّي العامل النّفسي عند الاختيار، فالفتاةُ المربّاة في

---

(١) ابن سعد: الطبقات، حـ ٨، ص ٤٤.

بيتٍ ممتلئ بالحبّ والرّحمة، البيت المشعّ بالبهجة والسّرور؛ لا بدّ وأنها تخرج إلى الحياة- ومن ثمّ بيتِ زوجها- وبها من هذه المعاني جميعًا معنى كُتبَ عليه «زوجةٌ من بيتٍ طيّب، تشعّ أملًا وسرورًا، وهي صالحةٌ للحياة»، والعكس صحيحٌ فإنّ الفتاة الخارجةَ من بيتٍ مضطرب، قلق، مليء بالعللِ النّفسية، كتبتْ يدُ القدر على جبهتها «فتاةٌ غيرُ صالحةٍ للحياة!!»، فالحرصَ كلّ الحرصِ عند الاختيار على أهمّية العامل النفسي، فخذْ فتاةً رُبّيت في بيتٍ ممتلئ بالحبّ، فتزرع هي في بيتك الحبّ وتنمّيه، وتجعل حياتك معنًى من معاني السّرور في أرقى صوره.

مراعاةُ خاطر النبيّ ﷺ وقلبه:

كانت السيدة سوْدة- كما قدّمنا- أوّلَ زوجةٍ لرسول الله، ﷺ، بعد السيدة خديجة، وقد انفردتْ برسول الله- ﷺ- نحوًا من ثلاث سنين أو أكثر حتّى دخلَ بعائشة، وقد نعمتْ بحياة سعيدة مع رسول الله ﷺ، فلمّا أسنت ورأتْ تعلّق قلبِ النّبيّ بعائشة بنت أبي بكر- رضي الله عنهما-، وهبّت يومها لعائشة رعايةً لقلب رسول الله ﷺ [(١)]، فكانت عائشة- رضي الله عنها- تقدّر هذا لها وتثمّنه، فتقول: «مَا مِنَ النَّاسِ امْرَأَةٌ أَحَبُّ إِلَيَّ أَنْ أَكُونَ فِي مِسْلاخِهَا مِنْ سَوْدَةَ بِنْتِ زَمْعَةَ»[(٢)].

---

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء، حـ ٢، ص٢٦٥: ٢٦٦، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٢م.

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى، حـ ٨، ص ٤٣: ٤٤.

وليس عندي ما أصفُ به عظمةَ هذه السيّدة الكريمة، فعلى الرغم من حبّها لرسول الله- ﷺ- وسعادتها به؛ إلّا أنّها لمّا رأت غروبَ شمسها وشروقَ شمس غيرها انزوتْ في الظلّ، وتركت الشمسَ وإشراقَها لرسول الله- ﷺ- واكتفت هي أنْ تراقبَه عن كثبٍ ينعمُ بمَن أحبّ.. اختارت الرّاحة في راحةِ رسول الله ﷺ.. واختارت السّعادة في سعادةِ رسول الله.. وضحّت رعايةً لقلب النّبي ﷺ.. وفي هذا كلّه تبدو عظمةُ شخصيّة هذه الأمّ الكريمة أمّ المؤمنين سوْدة رضي الله عنها.

وفي مقابل هذه العظمة وهذا الإيثار لا تملكُ السيّدة عائشة إلّا أن تردّ التّحية بأحسنَ منها فتقول: «مَا مِنَ النَّاسِ امْرَأَةٌ أَحَبُّ إِلَيَّ أَنْ أَكُونَ فِي مِسْلاخِهَا مِنْ سَوْدَةَ بِنْتِ زَمْعَةَ»، وهنا تجتمع العظمةُ بأختها لتكونا عنوانًا لأمّهات المؤمنين.

إكرامُ النّبي ﷺ للسيّدة سوْدة:

ذكر ابنُ سعد في طبقاته: «أَخبَرَنَا عَبْدُ اللهَّ بْنُ مَسْلَمَةَ بْنِ قَعْنَبٍ. حَدَّثَنَا أَفْلَحُ بْنُ حُمَيْدٍ عَنِ الْقَاسِمِ بْنِ مُحَمَّدٍ عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا قَالَتِ: اسْتَأْذَنَتْ سَوْدَةُ رَسُولَ اللهَّ- صلّى اللهُّ عَلَيْهِ وسلّم- لَيْلَةَ الْمُزْدَلِفَةِ أَنْ تَدْفَعَ قَبْلَهُ وَقَبْلَ حَطْمَةِ النَّاسِ. وَكَانَتِ امْرَأَةً ثَبِطَةً. يَقُولُ الْقَاسِمُ: وَالثَّبِطَةُ الثَّقِيلَةُ. قَالَ: فَأَذِنَ لَهَا فَخَرَجَتْ قَبْلَ دَفْعَةِ النَّاسِ وحُبِسْنَا حَتَّى أَصْبَحْنَا فدفعنا بدفعة. ولأن أَكُونُ اسْتَأْذَنْتُ رَسُولَ اللهَّ كَمَا

اسْتَأْذَنَتْهُ سَوْدَةُ فَأَكُونُ أَدْفَعُ بِإِذْنِهِ قَبْلَ النَّاسِ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ مَفْرُوحٍ بِهِ»، وروى عن عائشة- أيضًا- أنّها قالت: «وَدِدْتُ أَنْ كُنْتُ اسْتَأْذَنْتُ رَسُولَ اللَّهِ- صلّى اللهُ عَلَيْهِ وسلّم- كَمَا اسْتَأْذَنَتْهُ سَوْدَةُ فَأُصَلِّيَ الصُّبْحَ بِمِنًى قَبْلَ أَنْ يَجِيءَ النَّاسُ. فَقَالُوا لِعَائِشَةَ: اسْتَأْذَنَتْهُ سَوْدَةُ؟ فقالت: نعم. إنّها كانت امرأةً ثقيلةً ثبطة؛ فأذنَ لها»[1]. فانظر معي وتأمّل عظمة الإسلام متمثّلة في أبهى معانيها فيما فعلَه رسولُ الله- ﷺ- مع السيدة سودة، فهي تؤدّي مناسك الحجّ مع رسول الله- ﷺ-، ويشُقّ عليها أن تدفع مع النّاس فستأذنتْ رسولَ الله- ﷺ- «أَنْ تَدْفَعَ قَبْلَهُ وَقَبْلَ حَطْمَةِ النَّاسِ «فلا تجد من رسول الله إلّا التّيسير لا التّعسير، فيسمحُ لها رسولُ الله- ﷺ- مراعاة لظروفها «إذ كَانَتِ امْرَأَةً ثَبِطَةً». وفي هذا تبدو عظمةُ الإسلام في التّيسير على الناس، ويظهر بوضوحٍ واضح إكرامُ النّبيّ- ﷺ- للسيّدة سودة، ورعاية خاطرها والتّيسير عليها لدرجةِ أنّ عائشة- رضي الله عنها- تمنّت لو كانت مكانَ سوْدة وأُذن لها كما أُذن للسيدة سوْدة، ولعلّ هذه كرامةٌ جديدة أكرمَ اللهُ بها السيدة سوْدة، تلك المسلمة أصيلةُ الإسلام.

امتثالُها لأوامر النّبي ﷺ:

وفضلًا عن مناقب السّيدة سوْدة الكثيرة في حياةِ رسول الله- ﷺ- إلّا أنها تأبى إلّا أن تتحفنا بالمزيدِ بعد وفاته- ﷺ- فتظلّ ملتزمةً

---

(١) حـ٨، ص ٤٤: ٤٥.

بأوامره، حريصةً عليها، مشدّدةً على نفسها إرضاءً لذكرى مَن أحبّت.. ذكرى رسول الله (عليه السلام)، وفي هذا يقول ابنُ سعد، رحمه الله: «أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عُمَرَ. أَخْبَرَنَا ابْنُ أَبِي ذئب عن صالح مولى التؤامة قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ يَقُولُ: [حَجَّ رَسُولُ اللهَّ- صلّى اللهُّ عَلَيْهِ وسلّم- بِنِسَائِهِ عَامَ حَجَّةِ الْوَدَاعِ ثمّ قَالَ: هَذِهِ الْحَجَّةُ ثمّ ظُهُورَ الْحُصُرِ.] قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: وَكَانَ كلّ نِسَاءِ النَّبِيِّ- صلّى اللهُّ عَلَيْهِ وسلّم- يَحْجُجْنَ إلّا سَوْدَةَ بِنْتَ زَمْعَةَ وَزَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ. قَالَتَا: لا تُحَرِّكُنَا دَابَّةٌ بَعْدَ رَسُولِ اللهَّ- صلّى اللهُّ عَلَيْهِ وسلّم -»[1] «قال صالح: فكانت سوْدة تقول لا أحَجّ بعدها»[2].

وهذه النصوصُ تعني أنّ النّبي- ﷺ- أراد من زوجاتِه أنْ يلزمنَ بيوتهنّ بعد حجّة الوداع، ولكنّه- ﷺ- لم يردْ أن يشقّ عليهنّ فورَّى في حديثه؛ فقال: «هَذِهِ الْحَجَّةُ ثمّ ظُهُورَ الْحُصُرِ»، بمعنى لزوم البيوت، والكلام يحمل أكثرَ من وجه.. وقد لا يحملُ أمرًا لأمّهات المؤمنين بعدم الحجّ والعمرة بعد وفاة النّبي، ﷺ، لكن السّيدة سوْدة احتاطت لنفسها فنفّذت أمرَ النّبي- ﷺ- والذي يحمل أكثرَ من وجهٍ على ظاهره؛ حرصًا على طاعته وعدمِ مخالفته، فرضيَ الله عنها من امرأةٍ كريمةٍ طيبة.

---

(١) نفسه، ص ٤٤.

(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء، حـ ٢، ص ٢٦٨.

كرمُها رضي الله عنها:

وأخرج ابنُ سعد بسندٍ صحيح عن محمّد بن سيرين أنّ عمر بعثَ إلى سودة بغرارة من دراهم، فقالت: ما هذه؟ قالوا: دراهم. قالت: في غرارة مثل التّمر! ففرّقتها[1]. وفي رواية أنهّا قالت: «يَا جَارِيَةُ بَلِّغِينِي الْقِنْعَ»، أي اليسير منها ثمّ فرقتها[2]. فقد كانت- رضي الله عنها- كريمة غايةَ ما يكون الكرم، وسوف نلاحظ أنّ أغلب أمّهات المؤمنين إن لم يكنّ كلهُنّ امتزنَ بهذه الخصيصة «الكرم الواضح، والسّخاء الجلي»، ولعلّ هذا يطرح سؤالًا: هل تأثّرن في هذا برسول الله- ﷺ-؟ والإجابة القطعيّة: نعم، فقد كان- ﷺ- كما روى البخاريّ في صحيحه من حديث ابن عباس «أَجْوَدَ النَّاسِ»[3]. فالنّبي- عليه السلام- هو الأصل، وزوجاتُه- ومنهم سوْدة- ارتبطنَ بهذا الأصل؛ فأخذنَ منه هذه الخصيصةَ الطيبة، خصيصة السّادة في الكرم وحبّ العطاء، فصلّى اللهُ على رسول الله، ورضيَ عن زوجاته أمّهات المؤمنين.

---

(١) ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة، حـ ٨، ص ١٩٧.

(٢) ابن سعد، حـ ٨، ص ٤٥.

(٣) صحيح البخاري، حـ ١، ص ٤ (حديث رقم ٦).

سوْدة وحديث رسول الله ﷺ:

أبتِ السّيدة سوْدة (رضى الله عنها) أن تتركَ الدّنيا إلّا وقد تركتْ أثرًا من بعدها، وأيّ أثر، إنّه حديثُ رسول الله- ﷺ-، فقد ذكر الذّهبي، رحمه الله، ما نصّه: «يروى لسوْدة خمسةُ أحاديث، منها في الصحيحين حديثٌ واحد»[1] وقد روى عنها ابنُ عباس، ويحيى بن عبد الرحمن بن أسعد بن زرارة [2].

وفاةُ صاحبةِ الابتسامة العابدة:

وقد اختُلفَ في تاريخ وفاة السّيدة سوْدة بنت زمعة، فهناك رواية تقول بوفاتها في آخر زمان عمر بن الخطاب[3]، وأخرى- وهي رواية الواقدي- تقول: إنّها تُوُفِّيَتْ بِالْمُدِينَةِ فِي شَوَّالٍ سَنَةَ أَرْبَعٍ وَخَمْسِينَ فِي خِلافَةِ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ[4].

والرّاجحُ عندي روايةُ محمّد بن عمر الواقدي إذ أنّه عمدةٌ في هذا الباب، والله أعلم.

---

(١) سير أعلام النبلاء، حـ ٢، ص ٢٦٩.

(٢) ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة، حـ ٨، ص ١٩٧.

(٣) نفسه «وقال ابن أبي خيثمة: توفيت سودة بنت زمعة في آخر زمان عمر بن الخطاب، ويقال: ماتت سنة أربع وخمسين ورجّحه الواقدي».

(٤) ابن سعد، حـ ٨، ص ٤٦ أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عُمَرَ. أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِّ بْنِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: تُوُفِّيَتْ سَوْدَةُ بِنْتُ زَمْعَةَ بِالْمُدِينَةِ فِي شَوَّالٍ سَنَةَ أَرْبَعٍ وَخَمْسِينَ فِي خِلافَةِ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ.

٣- صاحبةُ المَقام الرّفيع
عَائِشَةُ بِنْتُ أبي بَكْرٍ الصِّدِّيق
رضي الله عنها

مفتاحُ شخصيّتها:

حينما نتحدّث عن شخصيّةٍ في حجْم السيّدة عائشة بعطاءاتها المتعدّدة وتشعّب تاريخها ومشاركتها الفاعلة في كثيرٍ من الأحداث؛ قد نجدُ صعوبةً في الوصول لمفتاح شخصيتها، وهذه الصعّوبة حينما تتبدّد تظهر بوضوحِ ثلاثةِ معالمَ رئيسية في شخصيّتها؛ أوّلها: فطرة سليمةٌ حرّكتها وأثّرت في مواقفها المختلفة حتّى الوفاة، وثانيها: حبّ فاقَ الوصف لرسول الله ﷺ وإحساسٌ بمكانتها الرّفيعة في قلب النّبي ﷺ وقلوب المسلمين، فهي في حركاتها وسكناتها تستشعرُ هذا المعنى وتسيرُ به، فهي أمّ المؤمنين عائشة، حبيبةُ رسول الله ﷺ. وثالثها: ذكاءٌ فطري، وتميّز عقليٌّ جعلها أعلمَ نساءِ الأمّة، ويضاف لهذه الثلاثة تأثّرٌ مُبهر بالنّبي ﷺ جعلها بابًا فريدًا في السّخاء والعطاء، وبهذا يكتمل مفتاحُ شخصيّتها رضي الله عنها.

كلمةٌ قبل البداية:

لو تحدّثنا عن الرقّة في أسمى معانيها، والفطرةِ السليمة في أبهى صورها، والسّموِّ والرّقي في ارتقائهما وعلوّهما، والبساطةِ في وضوحها وضُحاها وبهجتها؛ لوجدنا هذه المعاني تستمدّ ضياءها، وتأخذ سَناها من شخصيّة السيّدة عائشة (رضي الله عنها)، تلك النبتة الطيبة، صاحبةُ الأصل الطيّب والمقام الرّفيع، فهلمّوا لنتعرّف- عن قرب- على سيرتها العطرة.

بطاقةُ حياة:

- هي رمزُ العفّة، الصدّيقة بنت الصّديق، عَائِشَةُ بِنْتُ أبي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ بْنِ أبي قُحَافَةَ بْن عَامِرِ بْن عَمْرِو بْنِ كَعْبِ بْنِ سَعْدِ بْنِ تَيْمِ بن مرة بن كعب بن لؤي[1].

- وأمّها أمّ رومان بنت عمير بن عامر بْن دهمان بْن الحَارِث بْن غنم بْن مالك بن كنانة، وأمُّها أمّ رومان «امرأةٌ من أهل الجنة».

- أبوها الصّديق، خليفة المسلمينَ بعد رسول الله، ﷺ، الذي بذل كلّ ما يملكُ في سبيل الله.

---

(١) عن نسب السيدة عائشة، انظر، ابن سعد، الطبقات، حـ ٨، ص ٤٦.

- وُلِدَتِ- رضي الله عنها- في السَّنَةَ الرَّابِعَةَ مِنَ النُّبُوَّةِ فِي أَوَّلِهَا[1].

- وكانت امرأةً بيضاءَ جميلة. ومِن ثمّ يقال لها: الحُميراء.

- ولم يتزوّجِ النّبي- ﷺ- بكرًا غيرها.

- يقول الذّهبي- رحمه الله- في حقّها: «ولا أعلم في أمّة محمّد- ﷺ- بل ولا في النّساء مطلقًا؛ امرأةً أعلمُ منها»([2])».

رؤيةُ النّبي- عليه السلام- لعائشةَ في المنام:

روى البخاريّ في صحيحه من حديث عائشة- رضي الله عنها- أَنَّ النَّبِيَّ، صلّى اللهُ عَلَيْهِ وسلّم، قَالَ لَهَا: «أُرِيتُكِ فِي الْمَنَامِ مَرَّتَيْنِ أَرَى أَنَّكِ فِي سَرَقَةٍ مِنْ حَرِيرٍ (أي رأى صورتها في قطعةٍ من حرير، أو رآها في ثوبٍ من حرير)، وَيَقُولُ هَذِهِ امْرَأَتُكَ فَاكْشِفْ عَنْهَا فَإِذَا هِيَ أَنْتِ فَأَقُولُ إِنْ يَكُ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ يُمْضِه»، وقد ذكر ابنُ حجر- رحمه الله- في شرح الحديث أنّ هذه الرّؤيا كانت بعد البعثة، فهي رؤيا وحيّ لها تعبير، وتعبيرُها هو وقوعها بعد ذلك بزواجه- ﷺ- منها، وهناك أحاديثُ عدّة جاءت في نفس هذا المعنى ذكرها الإمام الذّهبيّ في ترجمة عائشة رضي الله عنها[3].

---

(1) نفسه، ص ٦٣.

(2) سير أعلام النبلاء، حـ ٢، ص ١٤٠، مؤسسة الرسالة، ٢٠٠١ م.

(3) راجع: سير أعلام النبلاء، حـ ٢، ص ١٤٠: ١٤١.

وهذه الرّؤية الطيّبة لها في نفسي معانٍ، فهي إشارة لطيفة من الوحي الإلهي لرسول الله- ﷺ- أنْ أقْدمْ على الزّواج من ابنة أبي بكر تكريمًا لهذا الصحابي الجليل، ورفعًا لقدر عائشة بنت أمّ رومان، هذه المرأة الصالحةُ التي وصفها رسول الله- ﷺ- أنّها امرأةٌ من أهل الجنة. وفضلًا عن هذا المعنى الجليّ هناك معنى خفي، فنحن نعلم أنّ حياة رسولِ الله- ﷺ- صُنعت على عين الله عزّ وجلّ، برعايته لنبيه وحياطته له وتوطئة الأمور من أجل نجاح دعوته الخاتمة، ومِن ثمّ فإنّ الله، عزّ وجلّ، كتب عائشة أمّ للمؤمنين حتّى قبل أن تولد، وهيّأها من أجل أن تكون زوجةً لرسول الله فتسعد بهذا- كما قال ابنُ عباس[1]- وتبلّغ الدّين عن رسول الله، ﷺ، فهي أعلم نساء الأمّة، ومسندُها عن رسول الله يتجاوزُ الألفين حديثًا، وقد كانت وقتَ أنْ تزوّجها رسول الله صغيرةً في السّن، جيدة الحفظ، سليمة الفطرة؛ فتأثّرت تأثرًا بيّنًا برسول الله عليه السلام، ووعت منه، وبلّغت عنه ما خفي من أحواله، وقد مات عنها- ﷺ- وهي في الثامنة عشرةَ من عمرها، وعاشتْ بعده طويلًا؛ فأعطى هذا فرصةً كبيرة للناس أن يأخذوا منها ويتعلّموا أمورَ دينهم، وأعطاها فرصةً غالية لتوجيه النّاس للخير، وحضّهم عليه،

---

(١) انظر ابن سعد: الطبقات، حـ٨، ص ٦٠ حيث ذكر ما نصه: «أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ يُونُسَ، حدّثنا زهير، أخبرنا ليث بْنُ أَبِي سُلَيْمٍ، حَدَّثَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ سَابِطٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ أَتَى عَائِشَةَ فِي شَيْءٍ وَجَدَتْ عَلَيْهِ فِيهِ فَقَالَ: أَمّ الْمُؤْمِنِينَ، مَا سُمِّيتِ أَمّ الْمُؤْمِنِينَ إِلّا لِتَسْعَدِي، وَإِنَّهُ لاسْمُكِ قَبْلَ أَنْ تُولَدِي».

فقد كانت من أحسن النّاس رأيًا في العامّة[1]، وبالتّالي فزواجُ النّبي- عليه السلام- منها كانَ- لا شكّ- لمقصدٍ من مقاصد الشريعة.

زواجُها من رسول الله ﷺ :

وبهذا التّوجيه سبّب اللهُ، تعالى، الأسبابَ لنبيّه محمد- ﷺ- ليتزوج من عائشة بنت أبي بكر، رضي الله عنها، فقد أخرج ابنُ سعد بسندٍ مرسل، رجالُه ثقات، ما نصّه: «جَـاءَتْ خَوْلَةُ بِنْتُ حَكِيمٍ امْـرَأَةُ عُثْمَانَ بْنِ مَظْعُونٍ إِلَى رسول الله- ﷺ- فقالت: يَا رَسُولَ اللهَّ كَأَنِّي أَرَاكَ قَدْ دَخَلَتْكَ خَلَّةٌ لِفَقْدِ خَدِيجَةَ. فَقَالَ: أَجَلْ. كَانَتْ أمّ الْعِيَالِ وَرَبَّةَ الْبَيْتِ. قَالَتْ: أَفَلا أَخْطِبُ عَلَيْكَ؟ قَالَ: بَلَى فَإِنَّكُنَّ مَعْشَرَ النِّسَاءِ أَرْفَقُ بِذَلِكَ. فَخَطَبْتُ عَلَيْهِ سَوْدَةَ بِنْتَ زَمْعَةَ مِنْ بَنِي عَامِرِ بْنِ لُؤَيٍّ وَخَطَبْتُ عَلَيْهِ عَائِشَةَ بِنْتَ أَبِي بَكْرٍ فَتَزَوَّجَهَا. فَبَنَى بِسَوْدَةَ بِمَكَّةَ وَعَائِشَةُ يومئذ بِنْتَ سِتِّ سِنِينَ. حَتَّى بَنَى بِهَا بَعْدَ ذَلِكَ حِينَ قَدِمَ الْمَدِينَةَ»[2].

ومعنى هذا النصّ أنّ السيّدة خولة أرادت أن تخفّف عن رسول الله- ﷺ- ما عاناه من حزنٍ على وفاة السّيدة خديجة؛ فخطبت له سوْدة التي آمنت به واتّبعته، وعائشة ابنةُ أحبّ خلق الله إليه، فتزوّج-

---

(١) ابن حجر: الإصابة، حـ ٨، ص ٢٣٣.

(٢) الطبقات الكبرى، حـ ٨، ص ٤٥.

ﷺ- سوْدة ودخل بها سنة عشرة من النبوة، أمّا عائشة فقد كانت بعدُ صغيرةً؛ إذ تذكر النّصوصُ الصحيحة أنّها كانت في السادسة من عمرها فتزوّجها رسول الله- ﷺ- دون أن يبنيَ بها حتّى هاجر للمدينة فبنى بها، وذلك فِي شوال عَلَى رأس ثمانية أشهر مِن الهجرة، تقول عائشة رضي الله عنها: «وَكُنْتُ يَوْمَ دَخَلَ بِي ابْنَةَ تِسْعِ سِنِينَ»[1].

مسألةُ سنّ السّيدة عائشة حين تزوّجها رسول الله:

هناك لغَطٌ وكلامٌ كثير حول سنّ السيدة عائشة حين تزوّجها رسولُ الله- ﷺ-، ولعلّه يسكته كلّه ما أوردَه البخاريّ من حديث عائشة رضي الله عنها: «أنّ النّبي - ﷺ- تزوّجها وهي بنت ستّ سنين، وأُدخلت عليه وهي بنتُ تسع، ومكثت عنده تسعًا»، وهذا هو المُجْمع عليه.

وكما قدّمنا لم يكنْ زواج النَبي- ﷺ- من السيدة عائشة إلّا بإشارةٍ واضحة من الوحي لما قدّمنا من أسباب، كذلك فالزّواج من النّساء في مثل هذا السنّ كان عرفًا مشهورًا لدى العرب آنذاك.

ما الرأي في زواج الصّغيرة الآن؟!

قدّمنا أنّ زواج النّبي- ﷺ- من عائشة تمّ في ظروف خاصّة، ولمقصد من مقاصد الشّريعة الغرّاء، وأنّ زواج البنات في مثل هذا السنّ

---

(١) نفسه، ص ٤٦.

الصغير كان عرفًا وشيئًا مألوفًا لدى العرب آنذاك، أمّا الآن فالوضعُ مختلف تمامًا، فالفتاة من أجل أن تصبح زوجةً بحاجةٍ إلى قسطٍ كافٍ من التعليم، والسنّ المناسب الذي يمكّنها من القيام بواجباتها الزّوجية، ورعاية أسرتها الجديدة، وتحمّل الصّعاب المختلفة التي تعتري سفينة الأسرةِ الناشئة، ثمّ هبْ أنّك زوّجت ابنتك في سنّ صغير، فهل سوفَ يعاملها زوجُها كما كان يعاملُ رسول الله- ﷺ- عائشة؟!!

هجرتُها وما بها من إنسانيّات:

تزوّج رسولُ الله- ﷺ- السيدةَ عائشة بمكّة فِي شَوَّالٍ سَنَةَ عَشْرٍ مِنَ النُّبُوَّةِ قَبْلَ الْهِجْرَةِ لِثَلاثِ سِنِينَ وهي ابْنَةُ سِتِّ سِنِينَ ولم يبنِ بها آنذاك، وظلّت بمكّة إلى أن هاجر رسولُ الله للمدينة، فقد خلفها وخلّف بناته، فلمّا قدم المدينة بعثَ لإحضارهم، وأودّ هنا أن أورد روايةَ السيدة عائشة التي وصفتْ هجرتها وما اعتراها فيها، وجانبًا من فعل النّبي- عليه السلام- في المدينة، وذلك لفصاحةِ روايتها وتعبيراتها النّقية، يقول ابنُ سعد: أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عُمَرَ. حَدَّثَنَا مُوسَى بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ رَيْطَةَ عَنْ عَمْرَةَ بِنْتِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا سئلت: متى بنى بكِ رسولُ الله ﷺ؟ فَقَالَتْ:

لَمَّا هَاجَرَ رَسُولُ اللَّه- صلّى اللهُ عَلَيْهِ وسلّم- إِلَى الْمَدِينَةِ خَلَّفَنَا وَخَلَّفَ بَنَاتِهِ. فَلَمَّا قَدِمَ الْمَدِينَةَ بَعَثَ إِلَيْنَا زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ وَبَعَثَ مَعَهُ أَبَا

رَافِع مَوْلاهُ وَأَعْطَاهُمَا بعيرين وخمسمائة درهم أخذها رسول الله- ﷺ- من أَبِي بَكْرٍ يَشْتَرِيَانِ بِهَا مَا يَحْتَاجَانِ إِلَيْهِ مِنَ الظَّهْرِ وَبَعَثَ أَبُو بَكْرٍ مَعَهُمَا عَبْدَ الله بن أريقط الديلي بِبَعِيرَيْنِ أَوْ ثَلاثَةٍ. وَكَتَبَ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ يَأْمُرُهُ أَنْ يَحْمِلَ أَهْلَهُ أُمِّي أمّ رُومَانَ وَأَنَا وَأُخْتِي أَسْمَاءَ امْرَأَةَ الزُّبَيْرِ. فَخَرَجُوا مُصْطَحِبِينَ.

فَلَمَّا انْتَهَوْا إِلَى قُدَيْدٍ اشْتَرَى زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ بِتِلْكَ الْخَمْسِمِائَةِ ثَلاثَةَ أَبْعِرَةٍ ثمّ رَحَلُوا مِنْ مَكَّةَ جَمِيعًا وَصَادَفُوا طَلْحَةَ بْنَ عُبَيْدِ اللَّهِ يُرِيدُ الْهِجْرَةَ بِآلِ أَبِي بَكْرٍ فَخَرَجْنَا جَمِيعًا وَخَرَجَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ وَأَبُو رَافِعٍ بِفَاطِمَةَ وَأُمِّ كُلْثُوم وَسَوْدَةَ بِنْتِ زَمْعَةَ. وَحَمَلَ زَيْدٌ أمّ أَيْمَنَ وَأُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ. وَخَرَجَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ بِأُمِّ رُومَانَ وَأُخْتَيْهِ. وَخَرَجَ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ وَاصْطَحَبْنَا جَمِيعًا حَتَّى إِذَا كُنَّا بِالْبِيضِ مِنْ مِنًى نَفَرَ بَعِيرِي وَأَنَا فِي مِحَفَّةٍ مَعِي فِيهَا أُمِّي. فجعلت أمي تقول: وا بنتاه! وا عروساه! حَتَّى أَدْرَكَ بَعِيرُنَا وَقَدْ هَبَطَ مِنْ لِفْتٍ فَسَلَّمَ اللَّهُ. عَزَّ وَجَلَّ. ثمّ إِنَّا قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ فَنَزَلْتُ مَعَ عِيَالِ أَبِي بَكْرٍ. وَنَزَلَ آل رسول الله وَرَسُولُ اللَّهِ- صلّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلّم- يَوْمَئِذٍ يُبْنَى الْمَسْجِدَ وَأَبْيَاتًا حَوْلَ الْمَسْجِدِ فَأَنْزَلَ فِيهَا أَهْلَهُ. وَمَكَثْنَا أَيَّامًا فِي مَنْزِلِ أَبِي بَكْرٍ. ثمّ قَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا يَمْنَعُكَ مِنْ أَنْ تَبْنِيَ بِأَهْلِكَ؟

قَالَ رسول الله ﷺ: الصَّدَاقُ. فَأَعْطَاهُ أَبُو بَكْرٍ الصَّدَاقَ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أُوقِيَّةً وَنَشًّا فَبَعَثَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ- صلّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلّم- إِلَيْنَا. وَبَنَى بِي

رَسُولُ اللهَّ فِي بَيْتِي هَذَا الَّذِي أَنَا فِيهِ وَهُوَ الَّذِي تُوُفِّيَ فِيهِ رَسُولُ اللهَّ- صلّى اللهَّ عَلَيْهِ وسلّم- وَجَعَلَ رَسُولُ اللهَّ لِنَفْسِهِ بابا في المسجد وِجَاهَ بَابِ عَائِشَةَ.

قَالَتْ: وَبَنَى رَسُولُ اللهَّ- صلّى اللهَّ عَلَيْهِ وسلّم- بِسَوْدَةَ فِي أَحَدِ تِلْكَ الْبُيُوتِ الَّتِي إِلَى جَنْبِي فَكَانَ رَسُولُ اللهَّ- صلّى اللهَّ عَلَيْهِ وسلّم- يَكُونُ عِنْدَهَا»[1].

وهذا النصّ الرّقيق الذي ترويه السيدةُ عائشة يدلّ على فصاحتها، وحلْوِ حديثها، وقدرتها على التّصوير، وفوق هذا فهو ممتلئ بروحٍ إنسانية عالية، ويُمكننا أن نستفيدَ منه عدّة فوائد نُجْملها فيما يلي:

أوّلًا: نلاحظ أنَّ روايات السيّدة عائشة فترةَ صباها الأولى ممتلئة بالفطرة السليمة، والإحساس المرهف، فهي تصوّر الأحداث في بساطةٍ ورقيّ، وتحسِنُ التّعبير، وهذا يشي بأنّنا نقف أمام إنسانةٍ رائعة بكلّ المقايس، وقلب أعدّه الله من أجل أن يكونَ في معيّة رسول الله ﷺ.

ثانيًا: يبدو من النصّ وعيُ السّيدة عائشة الشّديد وإدراكها لظروفِ زواجها من رسول الله، ﷺ، وكيف أنّه كانت له زوجة أخرى هي السّيدة سودة، وأنّ هذه الزوجة لها حقوقٌ على رسول الله، فالسّيدة عائشة تحترم زوجةَ رسول الله الأخرى، وتحترمُ حقوقها، وتتحدّث عنها بكلّ عفويّة وبساطة، وترى هذا بوضوحٍ في قولها: «وَبَنَى رَسُولُ

(١) نفسه، ص ٤٩: ٥٠.

اللهَّ- صلّى اللهُّ عَلَيْهِ وسلّم- بِسَوْدَةَ فِي أَحَدِ تِلْكَ الْبُيُوتِ الَّتِي إِلَى جَنْبِي فَكَانَ رَسُولُ اللهَّ- صلّى اللهُّ عَلَيْهِ وسلّم- يَكُونُ عِنْدَهَا».

ثالثًا: يظهرُ من رواية السّيدة عائشة مدى ترابط المسلمين وقوة رابطة الإيمان بينهم، ويبدو هذا في تكاتفِ وتعاون هؤلاء المُهاجرين، وحرصِهم بعضهم على بعض، وجوّ الإخوة الذي جمعهم خلال رحلتهم من مكّة للمدينة.

رابعًا: يتّضح من النصّ أنّ النّبي- ﷺ- لمّا هاجر إلى المدينة لم يصطحبْ معه أهلَه من بنات أو أزواج، وهذه كَياسةٌ من رسول الله- عليه السلام-؛ فالطريق غيرُ آمن، ورحلتُه من مكّة للمدينة لم تكنْ سهلة، فلمّا استقرّ به الأمر في المدينة النبوية بعث مَن يثقُ به من صحبه لإحضار أهله كي يشاركوا في إقامة المجتمع المسلم بالمدينة.

خامسًا: يظهر- بوضوحٍ من النصّ- مكانةُ عائشة عند أهلها، واعتزازهم بكوْنها عروس رسول الله، ﷺ، وانظرْ إلى قول أمّها حينما تعرّضت لحادثٍ في الطريق «وا بنتاه! وا عروساه!..».

سادسًا: يشي النصّ بوضوح واضحٍ بمدى حبّ أبي بكر لرسول الله- ﷺ- وحرصُه على سعادته، وتيسيرِ الأمور له، فهو يدعو رسولَ الله للبناء بأهله، ويزلل له الصّعاب في سبيل إتْمام هذا الزّواج السعيد، فرضي الله عن أبي بكر وذريّته الطيبة.

سابعًا: نستدلّ من هذا النّص على مدى حبّ النّبي- صلوات الله عليه وسلّم- للسيدة عائشة إذ «جَعَلَ... لِنَفْسِهِ بابًا في المسجد وِجَاهَ بَابِ عَائِشَةَ»، وليس بعد ذلك من دليلٍ أدلّ ولا شاهدٍ أشهَد على حبّ النّبي الجَمّ للسيدة عائشة رضي الله عنها.

تقديرُ النبي ﷺ لسنّ عائشة، واحترامُه لصغرها:

لم تتزوّج السيدة عائشة في سنّها الصّغير هذا برجلٍ عادي، بل تزوّجت من رسول الله- ﷺ- الذي مثّل الرحمة في أدقّ معانيها، ومثّل الإنسانية في أرقى صورها، ومثّل من معاني الخير ما لو ظلّ القلم يكتب ما وجدَ صُحفًا يملؤها، إنّه محمد رسول الله.. وقد كان رسول الله ﷺ يعرفُ تمامًا الظّروف الخاصّة التي قُدر له فيها أن يتزوج عائشة، والغايات الكبرى التي ترمي إليها هذه الزيجة التي تمّت بإشارة ربانية، ومن ثمّ تعامل مع عائشة في رقيّ رحيم وسموّ رفيع؛ فقدّر سنّ هذه العروس الصّغير واحترمه، فكان لها القلبَ الطيّب الذي تسكن إليه، والزّوج الرحيم الذي تطمئنّ به، ذلك الزّوج الذي يرعى طفولتها ويهيّئ لها الأمرَ من أجل أن تنمو في بيئةٍ صحيحة فتتشربُ من رسول الله ﷺ العلم من أجل أن تنقله للناس.

والنصوصُ التّاريخية زاخرةٌ بالأمثلة التي تروي هذه المعاني النبيلة في شموخٍ واعتزاز، فقد روي عن عائشة أنّها قالت: «كنت ألعب

بالبنات- تعني اللعب- فيجيء صواحبي، فينقمعنَ من رسول الله ﷺ، فيخرج رسولُ الله، فيدخلنَ عليَّ، وكان يُسَربهنّ إليَّ، فيلعبن معي»[1] فانظرْ إلى عظمةِ رسول الله- ﷺ- وكيف يراعي حداثة سنّ عائشة لدرجة أنّه يُدخِل إليها صاحباتها يلعبنَ معها، ولا ينكرُ ذلك عليها. وانظرْ إلى قمّة احترامه لعقليّتها آنذاك، وتقديرِه لها، فقد رويَ عن عائشة قولها: «دَخَلَ عليَّ رسولُ الله وأنا ألعب بالبنات، فقال: ما هذا يا عائشة؟ قلت: خيلُ سليمان ولها أجنحة، فضحك»[2] بأبي هو وأمي ما أطيبه! وما أعظمَه من إنسان!.

وفضلًا عمّا تقدّم نجد نصًّا في غاية الرّوعة يوضّح حرص النبي- ﷺ- على أن تحيا عائشة سنّها دونَ ضجر مِن رسول الله أو سأم، فقد روى الزّهري، عن عروة، عن عائشة، قالت: «لقد رأيت رسولَ الله- ﷺ- يقوم على باب حجرتي، والحبشة يلعبون بالحراب في المسجد، وإنّه ليسترني بردائه لكي أنظرَ إلى لعبهم، ثمّ يقفُ من أجلي حتى أكون أنا التي أنْصرف، فاقدروا قدر الجارية الحديثة السنّ الحريصة على اللهو.

وفي لفظ معمّر، عن الزّهري: فما زلت أنظرُ حتى كنت أنا التي أنصرف، فاقدروا قدر الجارية الحديثة السنّ التي تسمع اللهو.

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء، حـ ٢، ص ١٥٠.

(٢) نفسه، ص ١٥٠: ١٥١.

ولفظ الأوزاعي عن الزّهري في هذا الحديث، قالت: قدم وفدُ الحبشة على رسول الله- ﷺ-، فقاموا يلعبون في المسجد، فرأيت رسولَ الله- ﷺ- يسترني بردائه، وأنا أنظرُ إليهم حتى أكون أنا التي أسأم»[1] فأيّ عظمة يمكننا الحديث عنها بعد ما تقدّم، ويا ليت الآباء يقتدون برسول الله في هذا الباب، فإنّا نجد- مع شديد الأسف- بعض الآباء ممّن يَدَّعي التّدين يضيّق على بناته الصّغيرات بدعوى الوقار والحشمة والحرص على الدّين، فيغتال بهذا التّدين الزائفِ براءةَ الطفولة في عين ابنته، ويجعلها تنشأ نشأة غير سويّة، ولا حول ولا قوة إلّا بالله.

رواياتُ عائشة عن فترة صباها:

لو أحببنا أنْ نشاهد الفطرة السليمة في أنقى صورها فلننظر إلى مرويّات السيدة عائشة في فترة صباها الأولى حين تزوّجت من رسول الله- ﷺ-، فمن ذلك ما رواه ابن سعد إذْ يقول: «أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عُمَرَ. حَدَّثَنِي أَبُو حَمْزَةَ مَيْمُونٌ مَوْلَى عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ عَنْ عُرْوَةَ عن عائشة قالت: تزوجني رسول الله وَإِنِّي لأَلْعَبُ مَعَ الْجَوَارِي. فَمَا دَرَيْتُ أَنَّ رسول اللهَّ تَزَوَّجَنِي حَتَّى أَخَذَتْنِي أُمِّي فَحَبَسَتْنِي فِي الْبَيْتِ عَنِ الْخُرُوجِ فَوَقَعَ فِي نَفْسِي أَنِّي تَزَوَّجْتُ. فَمَا سَأَلْتُهَا حَتَّى كَانَتْ أُمِّي هِيَ الَّتِي أَخْبَرَتْنِي»[2] فالمتذوّق لهذا النصّ الرّائع يعيش جوّ الطفولة الهادئة

---

(١) نفسه، ص ١٥١.

(٢) الطبقات الكبرى، حـ ٨، ص ٤٦: ٤٧.

التي عاشتها عائشة رضي الله عنها، ويتلمّس بساطتها ونقائها وكأنّه يشاهدها، والمصادر مليئة بهذه المرويّات البريئة التي تنمّ عن شخصية سليمة الفطرة جيّدة التعبير.

حبّ النّبي ﷺ لعائشة:

أحبّ رسولُ الله- ﷺ- السيدة عائشة حبًّا صادقًا، والنصوص صريحة في هذا الباب، فقد روي عمرو بن العاص أنّه سأل النبي ﷺ: «أيّ الناس أحبّ إليك يا رسول الله؟ قال: عائشة. قال: فَمِن الرجال؟ قال: أبوها»[1] وهذا تصريحٌ من رسول الله بحبّه لعائشة، ودليلٌ على أصلها الطيّب، فما كان- عليه السلام- ليحبّ إلّا طيبًا، وليس أدلّ على حبّ النبي- ﷺ- لعائشة مِنْ أنَّ الناسَ كانوا يتحرّون اليوم الذي يكون فيه النبيﷺ عند عائشة لإرسال هداياهم إليه، فقد جاء في الصّحيح، من طريق حماد، عن هشام بن عروة، عن أبيه: «كان النّاس يتحرّون بهداياهم يوم عائشة..»[2]، وقد أخرج الترّمذيّ من طريق الثّوريّ، عن أبي إسحاق، عن عمرو بن غالب- أنّ رجلًا نال من عائشة عند عمار بن ياسر، فقال: اغربْ مقبوحًا، أتؤذي محبوبةَ

---

(١) انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء، حـ ٢، ص ١٤٢ (وقد أخرج هذا الحديث البخاري).

(٢) ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة، حـ ٨، ص ٢٣٣.

رسول اللهَّ صلّى اللهَّ عليه وآله وسلّم»[١]، ومن طريق أبي إسحاق عن سفيان بن سعد، قال: زاد عمر عائشة على أزواج النبي- صلّى اللهَّ عليه وآله وسلّم- ألفين، وقال: «إنّها حبيبة رسول اللهَّ صلّى اللهَّ عليه وآله وسلّم»[٢] وذلك في العطاء الذي فرضه عمر لأمّهات المؤمنين.

وحبّ النّبي- ﷺ- لعائشة، مثل حبّه للأصل الطيب، حبّه لابنةِ أوّل مَن آمنَ بدعوته، أبي بكر، الذي قال في حقّه: لو كنتُ متّخذًا خليلًا من هذه الأمّة لاتّخذت أبا بكر خليلًا، ولكنْ أخوة الإسلام أفضل، لقد مثّل حبّه لعائشة تقديرًا عاليًا لأمّ رومان التي قال فيها رسولُ الله حين موتها: «مَن سرّه أن ينظر لامرأةٍ من أهل الجنة فلينظرْ لأمّ رومان»، لقد أحبّ رسولُ الله الحميراء التي جاء في الصّحيح أنه لم ينكح بكرًا غيرها، ومن أجمل ما قرأت من مرويّاتٍ تدلّل على حبّ رسول الله للسيدة عائشة أنّه ﷺ في إحدى سفراته إذا كان بالليل «سار مع عائشة، يتحدّثُ معها»[٣]!، وكان يمازحها وتمازحه، فقد روى هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة، قالت: «سابقني النبي ﷺ، فسبقتُه ما شاء، حتى إذا رهقني اللّحم، سابقني، فسبقني، فقال: يا عائشة هذه بتلك»[٤].

---

(١) نفسه.

(٢) نفسه، ص ٢٣٤.

(٣) صحيح مسلم، حديث رقم ٢٤٤٥.

(٤) الذهبي: سير أعلام النبلاء، حـ ٢، ص ١٧٤.

غيرة زوجات النّبي من عائشة:

كان من الطّبيعي- والأمرُ كذلك- أن تغارَ باقي زوجات رسول الله- ﷺ- من الحُميراء عائشة- رضي الله عنها- فقد روى حماد بن زيد، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة، قالت: «كان الناس يتحرّون بهداياهم يومَ عائشة. قالت: فاجتمعنَ صواحبي إلى أمّ سلمة، فقلنَ لها: إنّ الناس يتحرّون بهداياهم يومَ عائشة، وإنا نريد الخير كما تريده عائشة، فقولي لرسول الله- ﷺ- يأمر الناس أن يهدوا له أينما كان، فذكرت أمّ سلمة له ذلك، فسكت، فلم يردّ عليها، فعادتِ الثانية، فلم يردّ عليها، فلمّا كانت الثالثة قال: يا أمّ سلمة، لا تؤذيني في عائشة، فإنّه والله ما نزل عليّ الوحي وأنا في لحافِ امرأة منكنّ غيرها»[1] [متّفق على صحته].

ثمّ إنهنّ دعون فاطمة بنت رسول الله ﷺ، فأرسلت إلى رسول الله ﷺ، تقول إنّ نساءك ينشدنَكَ العدل في بنت أبي بكر، فكلّمته، فقال: يا بنية، ألا تحبّين ما أحبّ؟ قالت: بلى، فرجعتْ إليهنّ وأخبرتهنّ، فقلن: ارجعي إليه، فأبتْ أن ترجع، فأرسلنَ زينب بنت جحش، فأتته.. وقالت: إنّ نساءك ينشدنك الله العدلَ في ابنة أبي قحافة... فنظرَ النبي- ﷺ- إلى عائشة، وقال: إنّها ابنة أبي بكر[2].

---

(١) نفسه، ص ١٤٢.

(٢) نفسه، ص ١٤٤.

ولعلّ قول النّبي - ﷺ- «إنها ابنة أبي بكر» يلخّص قصّة النّبي ﷺ مع عائشة، الصّديقة بنت الصّديق.

ولا أريد أن ينظرَ القارئ نظرةَ دهشة إلى فعل أمّهات المؤمنين، فهنّ بشر يتأثّرن كما يتأثر النّاس، والغيرة طبعٌ بشريّ مع اختلاف درجة حدّته، ومع ذلك فإنّ النبى - ﷺ- ما إن يتكلّم مع إحداهنّ ويوضّح لها وجهة نظره؛ إلّا وتعود وتستغفرُ الله وتتوب إليه، ومِن ذلك قول أمّ سلمة لرسول الله حينما قال لها: لا تؤذيني في عائشة، فقالت «أتوب إلى الله من أذاك يا رسول الله»[1]، وهذا هو المنتظَرُ من زوجات رسول الله- ﷺ-.

صورٌ إنسانية ما بين عائشة ورسول الله ﷺ:

امتلأت حياةُ السّيدة عائشة- رضي الله عنها- بصورٍ إنسانية عديدة مع رسول الله ﷺ، مِن ذلك ما رواه ابنُ سعد قال: «أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عُمَرَ. حَدَّثَتْنِي فَاطِمَةُ بِنْتُ مُسْلِمٍ عَنْ فَاطِمَةَ الْخُزَاعِيَّةِ قَالَتْ: سَمِعْتُ عَائِشَةَ تَقُولُ يَوْمًا: دَخَلَ عَلَيَّ يَوْمًا رسول الله- ﷺ- فقلت: أَيْنَ كُنْتَ مُنْذُ الْيَوْمِ؟ قَالَ: يَا حُمَيْرَاءُ كُنْتُ عِنْدَ أمّ سَلَمَةَ. فَقُلْتُ: مَا تَشْبَعُ مِنْ أمّ سَلَمَةَ؟ قَالَتْ: فتبَسَّمَ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهَّ إلّا تُخْبِرُنِي عَنْكَ لَوْ أَنَّكَ نَزَلْتَ بِعُدْوَتَيْنِ إِحْدَاهُمَا لَمْ تُرْعَ وَالأُخْرَى قَدْ رُعِيَتَ أَيُّهمَا كُنْتَ

---

(١) نفسه.

تَرْعَى؟ قَالَ: الَّتِي لَمْ تُرْعَ. قُلْتُ: فَأَنَا ليس كَأَحَدٍ مِنْ نِسَائِكَ. كلّ امْرَأَةٍ مِنْ نِسَائِكَ قَدْ كَانَتْ عِنْدَ رَجُلٍ غَيْرِي. قَالَتْ: فَتبَسَّمَ رَسُولُ اللهَّ- صلّى اللهَّ عَلَيْهِ وسلّم»[1].

اختيارُ عائشةَ اللهَ ورسولَه:

حينما طلبتْ زوجاتُ رسول الله- ﷺ- أن يوسّع عليهنّ في المعاش، وطلبنَ منه من زينة الدنيا ما ليس عنده من النّفقة أنزل الله الخيار، فخيّر النّبي- عليه السلام- زوجاتِه بين الطلاق وبين اختيار الله ورسوله والدّار الآخرة؛ فاخترنَ الآخرة على الدنيا[2].

وقد بدأ رسولُ الله بعائشة[3] وفي ذلك يقول ابنُ سعد- رحمه الله- : «أَخْبَرَنَا كَثِيرُ بْنُ هِشَامٍ. حَدَّثَنَا جَعْفَرُ بْنُ بُرْقَانَ قَالَ: سَأَلْتُ الزُّهْرِيَّ عَنِ الرَّجُلِ يُخَيِّرُ امْرَأَتَهُ فَتَخْتَارُهُ قَالَ: حَدَّثَنِي عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: أَتَانِي نَبِيُّ اللهَّ- صلّى اللهَّ عَلَيْهِ وسلّم- فَقَالَ: إِنِّي سَأَعْرِضُ عَلَيْكِ أَمْرًا فَلا عَلَيْكِ أَنْ لا تَعْجَلِي بِهِ حَتَّى تشاوري أبويك. فقلت: وما هذا الأمر؟ قالت فتلا علي: «يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْواجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَياةَ الدُّنْيا وَزِينَتَها» الأحزاب: ٢٨. إِلَى قَوْلِهِ: «فَإِنَّ اللهَّ أَعَدَّ لِلْمُحْسِناتِ

(١) الطبقات، حـ٨، ص ٦٣: ٦٤.

(٢) انظر: السيوطي تفسير الجلالين، ص ٤٢١، مكتبة الصفا، القاهرة، ٢٠٠٤ م.

(٣) السيوطي: لُباب النقول في أسباب النزول، ص ٣٥٣، والكتاب مطبوع على هامش «تفسير الجلالين.

مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيماً» الأحزاب: ٢٩. قَالَتْ عَائِشَةُ: فِي أَيِّ ذَلِكَ تَأْمُرُنِي أَنْ أُشَاوِرَ أَبَوَيَّ! بَلْ أُرِيدُ اللهَّ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ. قَالَ: فَسُرَّ بِذَلِكَ النَّبِيُّ- صلّى اللهُّ عَلَيْهِ وسلّم- وَأَعْجَبَهُ وَقَالَ: سَأَعْرِضُ عَلَى صَوَاحِبِكِ مَا عَرَضْتُ عَلَيْكِ. قَالَتْ: فَلا تُخْبِرْهُنَّ بِالَّذِي اخْتَرْتُ. فَلَمْ يَفْعَلْ. كَانَ يَقُولُ لَهُنَّ كَمَا قَالَ لِعَائِشَةَ. ثمّ يَقُولُ قَدِ اخْتَارَتْ عَائِشَةُ اللهَّ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ»[١].

فضلُ السّيدة عائشة رضي الله عنها:

فضلُ السّيدة عائشة غنيٌّ عن البيان، فيكفيها فضل أنّها حبيبة رسول الله ﷺ، وأمّ المؤمنين، لكنْ من باب نافلة القول نوردُ بعضَ الأحاديث والأخبار التي جاءت في فضلها- رضي الله عنها-، ومِن ذلك :

١- ما جاء في الصّحيح عن أنس بن مالك، قال: سمعت رسول الله يقول: «فضل عائشة على النّساء كفضل الثّريد على سائر الطّعام»[٢].

٢- وفي الصّحيح، من طريق حماد، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة أن النّبي -ﷺ- قال لأمّ سلمة: «لا تؤذوني في عائشة، فإنّه واللهَّ ما نزل عليّ الوحي وأنا في لحافِ امرأة منكنّ غيرها» وقد تقدّم الحديث.

---

(١) الطبقات الكبرى، حـ ٨، ص ٥٤.

(٢) صحيح مسلم، حـ ١٥، ص ٢٩٠٥، باب فضل عائشة رضي الله عنها، حديث رقم ٢٤٤٦، دار التقوى، القاهرة، ٢٠٠٤م.

٣- وفي «مسند أحمد» عن سفيان، عن مجالد، عن الشعبي، عن أبي سلمة، عن عائشة قالت: «رأيتك يا رسولَ الله وأنت قائمٌ تكلّم دحية الكلبي، فقال: وقد رأيته؟ قالت: نعم. قال: فإنه جبريل وهو يقرئك السّلام. قالت: وعليه السلام ورحمة الله، جزاه الله من زائرٍ ودخيل، فنعمَ الصاحب، ونعمَ الدّخيل». والدّخيل: الضّيف. وقد علّق الذّهبي على الحديث قائلًا: مجالد ليس بقوي(١).

٤- روى الحاكمُ في «مستدركه» من طريق يوسف بن الماجشون، قال: حدّثني أبي، عن عبد الرّحمن بن كعب بن مالك، عن عائشة، قالت: «قلت: يا رسول الله، مَنْ مِنْ أزواجك في الجنة؟ قال: أمّا إنّك منهنّ. قالت: فخيّل إليّ أنّ ذاك لأنّه لم يتزوّج بكرًا غيري».

٥- وقد أورد الذّهبي خبرًا عن عائشة جاء فيه أنّها قالت لنساء النبي ﷺ: «فضّلت عليكنّ بعشرٍ، ولا فخر: كنت أحبّ نسائه إليه، وكان أبي أحبّ رجاله إليه، وابتكرني ولم يبتكرْ غيري، وتزوّجني لسبع، وبنى بي لتسع، ونزل عذري من السّماء، واستأذن النبي- ﷺ- نساءه في مرضه، فقال: إنّه ليشقّ عليّ الاختلاف بينكنّ، فائذن لي أنْ أكون عند بعضكنّ، فقالت أمّ سلمة: قد عرفنا مَنْ تريد، تريد عائشة، قد أذنّا لك. وكان آخر زادِه من الدنيا ريقي؛ أتي بسواك، فقال: انكثيه

---

(١) سير أعلام النبلاء، جـ ٢، ص ١٤٦.

يا عائشة، فنكثته، وقُبِضَ بين حجري ونحري، ودفنَ في بيتي»، ثمّ علّق عليه فقال: هذا حديثٌ صالح الإسناد، ولكنْ فيه انقطاع[١].

عمْرُ عائشة حين توفّي عنها رسولُ الله:

رويَ في الصّحيح أنّ عائشة (رضي الله عنها) قالت: إنَّ النّبي - ﷺ - تزوّجها وهي بنت ستّ سنين، وأُدخلت عليه وهي بنت تسع، ومكثت عنده تسعًا»، وهذا يعني أنّ النّبي - ﷺ - مات عنها وهي ابنة ثَمانِيَ عَشْرَةَ سَنَةً، كما أكّد ابن سعد في أكثر من رواية[٢].

وبذلك يكون رسولُ الله - ﷺ - قد ترك عائشة وهي في ريعان الشباب، وفي أوْج قوّتها العقلية والذهنية، وقد كان ذلك بتدبير الله عزّ وجلّ، فهذه الشّابة المعروف عنها قوّة الحفظ، تلك التي تشرّبت علمَ رسول الله في شبابها الأوّل كان منوطًا بها البلاغُ عن رسول الله ﷺ، وتعليم الناس ما خفيَ من سنّته في بيته، وبين نسائه، وفي نومه، وفي يقظته، وفي غسله، وجنابته، بل وفي أدقّ شئونه ﷺ، وبذلك يتّضح لنا جليًّا المقصدَ الشّرعي من وراء زواج رسول الله - ﷺ - من عائشة في سنّ صغير، ولك أنْ تعلم - أيها القارئ الكريم - أنّها ماتت وهي بنت ستّ وستّين عامًا، بمعنى أنها ظلّت تُبلّغ عن رسول الله - ﷺ - ما يقرب من خمس عقود حتّى توفّاها الله راضيةً مرضيًّا عنها.

---

(١) نفسه، ص ١٤٦ : ١٤٧.

(٢) انظر: الطبقات الكبرى، حـ ٨، ص ٤٨.

كُنيتُها رضي الله عنها:

يقول ابنُ سعد رحمه الله: «أَخْبَرَنَا يَزِيدُ بْنُ هَارُونَ. أَخْبَرَنَا حَمَّادُ بْنُ سلمة عن هشام. يَعْنِي ابْنَ عُرْوَةَ. عَنْ عَبَّادِ بْنِ حَمْزَةَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ النِّسَاءَ قَدِ اكْتَنِينَ فَكَنِّنِي. قَالَ: تَكَنَّيْ بِابْنِكِ عَبْدِ الله»[1] وقد أوضح ابن عبد البر سبب هذه الكنية فقال: «واستأذنت رَسُول اللَّهَ صلّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلّم فِي الكنية فَقَالَ لَهَا: اكتنى بابنك عَبْد اللَّهَ بْن الزُّبَيْر يعني ابْن أختها»[2]. وابن أختها في مقام ابنها، فهي أمّ عبد الله، أمّا ما قيل من أنّها ولدتْ من النّبي- صلّى اللهّ عليه وآله وسلّم- ولدًا فمات طفلًا؛ فلم يثبُت[3].

وفي الحقيقة، فإنّ النّبي- ﷺ- لا زال يعلّمنا، فهو يجبر خاطرَ عائشة، ويكنيها «أمّ عبد الله»، وعبد الله هو ابنُ أختها أسماء، تلك المهاجرة الصابرة المحتسبة، ومن ذلك نتعلّم أنّه يجوز لمَن لم تنجبْ أن تتكنّى باسم ابنٍ من أبناء أسرتها، أو أيّ اسم تختاره بعد إذن واستشارة زوجها.

---

(١) نفسه، ص ٥٠.

(٢) الاستيعاب، حـ ٤، ص ١٨٨٢ : ١٨٨٣.

(٣) انظر: الإصابة في تمييز الصحابة، حـ ٨، ص ٢٣٢.

علمُ أمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها:

المتأمّل لسيرة أمّ المومنين عائشة- رضي الله عنها- يجدُ أنها بحرٌ زاخر بالعلم، وكيف لا وهي زوجة رسول الله ﷺ، التي أعدّها الله وهيّأها من أجل أن تبلّغ عن رسول الله ﷺ، وانظرْ معي بكلّ فخرٍ إلى ما جاء من نصوص في علمِها رضي الله عنها:

١- قَالَ الزُّهْرِيُّ: لَوْ جُمِعَ عِلْمُ عَائِشَةَ إِلَى عِلْمِ جَمِيعِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صلّى اللهُ عَلَيْهِ وسلّم وَعِلْمِ جَمِيعِ النِّسَاءِ لَكَانَ عِلْمُ عَائِشَةَ أَفْضَلَ[١].

٢- ذكر ابنُ عبد البر ما نصّه: «وَقَالَ أَبُو الضحى، عَنْ مسروق: رأيت مشيخة من أصحاب رَسُول اللهَّ صلّى اللهُّ عَلَيْهِ وسلّم الأكابر يسألونها عَنِ الفرائض. وَقَالَ عطاء بْن أبي رباح: كانت عائشة أفقه الناس، وأعلم الناس، وأحسن الناس رأيًا فِي العامة وَقَالَ هشام بْن عروة، عَنْ أبيه: مَا رأيتُ أحدًا أعلم بفقه ولا بطب ولا بشعر من عائشة»[٢].

٣- يقول ابنُ سعد: «أَخْبَرَنَا أَبُو مُعَاوِيَةَ الضَّرِيرُ. حَدَّثَنَا الأَعْمَشِ عَنْ مُسْلِمٍ عَنْ مَسْرُوقٍ أَنَّهُ قِيلَ لَهُ: هَلْ كَانَتْ عَائِشَةُ تُحْسِنُ الْفَرَائِضَ؟ فَقَالَ: إِي وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ رَأَيْتُ مَشْيَخَةَ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ- صلّى

(١) ابن عبد البر: الاستيعاب، حـ ٤، ١٨٨٣.

(٢) نفسه.

اللهُ عَلَيْهِ وسلّم- الأَكَابِرَ يَسْأَلُونَهَا عَنِ الْفَرَائِضِ»(١).

٤- أمّا الذّهبي، رحمه الله، فقد أورد جُملة من الآثار في علم السّيدة عائشة، نقطف منها بعض الزّهور فيما يلي، يقول رحمه الله: «وقال التّرمذي: حدّثنا حميد بن مسعدة حدثنا زياد بن الربيع: حدّثنا خالد بن سلمة المخزومي، عن أبي بردة، عن أبي موسى قال: ما أشكل علينا- أصحاب محمّد- ﷺ- حديثٌ قطّ، فسألنا عائشة، إلّا وجدنا عندها منه علمًا. هذا حديثٌ حسنٌ غريب.

.. كان عروةُ يقول لعائشة: يا أمّاه، لا أعجبُ من فقهك؛ أقول: زوجة نبي الله، وابنة أبي بكر. ولا أعجب مِن علمك بالشّعر وأيّام الناس؛ أقول: ابنة أبي بكر، وكان أعلمَ الناس. ولكن أعجبُ مِن علمك بالطبّ كيف هو؟ ومن أين هو؟ أو ما هو!.

قال: فضربتُ على منكبه، وقالت: أيّ عرية، إنّ رسول الله- ﷺ- كان يسقم عند آخر عمره- أو في آخر عمره- وكانت تقدمُ عليه وفودُ العرب من كلّ وجه، فتنعت له الأنعات، وكنت أعالجُها له، فمن ثمّ.

.. عن هشام، عن أبيه، قال: لقد صحبت عائشة، فما رأيت أحدًا قطّ كان أعلمَ بآية أنزلت، ولا بفريضة، ولا بسنة، ولا بشعر، ولا أروى له، ولا بيوم من أيّام العرب، ولا بنسب، ولا بكذا، ولا بكذا،

(١) الطبقات، حـ٨، ص ٥٢: ٥٣.

ولا بقضاء، ولا طبّ؛ منها. فقلت لها: يا خالة، الطبّ، مِن أين علمته؟ فقالت: كنت أمرضُ فينعتُ لي الشيء، ويمرضُ المريض فينعتُ له، وأسمعُ الناس ينعتُ بعضُهم لبعض، فأحفظه[١]».

ولقد أفسحتُ المجالَ لقلم العلماء الأجلّاء من الصّحابة والتابعين، والسّادة المحقّقين لنرى- أيّها القارئ الكريم- مدى اتّساع علم السّيدة عائشة، وكيف حلّت عليها بركةُ انتسابها لرسول الله- ﷺ-، وكيف استفادت الأمّة من علمها.

مَن روى عنها العلمَ وحدّث:

ذكر الإمامُ الذّهبي- رحمه الله- ما يقرب من مائتين ممّن حدّثوا عن السيدة عائشة رضي الله عنها[٢]، وهؤلاء منهم صحابة، مثل: عمر، وابنه عبد اللهَّ، وأبو هريرة، وأبو موسى، وابن عباس، ومنهم مِن كبار التّابعين مثل: سعيد بن المسيب، وعمرو بن ميمون، وعلقمة بن قيس، ومسروق، وآخرون كثيرون[٣]. ولولا الإطالة لقيّدتهم في كتابي هذا، بيد أنّ كتاب الإمام الذّهبي متواجد، ويمكن لَمن أحبّ الاطّلاع على أسماء هؤلاء الأعْلام أن يعود إليه، لكنّ اللافت للنّظر أنّ الذّهبي بعد

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء، حـ ٢، ص ١٧٩ : ١٨٣.

(٢) نفسه، ص ١٣٦ :١٣٩.

(٣) انظر ابن حجر: الإصابة، حـ ٨، ٢٣٥.

أنّ عدّد أسماء هؤلاء الأعلام، قال: «وطائفة سوى هؤلاء»، ممّا يدلّ على عظيم نفع السيدة عائشة للمسلمين بعد رسول الله ﷺ، ويؤكّد صحّة ما ذهبنا إليه من المَقاصد الشرعيّة من وراء زواج النّبي- عليه السلام- بالسيدة عائشة.

ذكرُ مسندها عن رسول الله ﷺ:

مسندُ عائشة يبلغ ألفين ومائتين وعشرة أحاديث، اتّفق لها البخاري ومسلم على مائة وأربعة وسبعين حديثًا، وانفرد البخاري بأربعةٍ وخمسين، وانفرد مسلم بتسعة وستين(١).

فانظرْ أخي الحبيب بكلّ فخرٍ إلى عظيم نفعِ الله- عزّ وجلّ- بالسيدة عائشة رضي الله عنها.

زهدُها رضي الله عنها:

عاشت أمّ المؤمنين بعد رسول الله- ﷺ- راضية، زاهده في الدنيا، متقللة منها «إِذَا سُئِلَتْ: كَيْفَ أَصْبَحْتِ؟ قَالَتْ: صَالِحَةً وَالْحَمْدُ للهِ»(٢). وانظرْ معي لذلك النصّ الذي ذكره ابنُ سعد في طبقاته لترى مدى زهْدها وتقلّلها من الدّنيا، يقول رحمه الله: «أَخْبَرَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ إبراهيم

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء، جـ ٢، ص ١٣٩.

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ ٨، ص ٥٩.

الأسدي عن شعيب بن الحبحاب عن أَبِي سَعِيدٍ أَنَّ دَاخِلًا دَخَلَ عَلَى عَائِشَةَ وَهِيَ تَخِيطُ نُقْبَةً لَهَا فَقَالَ: يَا أُمّ الْمُؤْمِنِينَ أَلَيْسَ قَدْ أَكْثَرَ اللهُ الْخَيْرَ؟ قَالَتْ: دَعْنَا مِنْكَ، لا جَدِيدَ لِمَنْ لا خَلَقَ لَهُ»[1].

عبادتُها رضي الله عنها:

لو تحدّثت عن عبادةِ السيدة عائشة، فتذكر أولًا أنّها زوجة عبد الله ورسوله محمد- ﷺ- خير العابدين، وإمام المتّقين، ثمّ قلْ بعد ذلك فيها ما أحببت، وتحدّث عن عبادتها وأحْسِن القول، لكنْ دعْنا- مع هذا- نسترشد بما جاء من أثر في هذا الباب، يقول ابن سعد: «أَخْبَرَنَا قَبِيصَةُ بْنُ عُقْبَةَ، قَالَ سُفْيَانُ: أَخْبَرَنَا عَنْ عَبْدِ الرحمن بن القاسم بن الْقَاسِمِ أَنَّ عَائِشَةَ كَانَتْ تَسْرِدُ الصَّوْمَ»[2]، وفي رواية «أنّ عائشة كانت تصوم الدهر»[3]. فرضي الله عن أمّ المؤمنين عائشة الصّوّامة القوّامة.

ملامحُ من حياتها:

كانت عائشة (رضي الله عنها) محبّبة لدى جمهور المسلمين، فهي زوجة رسول الله، وحبيبتُه، وبنت أبي بكر خليفة رسول الله ﷺ، لذلك كانت قريبةً من الناس، يأخذون منها العلم، ويسترشدون برأيها، قال

(١) نفسه، ص ٥٨.

(٢) نفسه، ص ٥٩.

(٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء، حـ ٢، ص ١٨٧.

عطاءُ بن أبي رباح: «كانت عائشة أفقه الناس، وأعلمَ الناس، وأحسنَ النّاس رأيًا في العامّة»[1].

ولقد كانت- رضي الله عنها- حريصةً على صلاح المجتمع وعفّته، فتراها توجّه بناتِ المسلمين للخير، وتحضّهم على الاحتشام، قال ابنُ سعد رحمه الله: «أَخْبَرَنَا مَعْنُ بْنُ عِيسَى، حَدَّثَنَا مَالِكٌ عَنْ عَلْقَمَةَ بْنِ أَبِي عَلْقَمَةَ عَنْ أُمِّهِ قَالَتْ: دَخَلَتْ حَفْصَةُ بِنْتُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَلَى عَائِشَةَ أمّ الْمُؤْمِنِينَ وَعَلَى حَفْصَةَ خِمَارٌ رَقِيقٌ فَشَقَّتْهُ عَائِشَةُ عَلَيْهَا وَكَسَتْهَا خِمَارًا كَثِيفًا»[2]، وفي رواية أخرى يقول: «أَخْبَرَنَا خَالِدُ بْنُ مَخْلَدٍ، حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ بِلالٍ عَنْ عَلْقَمَةَ بْنِ أَبِي عَلْقَمَةَ عَنْ أُمِّهِ قَالَتْ: رَأَيْتُ حَفْصَةُ بِنْتُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ دَخَلَتْ عَلَى عَائِشَةَ وَعَلَيْهَا خِمَارٌ رَقِيقٌ يَشِفُّ عَنْ جَيْبِهَا فَشَقَّتْهُ عَائِشَةُ عَلَيْهَا وَقَالَتْ: أمّا تَعْلَمِينَ مَا أَنْزَلَ اللهُ فِي سُورَةِ النُّورِ؟ ثمّ دَعَتْ بخمار فكستها»[3].

والسّؤال المحيّر، إذا كانت عائشة- رضي الله عنها- قدْ ماتت، أفلا يوجد في نساء المُسلمين مَن يُكمل رسالتها، ويحضّ على الاحتشام؟! إنَّ المرءَ ليستشعر الحرج وهو يجدُ بناتٍ في سنّ الزّهور تركنَ الاحتشام، وسرْنَ في الشّوارع دون ضابط أو رقيب، المساحيق

---

(١) انظر: ابن حجر: الإصابة، حـ ٨، ص ٢٣٣.

(٢) الطبقات الكبرى، حـ ٨، ص ٥٦.

(٣) نفسه، ص ٥٧.

تملأ الوجوه، والملابس الضيّقة تشتكي إلى ربّها، والحجاب الشرعيّ تحوّل لمجرّد خرقة ملوّنة تستر بها الفتاة جزءًا من شعْرها، فأين دورُ الأمّ، وأينَ دور المجتمع، فيا ليتَ نساء الأمّة يقتدين بعائشة في حرْصِها على سلامة المجتمع ونشْرِ الاحتشام به.

كرمُها السّخي:

أكثرُ ما لفت نظري في سيرة أمّ المؤمنين عائشة- رضي الله عنها- على عظمتها ونُبْلها- ما امتازتْ به من كرمٍ فاق الوصف، والرّوايات والنّصوص التاريخية كثيرة في هذا الباب، وهي تدعو- بلا شكّ- لمزيدٍ من الإعجاب بزوجة رسولِ الله أمّنا عائشة، وتوضّح- بجلاء- كيف تأثّرت في هذا الخلق الكريم برسول الله ﷺ، الذي كان أجودَ بالخير من الريح المُرْسلة كما جاء في الحديث الصحيح.

ومِن مظاهر كرمِها- رضي الله عنها- ما أخرجه ابنُ سعد من طريق أمّ ذَرَّةَ قَالَتْ: «بعَثَ ابْنُ الزُّبَيْرِ إِلَى عَائِشَةَ بِمَالٍ فِي غِرَارَتَيْنِ يَكُونُ مِائَةَ أَلْفٍ فَدَعَتْ بِطَبَقٍ، وَهِيَ يَوْمَئِذٍ صَائِمَةٌ، فَجَعَلَتْ تَقْسِمُ فِي النَّاسِ. قال فلما أمست قالت: يا جارية هاتي فِطْرِي. فَقَالَتْ أمّ ذَرَّةَ: يَا أمّ الْمُؤْمِنِينَ أمّا اسْتَطَعْتِ فِيمَا أَنْفَقْتِ أَنْ تَشْتَرِيَ بِدِرْهَمٍ لَحْمًا تُفْطِرِينَ عَلَيْهِ؟ فَقَالَتْ: لا تُعَنِّفِينِي، لَوْ كُنْتِ أَذْكَرْتِنِي لَفَعَلْتُ»[١].

(١) نفسه، ص ٥٣.

وكذلك ما أورده الذّهبي من رواية عروة بن الزبير: «أنّ معاوية بعث مرّةً إلى عائشة بمائة ألف درهم، فوالله ما أمستْ حتّى فرّقتها، فقالت لها مولاتها: لو اشتريتِ لنا منها بدرهم لحمًا؟ فقالت: ألا قلت لي». ومنها ما أورده- أيضًا- من رواية عروة، عن عائشة: «أنّها تصدّقت بسبعين ألفًا؛ وإنّها لترقّع جانبَ درعها رضي الله عنها»[1].

وكانت هذه الأموالُ تأتي عائشة- رضي الله عنها- كعطاء، فقد فتح الله على المسلمين في عهد عمر بن الخطاب ففرضَ عمر لأمّهات المؤمنين عشرة آلاف، وزاد عائشة ألفين، وقال: «إنّها حبيبة رسول الله ﷺ»[2]، ويبدو من النصوص أنّ الخلفاء من بعده التزموا بهذه السّنة التي سنّها عُمر، وساروا على طريقه، وقد رأينا كيف كانت تتصرّف حبيبة رسول الله في هذه الأموال بكلّ كرمٍ وزهدٍ في الدنيا، وحرصٍ على الباقيات الصّاحات؛ فرضيَ الله عن السّيدة عائشة، صاحبة الكرم والسّخاء.

وصيّتُها عند موتها، وبعضُ أقوالها:

يقول ابنُ سعد- رحمه الله-: «أَخْبَرَنَا يَعْلَى بْنُ عُبَيْدٍ، حَدَّثَنَا هَارُونُ الْبَرْبَرِيُّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ قَالَ: أَوْصَتْ عَائِشَةُ أَنْ لا تتبعوا

---

(١) سير أعلام النبلاء، حـ ٢، ص ١٨٦ : ١٨٧.

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى، حـ ٨، ص ٥٣.

سريري بنار ولا تجعلوا تحتي قطيفة حَمْرَاءَ»[١] وهذا- أيضًا- مظهرٌ من مظاهر تقلّلها من الدّنيا، ورغبتها أنْ تلقَى ربّها كأيّة مسلمة دون شيء من شهرةٍ أو تخصيص.

وانظرْ إلى كرمها حتّى عند وفاتها، فقد أوْصت بمولاها ذكوان أن يُحرّرَ إثر دفنها، فقد أخرج ابنُ سعد من حديثها- رضي الله عنها- أنّها قالت: «إِذَا كُفِّنْتُ وَحُنِّطْتُ ثمّ دلّاني ذكوان في حفرتي وسوّاها عليّ فَهُوَ حُرٌّ»[٢].

أمّا عمّا ورد عنها من أقوالٍ عند وفاتها، فمنها أنّ ابن عباس أثنى عليها عند عيادتها في مرضِها الذي ماتت فيه، فقالت له: «والله لوددتُ أنّي كنت نسيًا منسيًّا»[٣]. ومنها قولها حين حضرتها الوفاة: «يَا لَيْتَنِي لَمْ أُخْلَقْ، يَا لَيْتَنِي كُنْتُ شَجَرَةً أُسَبِّحُ وَأَقْضِي مَا عَلَيَّ»[٤]. ولقد كانت أمّنا عائشة فصيحةً بليغة؛ فجاءت كلماتُها بسيطة، وجيزة، معبّرة.

وفاتُها رضي الله عنها:

«قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ عُمَرَ: تُوُفِّيَتْ عَائِشَةُ لَيْلَةَ الثُّلاثَاءِ لِسَبْعَ عَشْرَةَ مَضَتْ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ سَنَةَ ثَمَانٍ وَخَمْسِينَ وَدُفِنَتْ مِنْ لَيْلَتِهَا بَعْدَ الْوِتْرِ وَهِيَ

---

(١) نفسه، ص ٦١.

(٢) نفسه.

(٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء، حـ ٢، ص ١٨٠.

(٤) ابن سعد: الطبقات، حـ ٨، ص ٥٩.

يَوْمَئِذٍ بِنْتُ سِتٍّ وَسِتِّينَ سَنَةً»[١]، وقد دفنت -رضَي الله عنْها- في البقيع مع زوجات رسول الله ﷺ، وصلّى عليها أبو هريرة رضي الله عنه[٢].

وقد ظهر في مشهدِ وفاة السيدة عائشة ودفنِها مدى حبّ المسلمين لها، وحزنهم على فراقها، فانظرْ كيف اجتمعوا مِن كلّ مكانٍ لحضور دفنها، والدّعاء لها، وانظر كيف حملوا المشاعل للإنارة ليلًا، وانظرْ إلى الحشدِ الكبير من النساء الذين حضروا هذا المشهد المهيب، كأنّه يوم عيدٍ تزفّ فيه عائشة من جديدٍ إلى رسول الله ﷺ، وقد أسند ابنُ سعد- رحمه الله- العديدَ من الرّوايات الأصيلة التي توضّح هذه المعاني، والتي أودّ أن أذكرها كما رواها صاحبُه، يقول رحمه الله: «أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عُمَرَ، حَدَّثَنِي ابْنُ أَبِي سَبْرَةَ عَنْ مُوسَى بْنِ مَيْسَرَةَ عَنْ سَالِمٍ سَبَلانَ، قَالَ: مَاتَتْ عَائِشَةُ لَيْلَةَ سَبْعَ عَشْرَةَ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ بَعْدَ الْوِتْرِ فَأَمَرَتْ أَنَّ تُدْفَنَ مِنْ لَيْلَتِهَا فَاجْتَمَعَ النَّاسُ وَحَضَرُوا فَلَمْ نَرَ لَيْلَةً أَكْثَرَ نَاسًا مِنْهَا نَزَلَ أهل الْعَوَالِي فَدُفِنَتْ بِالْبَقِيعِ.

أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عُمَرَ، حَدَّثَنِي ابْنُ أَبِي سَبْرَةَ عَنْ عُثْمَانَ بْنِ أبي عَتِيقٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: رَأَيْتُ لَيْلَةَ مَاتَتْ عَائِشَةُ حُمِلَ مَعَهَا جَرِيدٌ فِي الْخِرَقِ فِيهِ النَّارُ لَيْلا وَرَأَيْتُ النِّسَاءَ بِالْبَقِيعِ كَأَنَّهُ عِيدٌ»[٣].

---

(١) نفسه، ص ٦٢.

(٢) ابن عبد البر: الاستيعاب، ح ٤، ص ١٨٨٥.

(٣) الطبقات الكبرى، حـ ٨، ص ٦١.

هل هناك مسكوتٌ عنه في تاريخ السّيدة عائشة؟!

والحمدُ لله ربّ العالمين، فإنّ تاريخ السّيدة عائشة تاريخٌ مشرّف، يفخر به كلّ مسلم ومسلمة، لكنّي لم أحبّ أن أتحدّث عن حادثة الإفك؛ لأنها إفك، والله- عزّ وجلّ- قد أنزل براءة عائشة- رضي الله عنها- من فوق سبع سموات في قرآنٍ يُتلى إلى يوم الدّين. أمّا عن مسيرها- رضي الله عنها- إلى البصْرة، وحضورها يوم الجمل، فإنّها- كما يقول الذّهبي- «ما فعلت ذلك إلّا متأوّلة قاصدةً للخير، كما اجتهدَ طلحة بن عبيد الله، والزّبير بن العوام، وجماعة من الكبار رضي الله عن الجميع»[1]، فلقد قُتِلَ سيدُنا عثمان بن عفان- رضي الله عنه- مظلومًا، وسيطر قتلتُه على الأمر في المدينة؛ فلم يستطعْ سيدنا على بن أبي طالب- رضي الله عنه- بعد أن وليَ الخلافة أن يقتصّ من قتلته في الحين، فأراد أنْ يهدأ الناس، ويسيطر هو على الأمر ثمّ يقتصّ منهم، لكنْ هناك فريقٌ من الصحابة [منهم طلحة والزبير وعائشة] عجّل بالأمر، وأراد القصاصَ الفوري، فتطوّرت الأمور، وسيقت الأمّة إلى يوم الجَمَل، وحدث ما حدث، ولقد ندمت عائشةُ ندامةً كليّة على مسيرها للبصرة- كما يقول الذّهبي- وحضورها يوم الجمل، لدرجة أنها «كانتْ تحدّث نفسها أن تدفنَ في بيتها [أي مع رسول الله]،

---

(١) سير أعلام النبلاء، حـ ٢، ص ١٩٣.

فقالت: إني أحدثت بعد رسول الله- ﷺ- حدثًا، ادْفنوني مع أزْواجه، فدُفنتْ بالبَقيع رضي الله عنها»[1]، وكانت- رضي الله عنها-: «إذا قرأت: «وقرنَ في بيوتكنّ»؛ بكتْ حتّى تبلّ خمارها»[2].

(١) يقول ابن سعد: أَخْبَرَنَا الْفَضْلُ بْنُ دُكَيْنٍ، حَدَّثَنَا حَسَنُ بْنُ صَالِحٍ عَنْ إِسْمَاعِيلَ عَنْ قَيْسٍ قَالَ:قَالَتْ عَائِشَةُ عِنْدَ وَفَاتِهَا: إِنِّي قَدْ أَحْدَثْتُ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ، صلّى الله عليه وآله وسلّم، فَادْفِنُونِي مَعَ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ، صلّى اللهُ عليه وآله وسلّم. (انظر: الطبقات الكبرى، حـ ٨، ص ٥٩) والنصّ في المتن للذهبي: سير أعلام النبلاء، حـ ٢، ص ١٩٣.

(٢) نفسه، ص ١٧٧.

٤- الصّؤوم القؤوم
حفصة بنت عُمَر بْن الْخَطّابِ
رضي الله عنها

مفتاحُ شخصيّتها:

لسْنا بحاجةٍ إلى كثيرِ عَناءٍ للتعرّف على مفتاح شخصية السيّدة حفصة- رضي الله عنها- فهى كأبيها عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- شديدةٌ في طبعها، تسكنها حدّة بحكم نشأتها الأولى في بيت ابن الخطاب، وكان من المُمكن أن تختتمَ حياتها هكذا كما بدأتها لوْلا الإسلام، ثمّ ارتباطها برسول الله ﷺ، فهذه الشدّة خفّفت حتّى صارت شدّة في الحقّ والحرصِ عليه، وتلك الحدّة أصبحت حدّةً في الحفاظ على الدّين وسلامته، لذلك استحقّت- عن جدارة- لقبَ «حارسة القرآن»، إذ أوكلَ إليها المسلمون حفظَ الصّحف الأولى التي جمعَ فيها القرآن؛ لحزمها وعقلها ومكانتها من الفاروق، وقد اتّصفت- رضي الله عنها- بحُكم شخصيّتها الحازمة- بالحرص على العبادة، وإقامة الدّين؛ فهي الصّؤوم القؤوم. فتعالوا نقتربُ منها عن كثبٍ لنتعرّف على هذه القمّة الشامخة.

بطاقةُ حياة:

- السّتر الرّفيع، أمّ المؤمنين، حفصة، زوجة رسول الله ﷺ.

- حارسةُ القرآن الكريم.

- هي حَفْصَةُ بِنْتُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ بْنِ نُفَيْلَ بْنَ عَبْدِ الْعُزَّى بْنِ رِيَاحِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ قُرْطِ بْنِ رَزَّاحِ بْنِ عدي بن كعب بن لؤي.

- يجتمع نسبُها مع النبيّ- ﷺ- في كعب بن لؤي.

- وأمّها زينب بنت مظعون بن حبيب بن وهب بن حذافة بن جمح، أخت الصحابي الجليل عثمان بن مظعون، أوّل مَن توفّي بالمدينة من المهاجرين، وأوّل مَن دُفن بالبقيع.

- وُلِدَتْ حَفْصَةُ- رضي الله عنها- وَقُرَيْشٌ تَبْنِي الْبَيْتَ قَبْلَ مَبْعَثِ النَّبِيِّ- صلّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلّم- بِخَمْسِ سِنِينَ.

- أخوها لأبيها وأمّها: عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

حياتُها قبل الزّواج من رسول الله:

تزوّجت السيّدة حفصة- رضي الله عنها- في شبابها الباكر من الصّحابي الجليل خنيس بن حذافة بن قيس بن عدي بن سعد بن سهم

القرشي السّهمي[1]، وهو من السّابقين إلى الإسلام، ومن أصحاب الهجرتيْن، فقد هاجر - أولًا - إلى الحبشة [الهجرة الثانية]، ثمّ عاد لمكة، ثمّ هاجر ثانيةً للمدينة مع مَنْ هاجرَ بصحبة زوجته السّيدة حفصة بنت عمر بن الخطاب، وهذا الصّحابي الجليل من أصحاب البلاء الحَسن في الإسلام، فقد شهد بدرًا مع رسول الله ﷺ[2]، وأصابته جراحُه يوم أحد فمات منها بالمدينة رضي الله عنه[3]، «وَصَلىَّ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهَّ وَدَفَنَهُ بِالْبَقِيعِ»[4]. وفى قصة زواج السيدة حفصة من خنيس بن حذافة- رضي الله عنه- عدّة ملاحظاتٍ وعِبَر، نوجزها فيما يلي:

أولًا: يبدو أنّ السّيدة حفصة لم تتزوّج من خنيس إلّا بعد عودته من الحبشة، وواضحٌ أنها لم ترزقْ منه بأبناء، فخنيس- رضي الله عنه- ليس له عقب كما أورد في ترجمته ابنُ سعد رحمه الله[5]، وهذا يشي بأنّ السيدة حفصة وزوجَها خنيس بن حذافة تفرّغَا للدّعوة لدين الله، وانشغلا بأمر الإسلام وتبليغه.

ثانيًا: نلاحظ أنّ الله- عزّ وجلّ- أكرمَ حفصة بزواجها من صحابيّ

---

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى، حـ ٨، ص ٦٥.

(٢) نفسه، حـ ٣، ص ٣٠٠؛ ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة، حـ ٢، ص ٢٩٠.

(٣) نفسه، ص ٢٩١.

(٤) ابن سعد: الطبقات، حـ ٣، ص ٣٠٠.

(٥) نفسه.

من السابقين للإسلام، ومن أهل البلاء الحضسَن فيه، ثمّ لمّا مات قدّر الله لها الزّواجَ برسوله محمد ﷺ، وهذا يشهد بصلاح السيدة حفصة.

ثالثًا: كانت حفصة من المهاجرات لله ولرسوله، وتحمّلت المشاقّ في سبيل الإسلام، وتبليغه؛ فكانت هديّتها أنْ صارت أمًّا للمؤمنين حينما تزوّجها رسول الله، وصدقَ ربّي إذ يقول «وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ»[1].

زواجُها من رسول الله:

توفّي زوجُ السيدة حفصة- رضي الله عنها- وهي في ريعان الشباب، ولم ترزقْ بأبناء منه، وبحالتها هذه كان لها أن تحزنَ كما تحزن مثلها ممّن تمرّ بتلك الظروف الصعبة، وقد انشغل الفاروق عمر بن الخطاب بحالةِ ابنته تلك، وأخذَ يعاني ما تعانيه من وجد، وأخذ يبحث لها عن مخْرج، فبمجرّد انتهاء عدّتها أخذ يبحث لها عن زوجٍ مناسب، يكون فيه العوض عن خنيس بن حذافة، ويسلّي قلبَ تلكَ المهاجرة الشّابة، ويجعلها تواصلُ المسير. وهنا تظهر شخصية عمر الإنسان الواعي الراقي الحازم؛ فهو لا يتردّد في أنْ يعرض ابنته زوجة كريمة على أبي بكر الصّديق ، فلمّا لم يجبْه بشيء عرضها على عثمان الذي فقدَ للتوّ ابنةَ رسول الله- ﷺ- رقية، لكنّ عثمان فاجأه بالرّفض الصريح؛

---

(١) سورة الطلاق، الآيات ٢، ٣.

فذهب عمر يشكو لرسول الله.. ولنترك الآن النّصوصَ التّاريخية تتحدّث، ونرى ماذا كان من رسول الله ﷺ، يقول ابنُ عبد البر رحمَه الله: «فلمّا تأيّمتْ [أي حفصة] ذكرها عمرُ لأبي بكر وعرضها عَلَيْهِ فلم يرجع [إليه] أَبُو بَكْر كلمة، فغضبَ من ذلك عمر، ثمّ عرضها عَلَى عُثْمَان حين ماتت رقية بنت رَسُول اللهَّ، صلّى اللهُّ عَلَيْهِ وسلّم، فَقَالَ عُثْمَان: مَا أريد أن أتزوّج اليوم. فانطلقَ عمر إِلَى رَسُول اللهَّ- صلّى اللهُّ عَلَيْهِ وسلّم- فشكا إليه عُثْمَان وأخبره بعرضه حفصة عَلَيْهِ، فَقَالَ رَسُول اللهَّ- صلّى اللهُّ عَلَيْهِ وسلّم-: يتزوّج حفصة مَن هُوَ خير من عُثْمَان، ويَتزوّج عُثْمَان مَن هي خيرٌ من حفصة. ثمّ خطبها إِلَى عمر فتزوّجها رَسُول اللهَّ صلّى اللهُّ عَلَيْهِ وسلّم»[1]. وهذا الذي تقدّم يقطُرُ بملاحظات كالشّهدَ أو أحلى:

أوّلها: مدى وجْدِ عُمر- رضي الله عنه- واهتمامِه بأمر ابنته حفصة، فيا ليت الآباء يتعلّمون من الفاروق، فكمْ من أبٍ غافلٍ عن أمر أسرته وبنيه!، وكم مِن مقصّر في حقّ أبنائه، لا يهتمّ بهم، ولا بما يشغلهم أو يحزنهم!!

ثانيها: قدّمنا في ترجمةِ السّيدة سوْدة أنَّ أفضلَ شفاعة أن تشفع بين اثنين في نكاح، وقلنا إنّ هذا بابٌ من أبواب الخير؛ لذلك نجدُ الفاروق عمر بن الخطاب يسابقُ غيره في هذا الباب ولا يتحرّج وهو يخطو نحو

---

(١) الاستيعاب، حـ ٤، ص ١٨١١.

الخيْر، ولمّا كانت نيّته صافية أكرمَه الله ليس بمَن قصده؛ بل بأفضلَ ممّن قصده فتزوّج رسولُ الله ﷺ بابنته حفصة.

ثالثها: تقول النّصوصُ أنّ أبا بكر بعد أنْ خطب رسولُ الله- ﷺ- حفصة أوضحَ لعمر بن الخطاب سببَ سكوته، فقال لعمر فيما أسند ابنُ سعد من طريق عبد الله بن عمر: «لَعَلَّكَ وَجَدْتَ عَلَيَّ حِينَ عَرَضْتَ عَلَيَّ حَفْصَةَ فَلَمْ أَرْجِعْ إِلَيْكَ شَيْئًا. قَالَ عُمَرُ: فَقُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّهُ لَمْ يَمْنَعْنِي أَنْ أَرْجِعَ إِلَيْكَ فِيمَا عَرَضْتَ إِلّا أَنِّي قَدْ كُنْتُ عَلِمْتَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهَ- صلّى اللهُ عَلَيْهِ وسلّم- قَدْ ذَكَرَهَا فَلَمْ أَكُنْ لأُفْشِي سِرَّ رَسُولِ اللَّهَ. وَلَوْ تَرَكَهَا رَسُولُ اللَّهَ قَبِلْتُهَا»[1]. فانظرْ معي إلى أدب أصحاب رسول الله ﷺ، وانظرْ معي بكلّ فخرٍ إلى هذا الجبل الشّامخ، أبي بكر، فهو قد علمَ برغبة رسول الله في الزّواج من حفصة؛ فسكتَ ولم يُجب عمر إلى ما أراد، ثمّ هو يحترمُ سرّ رسول الله ﷺ، فلا يخبر عمر بسبب سكوته إلّا بعد أن أخرجَ رسول الله نيّته من صدره إلى العلن، وخطب حفصة بالفعل، فرضيَ الله عن أصحاب النّبي ﷺ.

رابعها: يظهرُ من كلام أبي بكر أنّ النّبي- ﷺ- كان ينوي بعد انقضاء عدّة حفصة أن يخطبَها من أبيها، وأنّه- ﷺ- قد أعدّ العدّة لذلك، وهنا يظهر عظيمُ كرم رسول الله ﷺ، واهتمامه بأمر أصحابه،

---

(١) الطبقات، حـ ٨، ص ٦٦.

وحرصه على إدخال السّرور عليهم، فحفصة لم تكنْ في جَمال عائشة، ولم تكنْ بكرًا كعائشة التي تزوّجها بالفعل، ومع ذلك فالنبيّ- ﷺ- يجبر خاطر عمر وابنته المهاجرة الشّابة التي مات زوجها، ويتقدّم لخطبة حفصة إكرامًا لعمر، وتخفيفًا عنه، ورفعًا لقدر هذه المسلمة المُهاجرة أرملة السابق إلى الإسلام خنيس بن حذافة رضي الله عنه، فاللّهم صلّ وسلّم وزدْ وبارك على رسول الله معلّم الدنيا معنى الرّحمة في أبهى معانيها.

خامسها: قد علمنا عذرَ أبي بكر في عدمِ إجابة عمر فيما أراد، فما عذرُ عثمان بن عفان الذي رفض الزّواج من ابنة عمر، وقال: «مَا أريد أن أتزوّج اليوم»؟!

ليس من عذرٍ لعثمان رضي الله عنه، إلّا أنّه لمّا ماتت رقيّة بنت رسول الله عنده، حزن حزنًا شديدًا لانقطاع سببِ اتّصاله برسول الله ﷺ، ففكّر في الزّواج من أمّ كلثوم بنت رسول الله ليستمرّ هذا الاتّصال المبارك، ومِن ثمّ رفض الزّواج من حفصة بنت عمر؛ لأنه كان «يَوْمَئِذٍ يُرِيدُ أمّ كلثوم بنت النبي- ﷺ-»[١].

سادسها: أمّا عن قولِ النّبي- ﷺ- لعمر حينما ذهب يشكو عثمان «قَدْ زَوَّجَ اللهُ عُثْمَانَ خَيْرًا مِنَ ابْنَتِكَ وَزَوَّجَ ابْنَتَكَ خَيْرًا مِنْ عُثْمَانَ»،

---

(١) نفسه.

فتفسيره أنّ النّبي- عليه السلام- سوف يتزوّج من حفصة، وأنّه- ﷺ- سوف يزوّج أمّ كلثوم من عثمان بن عفان وهو ما قد كان[1]، فسعدت حفصة برسولِ الله، وسعدَ عثمان بأمّ كلثوم بنت رسول الله ﷺ.

سابعها: ذكرَ ابنُ سعد روايةً في غاية الرّقة توضّح سبب عرض الفاروق عمر بن الخطاب ابنته حفصة على عثمان بن عفان، يقول رحمه الله: «أَخْبَرَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ حَرْبٍ. حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ عَنْ عَلِيِّ بْنِ زَيْدٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ قَالَ: أَيِمَتْ حَفْصَةُ مِنْ زَوْجِهَا وَأَيِمَ عُثْمَانُ مِنْ رُقَيَّةَ. قَالَ: فَمَرَّ عُمَرُ بِعُثْمَانَ وَهُوَ كَئِيبٌ حَزِينٌ فَقَالَ: هَلْ لَكَ فِي حَفْصَةَ فَقَدْ فَرَطَتْ عِدَّتُهَا مِنْ فُلانٍ؟ فَلَمْ يُحِرِ [أي يردّ] إِلَيْهِ شَيْئًا. قَالَ: فَذَهَبَ عُمَرُ إِلَى النَّبِيِّ- صلّى اللهُ عَلَيْهِ وسلّم-[فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ فَقَالَ: خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ. زَوِّجْنِي حَفْصَةَ وَأُزَوِّجُهُ أمّ كُلْثُوم أُخْتَهَا]. قَالَ: فَتَزَوَّجَ رَسُولُ اللهَّ حَفْصَةَ وَزَوَّجَ عُثْمَانَ أمّ كُلْثُومٍ»[2]. فكأن عمر- رضي الله عنه- أراد أنَ يخفف عن عثمان- رضي الله عنه- ما عاناه من حزن إثر وفاة بنت رسول الله ﷺ عنده، فعرض عليه الزواج من ابنته حفصة، وسارت الأمور على نحو ما قدّمنا.

---

(١) نفسه.

(٢) نفسه.

تاريخُ زواج النّبي- عليه السلام- من حفصة:

يقول ابنُ عبد البر- رحمه الله-: «وتزوّجها رَسُول اللهَّ- صلّى اللهُّ عَلَيْهِ وسلّم- عند أكثرهم فِي سنة ثلاث من الهجرة»[1]، ويعلّق ابنُ حجر- رحمه الله- بقوله: «وهو الرّاجح، لأنّ زوجها قتل بأُحُدٍ سنة ثلاث»[2]. وقد بنى بها رسولُ الله- ﷺ- في شعبان سنة ثلاث، ولها نحْو من عشرين سنة[3].

طلاقُ النّبي ﷺ لها ثمّ مراجعتُها:

عند دراسةِ سيرةِ السيّدة حفصة نفاجأ بخبر طلاقها من رسول الله ﷺ ثمّ مراجعته لها؛ ويبدو أنّ ذلك كان لحدّةٍ في طبع السّيدة حفصة، ورثتها عن أبيها عمر، رضي الله عنه، وقد أوردت كتبُ التّراجم خبرَ طلاقها ثمّ مراجعتها بصورٍ عدّة وبأسانيدَ مختلفة، من ذلك رواية ابن عبد البر قال: «طلّقها [رسول الله] تطليقة ثمّ ارْتجعها، وذلك أنّ جبرائيل- عَلَيْهِ السلام- قَالَ: راجع حفصة، فإنّها قوّامة صوّامة، وإنّها زوجتك فِي الجنّة.

وَرَوَى مُوسَى بْنُ عَلِيِّ بْنِ رَبَاحٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ، قَالَ: طَلَّقَ رَسُولُ اللهَّ صلّى اللهُّ عَلَيْهِ وسلّم حَفْصَةَ بِنْتَ عُمَرَ، فَبَلَغَ ذَلِكَ

---

(١) الاستيعاب، حـ ٤، ص ١٨١١.

(٢) الإصابة، حـ ٨، ص ٨٦.

(٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء، حـ ٢، ص ٢٢٧؛ ٢٣٠.

عُمَرَ، فَحَثَا عَلَى رَأْسِهِ التُّرَابَ، وَقَالَ: مَا يَعْبَأُ اللهُ بعمر وابنته بعد هذا، فنزل جبريل الْغَدِ عَلَى رَسُولِ اللهَ- صلّى اللهُ عَلَيْهِ وسلّم- وَقَالَ: إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تُرَاجِعَ حَفْصَةَ بِنْتَ عُمَرَ رَحْمَةً لِعُمَرَ»[1].

وقال الذّهبي- رحمه الله-: «وروي أنّ النبي، ﷺ، طلّق حفصة تطليقة، ثمّ راجعها بأمر جبريل- عليه السّلام- له بذلك، وقال: إنّها صوّامة، قوّامة، وهي زوجتك في الجنة». وقد علّق قائلًا: «إسنادُه صالح. يرويه موسى بن علي بن رباح، عن أبيه، عن عقبة بن عامر الجهني»[2]. وقد أورد ابنُ سعد- رحمه الله- عدّة روايات بنفس المعنى، ويمكننا أن نستخرجَ ممّا سبق عدّة ملاحظات توضّح لنا صورةً مقرّبة لما حدث:

أوّلًا: كان في السيدة حفصة رغمَ صلاحها ودينها حدّة، فطلّقها رسول الله تطليقة، وهذا أمر واردٌ بين الزّوج وزوجته، خاصّة إذا كان له زوجات أُخْريات، والبيوت لا تخلو من مثل بعض الأمور الخاصّة التي تحدُث ما بين الزوج وزوجته، والتي قد تتأزّم، وتؤدّي للطّلاق، وعظمة النّبي ﷺ أنّه إنسانٌ نبيّ.

ثانيًا: نظرًا لقيمة السّيدة حفصة- رضي الله عنها- أمرَ اللهُ نبيَّه أن

---

(١) الاستيعاب، حـ ٤، ص ١٨١٢.

(٢) سير أعلام النبلاء، حـ ٢، ص ٢٢٨: ٢٢٩.

يراجعها حيث أنّها صوّامة قوّامة وهي زوجتُه في الجنّة، وهذه شهادةٌ نعتزّ بها نحن المسلمين في حقّ أمّنا حفصة إذ أنّها شهادةٌ من رب العالمين.

ثالثًا: رأينا مِن الرّوايات المختلفة مدى حزنِ الفاروق عمر بن الخطاب على طلاق النّبي - ﷺ - لحفصة، وهذا يدلّ على حبّ الفاروق الكبير لرسول الله، وحرصه على الانتساب إليه والقرب منه؛ لدرجة أنّه حثَا التّرابَ على رأسه!.

رابعًا: دلّت الرّواياتُ المتقدّمة على مدى رحمةِ رسول الله - ﷺ -، وحبّه للفاروق عمر بن الخطاب، فالرّوايات تتحدّث أنّ مِن ضمن أسباب مراجعة النّبي - ﷺ - لحفصة «رحمةً بعمر بن الخطاب»، فانظر لعظمةِ هذا الدّين الذي أكرمنا الله بالانتساب إليه.

خامسًا: أخرج ابنُ سعد من طريق قيس بن زيد رواية لطيفةً يُشتَمّ فيها رائحةُ الأصالة، جاء فيها «أَنَّ رَسُولَ اللَّهَ - صلّى اللهُ عَلَيْهِ وسلّم - طَلَّقَ حَفْصَةَ بِنْتَ عُمَرَ فَأَتَاهَا خَالاهَا عُثْمَانُ وَقُدَامَةُ ابْنَا مَظْعُونٍ فَبَكَتْ وَقَالَتْ: وَاللَّهَ مَا طَلَّقَنِي رَسُولُ اللَّهَ - صلّى اللهُ عَلَيْهِ وسلّم - عَنْ شِبَعٍ. فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهَ فَدَخَلَ عَلَيْهَا فَتَجَلْبَبَتْ [فَقَالَ رَسُولُ اللَّهَ: إِنَّ جِبْرِيلَ.. أَتَانِي فَقَالَ لِي أَرْجِعْ حَفْصَةَ فَإِنَّهَا صَوَّامَةٌ قَوَّامَةٌ وَهِيَ زَوْجَتُكَ فِي الْجَنَّةِ] [(١)].

(١) الطبقات الكبرى، حـ ٨، ص ٦٧.

فحفصة ها هنا تدافعُ عن نفسها بأنَّ طلاقَها من رسول الله ﷺ لم يكن لشيء ذي بال؛ وإنّما لما قدْ يحدث بين الرّجل وأهله من أمورٍ بسيطة قد تتأزّم وتتحوّل لطلاق، ثمّ انظرْ إلى هذا المشهد الرّائع حينما دخل رسول الله ﷺ عليها وهي تتكلّم أمام خالها، يقول الرّاوي: «فَتَجَلْبَبَتْ» أي فتحجّبت، فكأنّه لونٌ من العتاب الرّقيق لرسول الله ﷺ أنْ طلّقها، وكأنّه عتاب بمعنى الدلال، وهو سلاحٌ معتبَر من أسلحة المرأة المحبّة لزوجها الحريصة عليه، وقد قابل رسولُ الله ﷺ هذا الموقفَ الرّائع بأن راجعها، وأنبأها أنّ الله أمره بذلك لأنّها صوّامة قوّامة، وأنّها زوجته في الجنة، فكانت هذه الكلمات الحاسمات بمثابةِ بردٍ وسلام على قلب أمّ المؤمنين حفصة.

سادسًا: وعلى الرّغم ممّا تقدّم من روايات فإنّ هناك رواية تقول إنّ النّبي– ﷺ– لم يطلقها، وإنّما همّ بذلك، يقول ابنُ سعد: «أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عُمَرَ. حَدَّثَنِي مَخْرَمَةُ بْنُ بُكَيْرٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهَّ– صلّى اللهَّ عَلَيْهِ وسلّم– قد هَمَّ بِطَلاقِ حَفْصَةَ حَتَّى ذَكَرَ بَعْضَ ذَلِكَ فَنَزَلَ عَلَيْهِ جِبْرِيلُ وَقَالَ: إِنَّ حَفْصَةَ صَوَّامَةٌ قَوَّامَةٌ «وفى رواية أخرى «لا تطلق حفصة. فإنها صؤوم قؤوم وَإِنَّهَا مِنْ نِسَائِكَ فِي الْجَنَّةِ.»[1].

---

(١) نفسه.

عبادتُها رضي الله عنها:

كانت السيدةُ حفصة- رضي الله عنها- صوّامة قوّامة، أي تكثر الصومَ والقيام لله ربّ العالمين، وهذا هو الجديرُ بأمّ المؤمنين، وزوجة خاتم الأنبياء والمرسلين، والتي يبدو أنّها فرغت نفسَها للعبادة بعد وفاة رسول الله- ﷺ- حتّى روي بسندٍ صحيح عن نافع قوله: «مَا مَاتَتْ حَفْصَةُ حَتَّى مَا تُفْطِرُ»[1]، فرضَي الله عن أمّ المؤمنين حفصة.

فضلُها ومكانتُها عند رسول الله:

لو تحدّثنا عن فضل السّيدة حفصة، فيكفيها أنّها زوجة رسول الله ﷺ، وأمّ المومنين، ويكفيها شهادةُ الله- عزّ وجلّ- في حقّها: فهي الصّؤوم القؤوم. ولقد كان رسول الله ﷺ يقدّرها ويعتزّ بها لدرجة أنّ السيدة عائشة على مكانتها عند رسول الله ﷺوحبّه الشديد لها قالت في حقّها: «هي التي كانت تساميني من أزْواج النبي ﷺ»[2].

حارسةُ القرآن:

بعد أن شرّف الله السيدة حفصة بزواجها من رسول الله ﷺ وصيّرها أمًّا للمؤمنين، شاء- سبحانه وتعالى- أن يرفع من قدْرها

(١) نفسه ٦٨؛ ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة، حـ ٨، ص ٨٦.

(٢) الذهبي: سبر أعلام النبلاء، حـ ٢، ص ٢٢٧.

بعطيّةٍ جديدة فائقة السّخاء، وشرفٍ ما بعده شرف؛ إذ أكرمَها بأنْ تكون حارسةً للقرآن الكريم، فقد جُمع القرآن في عهد أبي بكر الصديق- رضي الله عنه- في صحف، والتي ظلّت عنده حتى توفّاه الله، ثمّ عند عمر حياته، ثمّ أودعت عند حفصة بنت عمر رضي الله عنها[١]، فكانت هى الحارسةَ لها، الأمينة عليها.

فلمّا كانت خلافة عثمان بن عفان- رضي الله عنه-، وأراد أن يجمع الناس على مصحف واحدٍ حتّى لا يختلفوا في القراءة «أرسل إلى حفصة أنْ أرسلي إلينا بالصحف؛ ننسخها في المصاحف ثمّ نردّها إليك، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان.. حتّى إذا نسخوا الصّحف في المصاحف ردّ عثمان الصّحف إلى حفصة، وأرسل إلى كلّ أفق بمصحف ممّا نسخوا..»[٢]. وليس أدلّ على قيمة ما فعلت حفصة من حفاظها على تلك الصّحف من قول إمام المفسرين الطّبري- رحمه الله- إذ يقول: «إنّ الصّحف التي كانت عند حفصة جُعلت إمامًا في هذا الجمع الأخير»[٣] أي الجمع الذي تمّ في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه.

---

(١) صحيح البخاري، حـ ٢، ص ٤٦٦ (باب جمع القرآن) حديث رقم ٤٩٨٦؛ وانظر: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، حـ ١، ص ٦١ : ٦٢، دار الحديث، القاهرة، ١٩٩٤م.

(٢) صحيح البخاري، حـ ٢، ص ٤٦٦ (باب جمع القرآن) حديث رقم ٤٩٨٧.

(٣) انظر: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، حـ ١، ص ٦٣.

علمُها رضي الله عنها:

روتِ السّيدة حفصة عن النبي- صلّى اللهَّ عليه وسلّم- وعن عمر، وروى عنها أخوها عبد اللهَّ، وابنه حمزة، وزوجته صفية بنت أبي عبيد، ومن الصحابة فمن بعدهم: حارثة بن وهب، والمطلب بن أبي وداعة، وأمّ مبشّر الأنصارية، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، وعبد اللهَّ بن صفوان بن أمية، وآخرون(١).

مسندُها عن رسول الله:

يقول الذّهبي رحمه الله: «ومسندُها في كتابٍ بقي بن مخلد ستون حديثًا، اتّفق لها الشيخان على أربعة أحاديث، وانفردَ مسلم بستة أحاديث(٢)» .

وفاتُها:

قيل: ماتتْ لمّا بايع الحسن معاوية، وذلك في جمادى الأولى، سنة إحدى وأربعين في عام الجماعة(٣).

---

(١) ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة، حـ ٨، ص ٨٦.

(٢) سير أعلام النبلاء، حـ ٢، ص ٢٣٠.

(٣) انظر: ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة، حـ ٨، ص ٨٧؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، حـ ٢، ص ٢٢٩.

وقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ عُمَرَ: «تُوُفِّيَتْ حَفْصَةُ فِي شَعْبَانَ سَنَةَ خَمْسٍ وَأَرْبَعِينَ فِي خِلافَةِ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ وَهِيَ يَوْمَئِذٍ ابْنَةُ سِتِّينَ سَنَةً»[1]، وهو الراجح عندي؛ لأنّ هناك رواية لابن وهب عن مالك أنّه قال: «ماتت حفصة عام فُتحت إفريقية، ومرادُه فتحها الثّاني الّذي كان على يد معاوية بن حديج، وهو في سنة خمس وأربعين»[2]. والله أعلم.

وقد صلّى عليها مروانُ بن الحكم والي المدينة آنذاك، ونَزَلَ فِي قَبْرِها عَبْدُ اللهِ وَعَاصِمٌ ابْنَا عُمَرَ وَسَالِمٌ وَعَبْدُ اللهِ وَحَمْزَةُ بَنُو عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ[3].

---

(١) الطبقات الكبرى، حـ ٨، ص ٦٩.

(٢) انظر: ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة، حـ ٨، ص ٨٧.

(٣) ابن سعد: الطبقات الكبرى، حـ ٨، ص ٦٨؛ ٦٩.

٥- أمّ المساكين
زينب بنت خزيمة
رضي الله عنها

مفتاحُ شخصيّتها:

في كلماتٍ قليلات كسيرتِها العطرة، نقول: إنّ مفتاح شخصية السيدة زينب بنت خزيمة- رضي الله عنها- تمحْور حول حبّ مساعدة الآخرين، فقد نشأت- رضي الله عنها- على الصّلاح، وخرجت من بيتٍ طيّب الأصل؛ فأورثها هذا وذاك حبًّا للعطاء جُبلت عليه، فهو فيها طبعٌ أصيل، لذلك كانت حتّى قبل الإسلام تُطعم المساكين وتتصدّق عليهم؛ فسُمّيت بأمّ المساكين، فما كان لها من جائزةٍ إلّا أنْ تصير أمًّا للمؤمنين، فرضي الله عن قلبٍ محبّ للعطاء، منشغلٍ بفعل الخيرات، حريصٍ على الباقيات الصالحات.

تفرّدُ السّيدة زينب بنت خزيمة:

رغم أنّ المادّة التاريخية في سيرة السيدة زينب بنت خزيمة قليلةٌ للغاية إلّا أنّ هذه السيدة الكريمة تمتّعت بخصائصَ غاية في التفرّد؛

فهي- رضي الله عنها- أوّلُ مَن دفن في البقيع من أمّهات المؤمنين، وهي الوحيدةُ التي صلّى عليها رسول الله- ﷺ- فلم تكنْ قد شُرعتْ صلاة الجنازة عندما توفّيت السيدة خديجة، والتي دُفنت بالحجون في مكة، فهيّا بنا نتعرّف على هذه المتفرّدة، أمّ المساكين.

بطاقةُ حياة:

- هي زَيْنَبُ بِنْتُ خُزَيْمَةَ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الله بن عمرو بن عبد مَنَافِ بْنِ هِلالِ بْنِ عَامِرِ بْنِ صَعْصَعَةَ.

- أمّها: هند بنت عوف بن زهير.

- هي أختُ السيدة ميمونة بنت الحارث لأمّها.

- ولِدَت- رضي الله عنها- حوالي عام ٢٨ ق. ه / ٥٩٦م.

حياتُها قبل رسول الله:

اختُلِف في اسمِ زوْجها قبل رسول الله ﷺ، فقيل إنّها كانت تحت عَبْد اللَّه بْن جحش، قُتل عنها يوم أحُد، فتزوّجها رَسُول اللَّه صلّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلّم، وهذا قولُ ابن شهاب، ولذلك فهو قولٌ له اعتبار[1].

«وَقَالَ أَبُو الحسن علي بْن عبد العزيز الجرجاني النسابة: كانت

---

(١) انظر: ابن عبد البر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب، حـ ٤، ص ١٨٥٣.

زينب بنت خزيمة عند الطفيل بْن الحارث بْن المطلب بْن عبد مناف، ثمّ خلف عليها أخوه عبيدة بْن الحارث بْن المطلب بْن عبد مناف»[١].

وقال ابنُ سعد: «أخبرنا محمد بن عمر. حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهَ عَنِ الزُّهْرِيِّ قَالَ: كانت زينب بنت خزيمة الهلالية تدعى أمّ المساكين. وكانت عند الطفيل بْن الْحَارِث بْن المطلب بْن عَبْد مناف فطلقها.

أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عُمَرَ قَالَ: فَحَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهَ بْنُ جَعْفَرٍ عَنْ عَبْدِ الْوَاحِدِ بْنِ أَبي عون قال: فتزوجها عبيدة بن الحارث فقتل عنها يوم بدر شهيدًا»[٢].

والخلافُ ها هنا لا ينصبّ على اسم زوجها الأوّل وهو: الطفيل بْن الْحَارِث بْن المطلب بْن عَبْد مناف، لكن ينصبّ على اسم زوجها الثّاني، ومع تقديري لقول ابن شهاب إلّا أنّني أميل لقول النّسّابة «علي بن عبد العزيز الجرجاني»، وما أسند ابنُ سعد في طبقاته من أنّ زوجها الثّاني الذي استشهدَ عنها هو: عبيدة بن الحارث رضي الله عنه.

ولنا- كعادتنا- وقفةٌ مع ما تقدّم نُجملها فيما يلي:

أولًا: إنَّ السيدة زينب بنت خزيمة كانت قد تزوّجت قبل رسول الله- ﷺ- مرّتين، ويقال إنّها طلّقت من الطّفيل بْن الْحَارِث، ومع ذلك

(١) نفسه، الذهبي: سير أعلام النبلاء (طبعة دار الأفكار الدولية) حـ ٢، ص ١٧٥٣، لبنان، ٢٠٠٤ م.

(٢) الطبقات الكبرى، حـ٨، ص ٩١.

فهذا لا يعيبها، فالطّلاق قد شرعه اللهُ إذا استحالتِ الحياة بين الطّرفين، فالمطلّقة، أو التي مات عنها زوجُها هى إنسانةٌ مقدّرة في الإسلام، فعلى المرأةِ المسلمة إذا تعرّضت لظروفٍ مشابهة أو قريبة من ذلك أنْ تواصل حياتها بكلّ ثقةٍ في الله عزّ وجلّ، فهي ليستْ مُعابة، أو قليلةَ القيمة في المجتمع، فلتعطي نفسها فرصةً جديدة للحياة، وطالما أنّها لم تظلم فسوف يصبّ الله عليها الخير صبًّا، ويرزقها من حيث لا تحتسب.

ثانيًا: رفعَ الله من قدْر السّيدة زينب بنت خزيمة إذْ جعلها أرملةَ شهيدٍ جادَ بنفسه من أجل أن تكونَ كلمة الله هي العليا، ولقد جاء تكريمُ الله لها بزواجها من رسول الله- ﷺ- لتصير أمًّا للمؤمنين.

ثالثًا: نلاحظ أنّ ابنَ عبد البر يقول عن السيدة زينب: «كانت تدعَى أمّ المساكين في الجاهلية»[1] ومعنى هذا أنهّا اتّصفت بهذا اللّقب حتى قبل زواجها من رسول الله، وهذا دليلٌ على صلاحها، وأصلِها الطيّب، وحبّها لفعل الخير، ورحمتها بالمساكين، ولقد أوضح ابن حجر- رحمه الله- سببَ تسميتها بذلك، فقال: «وكانت يقال لها أمّ المساكين، لأنّها كانت تطعمهم وتتصدّق عليهم»[2]. وامرأةٌ بهذه الأخلاق خليقةٌ أن تكونَ زوجة لرسول الله ﷺ، وأمًّا للمؤمنين.

---

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، حـ ٤، ص ١٨٥٣.

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة، حـ ٨، ص ١٥٧.

زواجُها من رسول الله ﷺ :

بعد أنِ اسشهدَ زوجُ السّيدة زينب بنت خزيمة رضي الله عنها، عانتْ هذه الأرملة الشابة التي كانت في العقدِ الثّالث من عمرها ما تعانيه أيّ امرأةٍ أصيلة إثرَ وفاة زوجها، ولكن لم يقدر لهذه المعاناة أن تستمرّ؛ فأمّ المساكين لطالما أحسنتْ إلى الناس؛ فأحسنَ الله إليها، ومنّ عليها بالخيرِ الوفير، ورفعَ من قدرها إذ نسبَها لرسوله الكريم، «فخطبها رسول اللهَّ- صلّى اللهَّ عليه وسلّم- إلى نفسها، فجعلت أمرَها إليه فتزوّجها- ﷺ- في شهر رمضان سنة ثلاث»[١]. وكان دخولُه- صلّى اللهَّ عليه وسلّم- بها بعد دخوله على حفصة بنت عمر[٢]. وَأَصْدَقَهَا اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أُوقِيَّةً وَنَشًّا[٣].

وهنا تبدو عظمةُ رسول الله التي تظهرُ لنا كالشّمس المشرقة في كلّ فعل من أفعاله، فالسّيدة زينب بعد وفاة زوجها غرقتْ في بحر حزنها؛ وهنا تمتدّ يدُ رسول الله إليها؛ فيخطبها، ويصدقها، ويصيّرها أمًّا للمؤمنين رحمةً بها، وإشفاقًا عليها، ورفعًا لمكانتها في الدنيا والآخرة.

---

(١) نفسه.

(٢) نفسه.

(٣) ابن سعد: الطبقات الكبرى، حـ ٨، ص ٩١.

والنّصوصُ التّاريخية تتحدّث بأنّ السيدة زينب بنت خزيمة لم تلبثْ عند رسول الله إلّا شهرين أو ثلاثة، وبعضُ الرّوايات تقول «فأقامت عنده ثمانية أشهر» ثمّ ماتت[1]، ولعلّ هذا يشي بأنها كانت مريضة؛ فيظهر لنا بوضوحٍ واضحٍ أنّ النّبي- ﷺ- إنّما تزوّجها لأهدافٍ إنسانية في المقام الأوّل.

هل روتِ السّيدة زينب شيئًا عن رسول الله؟

ما روتِ السّيدة زينب بنت خزيمة شيئًا عن رسول الله ﷺ[2]، وهنا تظهر الحكمةُ الربّانية في زواجها من رسول الله؛ فهي لم تتزوّج منه لتروي عنه العلم، وإنّما زوّجها الله منه ليرفعَ من قدرها، ويكرمَها بكرامته، فأمّ المساكين التي قدّمت الإحسان للفقراء والمساكين بعثت يدُ القدر إليها برسالةٍ مكتوب في قلبها «هل جزاءُ الإحسان إلّا الإحسان!».

وفاتُها رضي الله عنها:

لم تلبثِ السّيدة زينب بنت خزيمة كثيرًا مع رسول الله ﷺإذْ توفّاها الله بعد زواجها من رسول الله بشهورٍ قليلة لتموتَ راضية مرْضية، ويكتب لها الله كرامةً جديدة حتّى بعد موتها إذْ يصلّي عَلَيْهَا

---

(١) ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة، حـ٨، ص ١٥٧.

(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء (طبعة دار الأفكار الدولية) حـ٢، ص ١٧٥٣.

رَسُول اللهَّ- صلّى اللهُّ عَلَيْهِ وسلّم- ويدفنها بِالْبَقِيعِ[1]؛ لتكون الوحيدةَ من بين أمّهات المؤمنين التي صلّى عليها رسولُ الله، وأوّل مَن دُفنت في البقيع من زوجاته، وقد توفّيت- رضي الله عنها- في ربيع الآخر سنة أربعٍ لهجرة المصطفى ﷺ[2].

وقد ماتت- رضي الله عنها- بنت ثلاثين سنة أو نحْوها[3]، فاللّهم اجمعنا معها في الجنة- إنْ شاء الله-.

---

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى، حـ ٨، ص٩٢.

(٢) ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة، حـ ٨، ص ١٥٧.

(٣) ابن سعد: الطبقات الكبرى، حـ ٨، ص٩٢.



٦- صاحبةُ الهجرتيْن
أمّ سلمة رضي الله عنها

مفتاحُ شخصيّتها:

جُبلتِ السيّدة أمّ سلمة- رضي الله عنها- على التّضحية في سبيل الحقّ، وعدم الهوادة للباطل، وجُبلت على تحمّل جميعِ المشاقّ من أجل فكرتها النّبيلة، وقد أكسبها هذا إخلاصًا صادقًا، وقدرةً على التحمّل، وبسالةً في دفاعها عن قضيّة الإسلام العادلة التي سعتْ لإخراج النّاس من عبادة العباد لعبادة ربّ العباد، ومن ضيق الدّنيا إلى سعتها، ومن جوْر الأديان إلى عدالة الإسلام. وقد تميّزت- مع جلدِها وقوّتها وبسالتها- بالتفوّق الذّهني ممّا مكّنها من فهم جوهر الإسلام، وحسنِ الإفادة من رسول الله ، ممّا جعلها ثاني راويةٍ عن النبيﷺ بعد عائشة- رضي الله عنها-، وصاحبة مكانة علميّة راقية.

وبعد.. فمَن أحبّ أن يرى الإخلاصَ في أبهى معانيه، والجهادَ الصّادق في أجمل حلله؛ فليلقِ معنا نظرةً مطمئنّة، هادئة، على سيرةِ هذه العملاقة، الكريمة بنت الكريم، أمّ سلمة رضي الله عنها.

بطاقةُ حياة:

- هي هند بنت أبي أميّة، أمّ سلمة، زوج النبي ﷺ.

- أبوها أَبُو أمية بْن المُغِيرَةِ بْن عَبْد اللهَّ بْن عُمَرَ بْن مخزوم. واسمه حذيفة، يُعرف بزاد الرّاكب، وَهُوَ أحدُ أجوادَ قريش المشهورين بالكرم.

- وأمّها عاتكة بنت عامر بن ربيعة بْن مالك بْن خزيمة بْن علقمة بْن فراس.

- ولدَتْ- رضي الله عنها- بمكة سنة ٢٩ ق. هـ.

- كانت في غاية الحُسن والجَمال.

- وهي من السّابقين إلى الإسلام.

- وهي آخرُ زوجات النّبي- ﷺ- وفاة[١]، وقد دفنت بالبقيع.

- ثاني راويةٍ عن النبي- ﷺ- بعد عائشة.

حياتُها قبل رسول الله ﷺ :

تتعجّب وأنتَ تشاهد جلَدَ وقوّة السيدة أمّ سلمة، وتظنّ- مجرّد ظنّ- أنّها خرجت من بيئة قاسية، فقيرة، غلّفتها الغلظة وقلّة

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء، حـ ٢، ص ٢٠٢.

العيش؛ فخرجت قويّة الشّكيمة، عظيمةَ الاحتمال، باسلة في دفاعها عن قضية الإسلام.

لكنّ هذا- كما قدّمت- مجرّد ظنّ وشتْ به قوّتُها وتحمّلُها الصّعاب من غير ضجر أو صوتِ أنين، أمّا الحقيقة فهي بعيدةٌ كلّ البعد عنْ هذا، بل هي مغرقةٌ في البعد، فإنَّ أمّ سلمة «هند بنت أبي أميّة» نشأت في نعيم، وتألّقت فيه، فأبوها أبو أمية كان من سادات بني مخزوم، وعُرِفَ عنه فرطُ جوده حتّى لُقّب بـزاد الرّاكب؛ حيث كان إذا سافر لا يترك مَن يرافقه يحمل الزّاد والمتاع؛ بل يكفلُه بذلك[1].

وبمجرّد انطلاق هذه الحقيقة يتبادرُ للذّهن سؤال: مِن أين اكتسبت أمّ سلمة هذه القوة، وتلك البسالة؟! وليس من إجابةٍ سوى عظمة الإسلام، والإسلامُ فقط، فنشأةُ أمّ سلمة الأولى تُخرجها- بلا شكّ- فتاةً مدلّلة، إذا هبّت نسماتُ الرّياح بجوارها خشينا أن تخدشها، أمّا الحقيقة الماثلة للعَيان فإنّ الإسلام شكّلها وصنعها صناعةً جديدة، فصيّرها تلك العملاقة التي نعتزّ بانتسابنا إليها.

وانظرْ معي إلى صورٍ خاطفة لجهاد هذه العملاقة، فقد تزوّجت السيدة هند بنت أبى أمية من الرّجل الصالح أبي سلمة بن عبد الأسد

---

(١) ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة، حـ ٨، ص ٣٤٢.

المخزومي[1]، وهو ابن عمّها[2]. وقد أكرمهما الله بالهداية، فكانا من السّابقين للإسلام، فلمّا تعرّضَا للإيذاء من أهل مكة، وضُيّق عليهم كسائر الموحّدين آنذاك لم يتراجعَا عمّا هُما فيه من حقّ وخير وهدى، فتحمّلَا البلاء في صورة من أرقى صور الصّدق، ثمّ هاجرَا إلى الحبشة مع مَنْ هاجر مِن أصحاب رسول الله- ﷺ-[3]، ثمّ عادَا إلى مكّة صابرين محتسبين، ثمّ هاجرا من جديد إلى المدينة، لكن لم تكنْ هذه الهجرة الثانية كأختها إلى الحبشة؛ فقد فرّق بين الزّوجين بفعلِ فاعل، وأتركُك- عزيزي القارئ- لرواية أمّ سلمة نفسها في هذا الصدد.

يقول صاحبُ «أُسد الغابة»- رحمه الله تعالى-: «أخبرنا أبو جعفر بإسناده عن يونس، عن ابن إسحاق قال: حدثني والدي إسحاق بن يسار، عن سلمة بن عبد الله بن عمر بن أبي سلمة، عن جدته أمّ سلمة قالت: لمّا أجمع أبو سلمة الخروج إلى المدينة، رحل بعيرًا له وحملني، وحملَ معي ابني سلمة، ثمّ خرجَ يقود بعيره. فلمّا رآه رجال بني المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، قاموا إليه فقالوا: هذه نفسُك غلَبتنا عليها، أرأيتَ صاحبتنا هذه؟ علام تُترك تسير بها في البلاد؟ ونزعوا

---

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء، حـ ٢، ص ٢٠٢.

(٢) ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة، حـ ٨، ص ٣٤٢.

(٣) ابن سعد: الطبقات الكبرى، حـ ٨، ص ٦٩.

خطامَ البعير من يده، وأخذوني. وغضبتْ عند ذلك بنو عبد الأسد، وأهووا إلى سلمة، وقالوا: والله لا نتركُ ابننا عندها إذْ نزعتموها من صاحبنا. فتجاذبوا ابني سلمة حتى خَلَعوا يده، وانطلقَ به بنو عبد الأسد، رهطُ أبي سلمة، وحبسني بنو المغيرة عندهم. وانطلق زوجي أبو سلمة حتّى لحق بالمدينة، ففُرِّق بيني وبين زوْجي وبين ابني. قالت: فكنت أخرج كلّ غدَاة فأجلسُ بالأبطح، فما أزال أبكي، حتّى أُمسي سنة أو قريبها. حتّى مرّ بي رجل من بني عمّي من بني المغيرة، فرأى ما بي، فرحمني، فقال لبني المغيرة: ألا تَخْرُجون مِن هذه المسكينة؟ فرّقتم بينها وبين زوجها وبين ابنها. فقالوا لي: الْحقي بزوجك إنْ شئت. وردَّ علي بنو عبد الأسد عند ذلك ابني، فرَحَلت بعيري ووضعت ابني في حجري، ثمّ خرجتُ أريد زوجي بالمدينة، وما معي أحدٌ من خلق الله، فقلت: أَتبلَّغُ بمَن لقيتُ حتى أَقدُمَ على زوجي. حتّى إذا كنت بالتّنعيم لقيت عثمان بن طلحة بن أبي طلحة ــ أخا بني عبد الدار ــ فقال: أين يا بنت أبي أميّة؟ فقلت: أريد زوجي بالمدينة. فقال: هل معك أحد؟ فقلت: لا والله، إلّا الله وابني هذا. فقال: والله ما لك من مَتْرَك. فأخذَ بخُطام البعير فانطلق معي يقودني، فوالله ما صحبتُ رجلًا من العرب أرَاه كان أَكرمَ منه. إذا بلغ المنزلَ أناخَ بي ثمّ تَنَحَّى إلى شجرةٍ فاضطجع تحتها، فإذا دنا الرّواح قام إلى بعيري فقدّمه فرحله، ثمّ استأخّر عنّي وقال: اركبي. فإذا ركبت واستويت على بعيري أتى فأخذَ بخطامه،

فقادني حتّى ننزل. فلم يزلْ يصنع ذلك حتّى قدم بي إلى المدينة، فلمّا نظر إلى قرية بني عمرو بن عوف بقبَاء قال: زوجُك في هذه القرية ـــ وكان أبو سلمة نازلًا بها ـــ فدخلتُها على بركة الله تعالى، ثمّ انصرفَ راجعًا إلى مكّة. وكانت تقول: ما أعلم أهل بيت أصابَهم في الإسلام ما أصابَ آل أبي سلمة، وما رأيت صاحبًا قطّ كان أكرم من عثمان بن طلحة»[1].

وما تقدّم يشي بجملةِ دلالات وعبَرٍ، نوجزها فيما يلي:

أولًا: تبدو عظمةُ الإسلام والمُنتمين إليه واضحةً في مدى جلد وقوّة آل أبى سلمة، ويا ليتَ الأمّة تتأدّب بأدب هذا الرّعيل الأوّل من المسلمين، ذلك الجيلُ الذي كان يعلي من قيمة القيمة ويضحّي بأغلى ما يملك من أجل قيم ومبادئ سامية، بينما الأمّة الآن– في غالبيتها– تنشغل وبهمّة عالية في هدم القيم الإسلامية التي كانت– وستظلّ– سببَ عزّها!!

ثانيًا: لم تكنْ أمّ سلمة– رضي الله عنها– امرأةً عادية؛ فقد علم الله من قلبها صلاحًا؛ فأكرمَها بأبي سلمة، ذلك الصحابيّ الفذ، وأكرمَها بالإسلام، فكانت من السّابقين إليه. ثمّ لمّا استشهد– رضي الله عنه– أكرمَها الله برسوله محمد، وصيّرها أمًّا للمؤمنين.

ثالثًا: إذا تغرّب المرء منّا لحاجةٍ من حاجات الدنيا، استشعر مرارةَ الغربة، واكتوى بنارها، أمّا الغربة في سبيل الله فما أحلاها وما أعذَبها.

(١) ابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصحابة، حـ ٧، ص ٣٢٦: ٣٢٧.

وهذا المعنى الذي تسطّره يميني على ظهر هذه الوريْقات، مثّله أبو سلمة وزوجتُه في أدقّ معانيه؛ فهما قدْ تركا الأهل والأحبّة والسّكن وأرضًا قد نبتَا فيها، تركوا هذا كلّه في سبيل الله، وذهبَا إلى أرض بعيدة هي أرض الحبشة يستنيرون فيها بنور ربّهم، ويهتدوا بهداه، ويستأنسون بإخوانهم في الدّين، ويطمعون في كرم الله أن يهدي على أيديهم أناسًا من أهلِ هذه البلاد، فما أجملَ الإسلام، وما أعظمه!

رابعًا: حينما هاجرَ أبو سلمة وحُرِمَ من زوجته وابنه، لم يفتّ هذا في عضده، ولم يُلِنْ عزيمتَه؛ وإنّما ترك زوجتَه وابنه- مع ما توفّر لهما من رعاية ظاهرة عند أهلهما- في معيّة الله عزّ وجلّ، فحفظهما اللهُ ورعاهما إلى أنْ عادا إليه، فالحافظُ هو الله، ومَن كان الله معه فمَن ذا الذي ضدّه!!

خامسًا: هذا المشهدُ الإنسانيّ الراقي الذي قصّته علينا السيدة أمّ سلمة- رضي الله عنها- فضلًا عمّا يفصح عنه مِن صبرٍ واحتمال وجلدٍ وتضحية في سبيل الله فإنّه يشي بأنّ المؤمن لا يستقرّ له قرارٌ ولا يسكن ويطمئنّ قلبه إلّا بانضمامه لبنيانه المؤمن، فأمّ سلمة- رضي الله عنها- لم تكنْ تبكي على ابنها، ولا حتّى على زوجها؛ وإنّما بكتْ لحرمانها من الانضمام لجماعة الإسلام ولبِنَتِه الأولَى في المدينة النبوية، تلك اللّبنة التي قام عليها المجتمعُ المسلم آنذاك.

أسرةُ أمّ سلمة رضي الله عنها:

رُزقت السّيدة أمّ سلمة- رضي الله عنها- من زوجها الصّحابي الجليل أبي سلمة بأسرة كريمةٍ طيّبة، ضمّت البنين والبنات، فولدت له: سلمة، وعمر، ودَرَّة، وزينب(١).

وفاةُ أبي سلمة، ورسالتُه الخالدة:

ظلّ أبو سلمة وزوجتُه السّيدة هند بنت أبي أميّة يجاهدان في سبيل الله مع رسول الله وجماعةِ المؤمنين الأولى، لا يدّخران وسعًا في خدمة الإسلام والمسلمين، فلمّا بلغ أبو سلمة الذّروةَ في جهادِه ونصحه للمسلمين أكرمَه الله بالشّهادة؛ ليترك زوجته وأسرتَه الصغيرة في معيّة الملك عزّ وجل، ففي سنة ٣ هـ أصيبَ أبو سلمة في غزوة أحد بجرحٍ بليغ، ظلّ ملازمه حتى توفّي في ٨ جمادى الآخرة ٤ هـ(٢).

وقبل وفاته- رضي الله عنه- أبى أن يتركنا إلّا وقد تركَ لنا رسالة تُكتَب بماء العيون، رسالة مَفادها: «إنّ أصحاب رسول الله- ﷺ- قامات عالية، لا تطاولها النجوم وإنْ علت، قاماتٌ لا تحرصُ على الدّنيا، ولا تبكي عليها، ولا تحرصُ على سعادة خاصّة، وإنما همّها الباقيات الصّالحات، ورضوانُ الله عزّ وجلّ»، فها هي أمّ سلمة

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى، حـ ٨، ص ٦٩.

(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء، حـ ٢، ص ٢٠٣.

تتحدّث مع زوجها وقد أصيبَ بما أصيب من جراحاتٍ في يوم أحد، فتقول: «بَلَغَنِي أَنَّهُ لَيْسَ امْرَأَةٌ يَمُوتُ زَوْجُهَا وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَهِيَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ ثمّ لَمْ تَزَوَّجْ بَعْدَهُ إِلّا جَمَعَ اللهُ بَيْنَهُمَا فِي الْجَنَّةِ. وَكَذَلِكَ إِذَا مَاتَتِ الْمَرْأَةُ وبقي الرجل بعدها. فتعال أعاهدك إلّا تزوج بَعْدِي وَلا أَتَزَوَّجَ بَعْدَكَ. قَالَ: أَتُطِيعِينِي؟ قالت: مَا اسْتَأْمَرْتُكَ إلّا وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أُطِيعَكَ. قَالَ: فَإِذَا مُتُّ فَتَزَوَّجِي. ثمّ قَالَ: اللَّهُمَّ ارْزُقْ أمّ سَلَمَةَ بَعْدِي رَجُلًا خَيْرًا مِنِّي لا يُحْزِنُهَا وَلا يُؤْذِيهَا..»[1].. يا الله.. أيّ سموّ هذا.. وأيّ ارتقاء.. حقًّا إنّهم أصحاب رسول الله ﷺ.

زواجُ النّبي ﷺ من أمّ سلمة:

تُوفّي أبو سلمة- رضي الله عنه- وقد حزنتْ عليه أمّ سلمة حزنًا شديدًا، فلمّا انقضت عدّتها تقدّم كبارُ أصحاب النّبي - ﷺ- لخطبتِها؛ تقديرًا لها؛ ورعاية لأبنائها، ومنهم صغار، لكنّ أمّ سلمة فضّلت التفرّغ لرعاية أسرتها، وكان ممّن تقدّم لخطبتها أبو بكر رضي الله عنه، وعمر بن الخطاب رضي الله عنه، فردّتْهما ولم توافقْ على أيّ منهما[2].

وقد كانتْ أمّ سلمة- رضي الله عنها- تعلّمت من رسول الله- ﷺ- دعاءً أمَرَها بقوله إذا أصابتْها مصيبة، تقول أمّ سَلَمَةَ: «سَمِعْتُ رَسُولَ

---

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى، حـ ٨، ص ٧٠.

(٢) نفسه، ص ٧١.

اللهَّ- صلّى اللهُّ عَلَيْهِ وسلّم- يَقُولُ: مَنْ أُصِيبَ بِمُصِيبَةٍ فَقَالَ كَمَا أَمَرَهُ اللهُّ «إِنَّا للهَّ وَإِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ». اللَّهُمَّ أْجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي وَأَعْقِبْنِي خَيْرًا مِنْهَا. فَعَلَ اللهُّ ذَلِكَ بِهِ. قَالَتْ: فَلَمَّا تُوُفِّيَ أَبُو سَلَمَةَ قُلْتُ: وَمَنْ خَيْرٌ مِنْ أَبِي سَلَمَةَ؟ ثمّ قُلْتُهَا. فَأَعْقَبَهَا اللهُّ رَسُولَهُ- صلّى اللهُّ عَلَيْهِ وسلّم- فَتَزَوَّجَهَا»[1].

ويُفهم من هذا النصّ أنّ إكرام الله- عزّ وجلّ- لأمّ سلمة برسوله محمد- ﷺ- كان استجابةً لدعوة صادقة تعلّمتها أمّ سلمة من رسول الله ﷺ.

لكن، وقد قدّمنا أنّ أمّ سلمة رفضتِ الزّواج بعد وفاة زوجها، فماذا كان موقفُها من خطبة رسول الله- ﷺ- لها؟ وكيف وافقت في النّهاية؟! وما هو دافعُ النّبي- عليه السلام- من الزّواج بها- وقد علمنا أنّ كلّ زيجاته تمّت لأهداف ومقاصدَ نبيلة؟

تقدّم رسولُ الله- ﷺ- لخطبة السيّدة أمّ سلمة، دفعَه لذلك عدّة أشياء، أوّلها: رغبتُه الملحّة في تكريم هذه المهاجرة الأولى، والرّفع من قدْرها في الدّنيا والآخرة.

ثانيها: أنّها على ما قدّمت في الإسلام لم يكنْ لها كفء كزوجٍ خلا رسول الله ﷺ.

ثالثها: رغبتُه- ﷺ- في رعاية أبناءِ صاحبه وأخيه من الرّضاعة، الصّحابيّ الجليل أبي سلمة.

---

(١) نفسه.

رابعها: أنّ النّبي- ﷺ- كان يعلم أنّ أمّ سلمة لن توافقَ على الزّواج من أيّ أحدٍ بعد أبي سلمة، وأنّها قد تفرّط في حقّ نفسها بهذا المسلك، ولن يثنيها عن ذلك إلّا تقدّم النّبي- ﷺ- بنفسه لخطبتها، فكانت هذه الأسبابُ مجتمعةً من وراء إقدام النّبي- ﷺ- على الزّواج من السيدة أمّ سلمة.

أمّا عن موقفها من خطبةِ رسول الله لها، فعلى الرّغم من ترحيبها برسول الله- ﷺ- إلّا أنّها تحرّجت أن توافق فتؤذي رسول الله، فهي صاحبةُ عيال، فقالت حينما خطبها: «أَرُدُّ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ أَوْ أَتَقَدَّمُ عَلَيْهِ بِعِيَالِي؟! وكانت بها غيرةٌ فخشيتْ أن يؤذي هذا وذاك رسولَ الله، لكنّ النّبي- ﷺ- ذلّل لها الصّعابَ من أجل إتمام هذه الزّيجة المباركة. وقد أسند ابنُ سعد- رحمه الله- روايةً لطيفة أفصحتْ عن هذا المعنى، جاء فيها: «فَبَعَثَ إِلَيْهَا رَسُولُ اللَّهِ- صلّى اللهُ عَلَيْهِ وسلّم- فَقَالَتْ: مَرْحَبًا بِرَسُولِ اللَّهِ وَبِرَسُولِهِ. أَخْبِرْ رَسُولَ اللَّهِ أَنِّي امْرَأَةٌ غَيْرَى وَأَنِّي مُصْبِيَةٌ وَأَنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ مِنْ أَوْلِيَائِي شَاهِدٌ. فَبَعَثَ إِلَيْهَا رسول الله صلّى الله عليها وسلّم: أمّا قَوْلُكِ إِنِّي مُصْبِيَةٌ فَإِنَّ اللَّهَ سَيَكْفِيكِ صِبْيَانَكِ. وَأَمَّا قَوْلُكِ إِنِّي غَيْرَى فَسَأَدْعُو اللَّهَ أَنْ يُذْهِبَ غَيْرَتَكِ. وَأَمَّا الأَوْلِيَاءُ فَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْهُمْ شَاهِدٌ وَلا غَائِبٌ إِلّا سَيَرْضَانِي» فوافقت أمّ سلمة، وتزوّجها رسولُ الله- ﷺ- في ليالٍ بقينَ من شوال سنة أربع[1].

(١) نفسه، ص ٦٩، ٧٠، ٧١.

أمّ سلمة في بيت النّبوة:

أ- تقديرُ النّبي ﷺ لها:

كان رسولُ الله- ﷺ- يقدّر السّيدة أمّ سلمة تقديرًا كبيرًا، فقد ذكرت عائشة رضي الله عنها، أنّ النبي- ﷺ- كان إذا صلّى العصر دخل على نسائه واحدةً واحدة، يبدأ بأمّ سلمة لأنّها أكبرهنّ، ويختم بعائشة، وإن دلّ هذا على شيء فإنّه يدلّ على تقدير النّبي- ﷺ- الكبيرِ لأمّ سلمة، واعتزازه بها.

ب- إهداؤها هدية النّجاشي:

لمّا تزوّج النبي- ﷺ- أمّ سلمة، قال لها: إنّي قد أهديت إلى النّجاشي أواقي من مسكٍ وحُلّة، وإنّي أراه قد مات، ولا أرى الهدية إلّا سترد. فحدثَ ما قاله رسول الله ﷺ، وردّتْ عليه هديتُه؛ فأعطى كلّ امرأةٍ من نسائه أوقية، وأعطى سائرَه أمّ سلمة والحلّة[١].

حـ- تسميتُها من آل البيت:

وتروي ابنتُها زينب أنّ النبي- ﷺ- ضمّ إليه يومًا الحسنَ والحسين وفاطمة، وقال: «رَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ، إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ» فبكت أمّ سلمة، وكانت ابنتُها زينب معها، فسألها عن بكائها، فقالت:

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء، حـ ٢، ص ٢٠٩.

«يا رسولَ الله، خصصْتَهم وتركتني وابنتي» فقال: «أَنْتِ وَابْنَتُكِ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ»[1].

ء- دورُها في حياة النّبي- عليه السلام-، واستشارتُه لها:

كان النّبي- ﷺ- يستحسنُ رأيها ويأخذُ به، فيروى أنّه بعد أن أُقرّ صلح الحديبية، قال لأصحابه: «قُومُوا فَانْحَرُوا، ثمّ احْلِقُوا»، فتباطأ أصحابه لعدم رضاهم عن بنود الصّلح، فحزن النبي- ﷺ-، ودخل على أمّ سلمة التي كانت معه في تلك العُمرة، فذكرَ لها ما لقي من الناس، فقالتْ له: «يا نبيّ الله، أتحبُّ ذلك؟ اخرجْ ثمّ لا تكلِّم أحدًا منهم كلمةً، حتّى تنحر بُدْنَك وتدعو حالقك فيحلقك» فخرج فلم يكلِّم أحدًا منهم حتّى فعل ذلك؛ فنحرَ وحلق، فلمّا رأَى أصحابُه ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضُهم يحلق بعضًا[2]، وفي هذا تبدو حكمةُ السيّدة أمّ سلمة رضي الله عنها.

ه- أمّ سلمة والقرآنُ الكريم:

وكانت أمّ سلمة- رضي الله عنها- محبّةً للعلم، تحبّ أن تسأل رسول الله ﷺ، وتستفسرَ منه عن بعضِ الأمور التي تعنّ لها كامراة، فكان هذا

---

(١) الهيثمي: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، حديث ١٥٠٠٥، دار الفكر، بيروت، ١٤١٢ هـ.

(٢) صحيح البخاري، حـ ١، ص ٥٣٩ (حديث رقم ٢٧٣٢).

سببًا لنزول بعض الآياتِ الكريمة من القرآن الكريم، فعنْ مُجاهد قال: قالت أمّ سلمة: يا رسول الله، تغزو الرجال ولا نغزو، وإنّما لنا نصفُ الميراث. فنزلت: {وَلاَ تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ} [النساء: ٣٢] [1].

وأورد ابنُ كثير خبرًا ظريفًا جاء فيه: «قال الإمام أحمد: حدّثنا عفان، حدّثنا عبد الواحد بن زياد، حدّثنا عثمان بن حكيم، حدّثنا عبد الرحمن بن شيبة قال: سمعت أمّ سلمة زوج النبي - ﷺ - تقول: قلتُ للنبي ﷺ: ما لنا لا نُذكَر في القرآن كما يُذكَر الرّجال؟ قالت: فلم يرعني منه ذاتَ يوم إلّا ونداؤه على المنبر، قالت: وأنا أسرّح شعري، فلففتُ شعري، ثمّ خرجتُ إلى حجرةٍ من حجر بيتي، فجعلتُ سمعي عند الجريد، فإذا هو يقول عند المنبر: «يا أيّها الناس، إنّ الله يقول: «إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا» [الأحزاب: ٣٥] [2]

---

(١) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، حـ ١، ص ٤٦٢، المكتبة القيمة، القاهرة، ١٩٩٣ م.

(٢) نفسه، حـ ٣، ص ٤٥٧.

أمّ سلمة بعد رسول الله ﷺ:

لزمت أمّ سلمة بيتها بعدَ وفاة النّبي ﷺ، وقد كانت- رضي الله عنها- من فقهاء الصّحابيات[1]؛ إذ استفادتْ من رسول الله إفادةً عظيمة، وتأثّرت به تأثرًا بيّنًا؛ فأصبحت قلعةً للعلم فقصدَها الكثيرون لسماع الحديثِ والتفقّه في الدّين، فقامت بدورٍ علميّ مميّز في خدمةِ الإسلام والمسلمين، فقدّر لها أن تبدأ حياتها مجاهدةً بنفسها في سبيل الله، وتختتمُ حياتها مجاهدةً في نشر العلم وتبصير النّاس، من خلال البلاغِ عن رسول الله ﷺ.

مكانتُها العلميّة:

روت أمّ سلمة- رضي الله عنها- عن النّبيّ، صلّى اللهَّ عليه وآله وسلّم، كثيرا، وعن أبي سلمة رضي الله عنه، وروى عنها خلقٌ كثير، منهم: أولادها؛ عمر، وزينب، ومكاتبها نبهان، وأخوها عامر بن أبي أميّة، ومواليها: عبد اللهَّ بن رافع، ونافع، وسفينة، وأبو كثير، وسليمان بن يسار.

وروى عنها- أيضًا- ابنُ عبّاس، وعائشة، وأبو سعيد الخدريّ، وقبيصة بن ذؤيب، ونافع مولى ابن عمر، وعبد الرّحمن بن الحارث بن هشام، وآخرون[2].

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء، حـ ٢، ص ٢٠٣.

(٢) ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة، حـ ٨، ص ٣٤٤.

مسندُها عن رسول الله ﷺ:

يقول الذهبي رحمه الله: «ويبلغ مسندُها ثلاثمائة وثمانية وسبعين حديثًا. واتّفق البخاري، ومسلم لها على ثلاثة عشر. وانفرد البخاري بثلاثة. ومسلم بثلاثة عشر»[1].

وفاتُها رضي الله عنها:

هناك خلافٌ بين أهل العلم في تاريخ وفاة السّيدة أمّ سلمة- رضي الله عنها-؛ فمنهم مَن قال بوفاتها سنة ٥٩ ه، ومنهم مَن قال: بل سنة ٦١ه، وقد حقّق ابن حجر- رحمه الله- المسألة فقال: «قال الواقديّ: ماتت في شوال سنة تسع وخمسين، وصلّى عليها أبو هريرة.. كذا قال.

وتلقّاه عنه جماعة، وليس بجيد، فقد ثبتَ في صحيح مسلم أنّ الحارث بن عبد اللهَّ بن أبي ربيعة، وعبد اللهَّ بن صفوان- دخلا على أمّ سلمة في ولاية يزيد بن معاوية فسألاها عن الجيش الّذي يُخسَف به... الحديث. وكانت ولاية يزيد بعد موت أبيه في سنة ستين.

وقال ابنُ حبّان: ماتتْ في آخر سنة إحدى وستين بعد ما جاءها الخبرُ بقتل الحسين بن علي.

---

(١) سير أعلام النبلاء، حـ ٢، ص ٢١٠.

قلت: وهذا أقرب»[١].

قال الذّهبي- رحمه الله-: «وبعضّهم أرّخَ موتَها في سنة تسع وخمسين فوَهَم أيضًا، والظّاهر وفاتُها في سنة إحدى وستّين رضي الله عنها»[٢].

وعليه، فإنّ السّيدة أمّ سلمة قد توفّيت سنة ٦١ ه، وقد دُفنت- رضي الله عنها- في البقيع، فرضي الله عنها، وجمعنا معها في الجنّة- إن شاء الله-.

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة، حـ٨، ص ٣٤٤.

(٢) سير أعلام النبلاء، حـ٢، ص ٢١٠.

٧- مأوى المَساكين واليتامى
زينب بنت جحش رضي الله عنها

مفتاحُ شخصيّتها:

نستطيع بكلّ فخرٍ أن نقول: «إنَّ أمّ المؤمنين زينب بنت جحش- رضي الله عنها- قلبٌ مؤمنٌ يعشقُ العطاء»، وهذا- وبإيجاز شديد- هو مفتاحُ شخصيّتها، الذي ظهرَ واضحًا في عطاءاتها المُبهرة، وإنفاقها في سبيل الله حتّى صارت مفزعَ اليتامى والأرامل، أي ملجأهم ومأواهم. ولم يكنْ هذا الخلقُ فيها وليدًا، بل هو خلقٌ أصيل نبعَ من خشيتها لله، فهي الأوّاهة، أي المتعبّدة، الخاشعة، المتضرّعة كما سمّاها رسول الله ﷺ، فحبّها لله عزّ وجلّ، وحرصُها على رضاه فجّر فيها غريزةَ العطاء، فضربتْ فيه بسهمٍ قلّما نرى مثله، وقدّمت نماذجَ قلّما يجود الزّمان بمثلها، ولعلّها بفعلها وعطائها الملائكيّ توجّه رسالة لَمن ادّعى التّدين أو التقوى دون أن يقدّم دليلًا عليهما؛ أنّ عليك أيّها المتديّن أو التّقيّ أن تبرهنَ بأفعالك- لا بأقولك- على مكنون قلبك؛ لأنّ خيرَ الدّاعين مَن يدعو بأفعاله لا بأقواله.

كلمةٌ قبل البداية:

رغم شدّة البردِ هذه الأيام، ونحن الآنَ في منتصف شهر يناير لسنة ٢٠١٩م، ومصرُنا الحبيبة تضربُها موجةُ بردٍ قارس، إلّا أنّ الإنسانيات، والمشاعر النبيلة، التي تملأ سيرة السيدة زينب بنت جحش- رضي الله عنها-، تهوّن عليَّ ذلك كلّه، فيتحوّل البردُ الشّديد إلى دفء في المشاعر والوجدان، وأجدُ طاقةً هائلة تدفعني إلى إكمال مسيرتي في هذا الكتاب الطيّب، فهيّا معي- أيّها القارئ الكريم- نتعرّف عن قربٍ قريبٍ على سيرة مأوى المساكين واليتامى «زينب بنت جحش» رضي الله عنها.

بطاقةُ حياة:

- هي زينب بنت جحش بن رئاب بن يعمر بن صبرة بن مرة بن كثير بن غنم بن دودان بن أسد بن خزيمة.
- أمّها: أميمة بنت عبد المطلب، عمّة النبي ﷺ.
- أعظمُ نساء الأرض وليًا، وأكرمهنّ سفيرًا.
- هي أختُ الصّحابي الجليل عبد الله بن جحش رضي الله عنه.

حياتها قبلَ الزواج من رسول الله :

في مكّة المكرمة، حيث صوتُ الإسلام عالٍ، رغم المنع والتّضيق،

أسلمت السيدة زينب بنت جحش رضي الله عنها، فهي قديمةُ الإسلام[1]، من السّابقين للفضْل، الفارّين إلى التوحيد، وقد تحمّلت في سبيل الله الكثيرَ هي وأهلُها، حتّى هاجرت مع مَن هاجر إلى المدينة النبوية تاركةً الدّار والأرضَ التي ولدتْ وترعرعت فيها لتشارك- كغيرها من المسلمين- في بناء المجتمع المسلم الجديد، القائم على العدل والتوحيد، وإقامة مجتمع الأخوة الصادق.

إذًا، نحنُ أمام إنسانةٍ مجاهدة، صلبة، حريصةٍ على الحقّ، فخورة بإسلامها، لم تعلن الإيمانَ كلمة، وإنّما أعلنته معنى؛ فإيمانُها إيمانٌ راسخ يتحدّى الصّعاب، ويسير على الأشواك؛ طالما كانت الخاتمةُ رضوانَ الله عزّ وجلّ. وهذا المعنى ينبغي أن يرسّخ ابتداءً في قلوب المسلمين وهُم يطالعون سيرتها حتّى لا تأخذ بعقولهم الظّنونُ وهُم يتابعون موقفَها من الصّحابيّ الجليل زيد بن حارثة، زوجِها الأوّل.

وهذه المجاهدة لم تكنْ غريبةً على رسول الله، ﷺ، فهي ابنة عمّته، وهو خبيرٌ بحالها، مطّلع على أحوالها، ولا بدّ أنّه رآها غيرَ مرّة، ولو رأى فيها الزّوجة لتقدّم لخطبتها؛ ولوافقتْ هي على الفور، ولأسعَدَ هذا أهلَها.. لكنّ النّبي- ﷺ- لم يفعلْ هذا.. وإنّما اختارها زوجةً لزيد

---

(١) ابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصحابة، حـ ٧، ص ١١٨ (وكانت قديمة الإسلام، ومن المهاجرات).

بن حارثة رضي الله عنه[1]، وزيد مولى رسول الله، الذي أحبّه النّبي ﷺ، وتبنّاه، وأطلقَ عليه اسم: زيد بن محمد، وكأنّ رسول الله اختارَ لزينب جزءًا منه، فهو حِبّ رسول الله ﷺ.

لكنْ.. ما القصدُ من وراء ذلك؟ هناك نصوصٌ تقول إنّ زيدًا تزوّج بالسيدة زينب «ليعلمها كتابَ الله وسنة رسوله»[2]، بمعنى أنّ النبي- ﷺ- أراد أن يكرم السيدة زينب ابنة عمّته فزوّجها من متبنّاه زيد ليعلمها القرآن والسنة ويفقهها في الدّين، وإلى جوار هذا فقد أرادَ رسول الله- ﷺ- أن يكرمَ زيدًا بتزويجه لهذه المجاهدة، وأن يرفعَ من قدره إذْ أنّ زينب سيدةٌ في قومها، صاحبةُ نسبٍ شريف. كذلك فقد أرادَ رسول الله- وبشكل عمليّ- أنْ يؤسّس لفكرة المساواة بتزويج زيدٍ، مولاه، لسيّدةٍ من كبار بيوتات قريش.

فماذا كان رأي زينب في زيدٍ بن حارثة؟ أسند ابنُ سعد- رحمه الله- رواية جاء فيها: «أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عُمَرَ. حَدَّثَنِي عُمَرُ بْنُ عُثْمَانَ الْجَحْشِيُّ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: قَدِمَ النَّبِيُّ- صلّى اللهُّ عَلَيْهِ وسلّم- الْمَدِينَةَ وَكَانَتْ زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ مِمَّنْ هَاجَرَ مَعَ رَسُولِ اللهَّ- صلّى اللهُّ عَلَيْهِ وسلّم- إِلَى الْمَدِينَةِ. وَكَانَتِ امْرَأَةً جَمِيلَةً فَخَطَبَهَا رَسُولُ اللهَّ- صلّى اللهُّ عَلَيْهِ وسلّم-

---

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى، حـ ٨، ص ٨٠.

(٢) ابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصحابة، حـ ٧، ص ١١٨.

عَلَى زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ لا أَرْضَاهُ لِنَفْسِي وَأَنَا أَيِّمُ[1] قُرَيْشٍ. قَالَ: فَإِنِّي قَدْ رَضِيتُهُ لَكِ. فَتَزَوَّجَهَا زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ»[2].

وهذه الروايةُ توضّح أنَّ السيدة زينب لم تكنْ ترغب في الزّواج من زيد بن حارثة، رضي الله عنه، وليس هذا لعيبٍ فيه، وإنّما كانت السيدة زينب- وقد ربّيت في بيئةٍ عربيّة صرفة- ترى أنّ زيدًا غيرُ مناسب لها، فهي كما قالت: «أَيِّمُ قُرَيْشٍ»، وزيد على مكانته العلميّة، ومكانُه من رسول الله مجرّد مولى.. فرأتْ في هذا مانعًا من الموافقة على الزّواج منه، وهي- وعلى الرغم من إسلامِها القديم- لم تكنْ قد فقهتْ في القرآن والسّنة؛ فحكمت في المسألة بما خبرته من عادات وتقاليد العرب التي ترى السّيد سيدًا، والمولى مولى!

لكنّ النّبي- ﷺ- كان يرى صالحَها، ويعلم ما لا تعلم، فقابل رفضَها بقوله: «فَإِنِّي قَدْ رَضِيتُهُ لَكِ»؛ فوافقتِ السّيدة زينب إرضاءً لله ورسوله، وحسمتِ الأمر بتنفيذ رغبةِ رسول الله ﷺ.

إذًا: تزوّجت زينب بالصّحابيّ الجليل زيد بن حارثة وفي نفسها شيء.. فهي امرأةٌ جميلة، سيّدة في قومها، وزيد مولى.. وحاولت السّيدة زينب أنْ تتعايش مع واقعها الجديد، وحاول زيد.. لكنْ طبيعةُ

---

(١) الأَيِّمُ: من لا زَوْجَ لها، بِكْرًا أو ثَيِّبًا.

(٢) الطبقات الكبرى، حـ ٨، ص ٨٠.

الأشياء تأبى ذلك، فكثرتِ الاختلافات بينهما، فما يتجاوزا مشكلة إلّا حلّت محلّها أخرى؛ فحدثَ نفورٌ وتباين بينهما، فهَمّ زيدٌ بتطليقها أكثرَ من مرّة، ورسولُ الله يقول له: أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ.. رافضًا- ﷺ- هدمَ ذلك البيت، الذي أقامه وتمنّى له النجاح والتّوفيق، غير أنّ الأمور قد تطوّرت، وطلّق زيد السيدة زينب.

وهنا، وقبلَ الحديث عنْ زواج النّبي- ﷺ- من السيدة زينب بنت جحش، والمقاصدُ الشرعية وراء ذلك، أراني بحاجةٍ إلى إيضاح سببِ نفور السيدة زينب من زيد، وأراني بحاجةٍ ماسّة أن أقفَ موقفَ المدافع عنها، المعبّر عن رأيها، فهلْ تسمح لي- عزيزي القارئ- أنْ أقوم بهذا الدّور وأزودَ عن أمّ المؤمنين زينب بنت جحش؟!

قد تعرضُ علينا مسألةٌ ونحكمُ فيها بالأدلّة الواضحة أمام أعيننا، ويأتي حكمنا مجانبًا للصّواب إذْ أنّ هناك أدلّة مخفيّة لم نطّلع عليها بعد، والأدلّة المخفية في قصّة السيدة زينب وسيدنا زيد بن حارثة هي العواملُ النفسيّة وراء ما مرّا به من مشكلاتٍ انتهتْ بالطلاق.

فالسّيدة زينب بنت جحش- رضي الله عنها- بتاريخها الحافل، وجهادها الصّادق كانت- بلا شكّ- تقدر الصّحابيّ الجليل زيد بن حارثة، وتعرف مكانته بين المسلمين، ومكانه من قلب النّبي، ﷺ، ولو أنّ الأمر بيدها ما وقعَ بينها وبينه ما وقعَ من خلافٍ أفضى للطّلاق..

لكنّ المسألة تعدّت ما تستطيع إلى ما لا تستطيع، فهي منذُ البداية تستشعرُ الحرج في الارتباط بزيد بن حارثة، وترى أنّها سيدة قريش، وهو مولى، ولولا أنْ ألحّ عليها رسول الله في الموافقةِ عليه ما وافقت.. وقد تمّت الزّيجة وفي نفسها شيء؛ بل أشياء، واستمرّت هذه الأشياء تنغّص عليها حياتها إلى أنِ اسْتحالت العيشة بينها وبين زيد، ومع ذلك فلم تطلبْ هي الطّلاق؛ بل طلّقها زيد لمّا استشعر ذلك الحاجزَ النّفسي بينه وبين السيدة زينب.

لذلك حينما تأتيني أختٌ تسأل: قدمَ لخطبتي شابّ ملتزم، لكنّي لا أستسيغه، ولا أميل للزّواج منه، أأتزوّجه لدينِه، وقد يأتي القبول فيما بعد؟ أردّ عليها بكلّ ثقة: إذًا تظلمينَه وتظلمين نفسك، فأنا أريدُك أن تتزوّجي من الشّاب الملتزم المتديّن الذي تقبله نفسُك، وتراه زوجًا لها، أمّا غير ذلك؛ فلا.

لكن: هل غابتْ هذه العلّة عن رسول الله ﷺ؟ بالطّبع لا، فالنبي -ﷺ- نجيبٌ لبيب، موفّق من السّماء، فلعلّه ﷺ اطّلع على الأمر برُمّته فأمضاه لتبقى منه العبرةُ والعظة، ويترتّب على زواج زيد متبنَّى رسول الله وزينب بنت جحش عدّة أمور تشريعيّة، كما سوف نبيّن.

ولا أريد أن يفهَمَ من كلامي أنّي أشجّع المرأة المتزوّجة، ولا تجد قبولًا من نفسها لزوجها أنْ تُطلّق، فطالما أنّ البيت قائمٌ ومستمرّ، فلتصبر

ولتحتسب، ونحنُ رأينا السيدة زينب لم تطلب الطّلاق.. كذلك فزيد بن حارثة وزوجتُه زينب بنت جحش لم يرزقَا بأبناء، وكثيرٌ من الزيجات التي تمّت عن غير رضى نفسيّ من أحد الطّرفين قد تُوّجت بأبناء وبنات، فعلى الطّرفين أن يحافظا على أسرتهما من التفكّك والضياع.

زواجُ النّبي- عليه السلام- من زينب:

طلّق زيد بن حارثة السيدةَ زينب بنت جحش، وانقضتْ عدّتها، وقد علم الله مِن قلبها أنّها لم تظلم زيدًا، فأكرمها برسوله محمّدٍ ﷺ، ففي خبر تزْويجها عند ابن سعد من طريق الواقدي بسندٍ مرسل: «فَبَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ جَالِسٌ يَتَحَدَّثُ مَعَ عَائِشَةَ إِلَى أَنْ أَخَذَتْ رَسُولَ اللَّهِ غَشْيَةٌ فَسُرِّيَ عَنْهُ وَهُوَ يَتَبَسَّمُ وَهُوَ يَقُولُ: مَنْ يَذْهَبُ إِلَى زَيْنَبَ يُبَشِّرُهَا أَنَّ اللَّهَ قَدْ زَوَّجَنِيهَا مِنَ السّماء؟ وتلا رسولُ الله ﷺ: «وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا»[1] [الأحزاب: ٣٧].

وهذه الآيةُ الكريمة اختصرتْ ما حاولتُ أن أدور وأناورَ في كتابته، فالذي كان يُخفيه رسول الله في نفسه هو تبيّنه أنّ زواج زينب

(١) نفسه، ص ٨١ ؛ ابن حجر: الإصابة، حـ ٨، ص ١٥٣.

من زيد سوف ينهار، ومع ذلك هو يقول لزيد: أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ. والذي كان يُخفيه في نفسه معرفته أنّ ما هو كائنٌ بين زينب وزيد سوف يكون، وأنّ الله أعلمه أنّ زينب ستكونُ من أزواجه قبل أن يتزوّجها[1]، ولكنّ النّبي- ﷺ- تمهّل حتّى يقضيَ الله أمره.

ولقد كان لزواجِ رسول الله- ﷺ- من السيّدة زينب عدّة مقاصد شرعية يأتي على رأسها إبطال التبنّي، يقول ربّي عزّ وجلّ: «مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا» [الأحزاب: ٤٠] ويقول: «ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ» [الأحزاب: ٥]. فقد كان في ابتداء الإسلام يجوز ادّعاء الأبناء الأجانب، وهُم الأدْعياء، وقد كانوا يعاملونهم معاملةَ الأبناء من كلّ وجه؛ فأمر الله تعالى برَدّ نسبهم إلى آبائهم في الحقيقة، وأعلم أنّ هذا هو العدل والقسط[2].

وجاء إبطالُ التبنّي بشكلِه المعروف حينذاك بطريقة عمليّة، وذلك بزواج النّبي- ﷺ- من مطلّقة متبنّاه زيد بن حارثة، فلمّا أنزلت الآياتُ السّابقات، وطبّقت بشكلٍ عملي بزواج النّبي من السّيدة زينب بنت جحش؛ دعيَ مِن يومئذٍ زيد «بزيد بْن حارثة»، وَكَانَ يدْعى زيد بْن مُحَمَّد.

---

(١) انظر: ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، حـ ٣، ص ٤٦١.

(٢) نفسه، ص ٤٣٨.

فنرى ممّا تقدّم أنّ زواج السيّدة زينب من سيدنا زيد رضي الله عنهما، ثمّ انفصالهما، ثمّ زواج النّبي -ﷺ- من زينب، نرى أنّ ذلك كلّه كان لمقصدٍ من مقاصد الشّرع، وقد ترتّب عليه نتائج هامّة بالنسبة للمجتمع المسلم.

ولمّا كان الموضوع برُمّته له مقاصدُ شرعية، لم يتقدّم رسول الله ﷺ من تلقاءِ نفسه لخطبة زينب والزّواج منها بعد انقضاء عدّتها؛ وإنّما زوّجه إيّاها الله- عزّ وجلّ- من فوق سبع سماوات في قرآنٍ يتلى آناء الليل وأطراف النهار.

ولقد كانتِ السّيدة زينب تفخرُ على نساء النبي -ﷺ- بذلك وتقول: «زوّجني الله من السّماء»[1]؛ فرضَي الله عنها من امرأةٍ كريمة طيبة.

ولقد تَزَوَّجَ رَسُولُ اللَّهِ- صلّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلّم- زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ لِهِلالِ ذِي الْقَعْدَةِ سَنَةَ خَمْسٍ مِنَ الْهِجْرَةِ وَهِيَ يَوْمَئِذٍ بِنْتُ خَمْسٍ وَثَلاثِينَ سَنَةً على ما أورد ابن سعد[2].

إنسانيّاتٌ عالية:

أسندَ ابنُ سعد- وغيره- روايةً عن أنس بن مالك جاء فيها: «لَمَّا انْقَضَتْ عِدَّةُ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ- صلّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلّم-

(١) ابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصحابة، حـ٧، ص ١١٩.

(٢) الطبقات الكبرى، حـ٨، ص ٩٠.

لِزَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ: مَا أَجِدُ أَحَدًا آمَنَ عِنْدِي أَوْ أَوْثَقَ فِي نَفْسِي مِنْكَ. ائْتِ إِلَى زَيْنَبَ فَاخْطُبْهَا عَلَيَّ. قَالَ: فَانْطَلَقَ زَيْدٌ فَأَتَاهَا وَهِيَ تُخَمِّرُ عَجِينَهَا. فَلَمَّا رَأَيْتُهَا [يقول زيد] عَظُمَتْ فِي صَدْرِي فَلَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَنْظُرَ إِلَيْهَا حِينَ عَرَفْتُ أَنَّ رَسُولَ اللهَّ قَدْ ذَكَرَهَا. فَوَلَّيْتُهَا ظَهْرِي وَنَكَصْتُ عَلَى عَقِبِي وَقُلْتُ: يَا زَيْنَبُ أَبْشِرِي. إِنَّ رَسُولَ اللهَّ يَذْكُرُكِ. قَالَتْ: مَا أَنَا بِصَانِعَةٍ شَيْئًا حَتَّى أُؤَامِرَ رَبِّي. فَقَامَتْ إِلَى مَسْجِدِهَا. وَنَزَلَ الْقُرْآنُ: «فَلَمَّا قَضى زَيْدٌ مِنْها وَطَرًا زَوَّجْناكَها» الأحزاب: ٣٧»[١].

وهذا النصّ إنْ صحّ فإنّه يدلّ في دلالةٍ واضحة أنّنا ها هنا، ونحن نحاول أن نكتبَ تاريخ أمّهات المؤمنين؛ إنّما نحن أمامَ ملحمة كونيّة، بطلُها محمّد رسول الله وصحابته الكرام؛ فرسول الله وهو يعلم مدى حبّ زيد بن حارثة له لا يتردّد في إرساله لزينب خاطبًا أو مبشّرًا، وزيد لا يتردّد في تلبية أمر رسول الله- ﷺ- بكلّ سرور، ثمّ هو على ما كان بينه وبين زينب من خلاف، تزداد زينب قيمةً في نظره، وتعظمُ في عينه؛ لأنّ رسول الله ذكرها، فتحوّلت عنده من مطلّقته بالأمس إلى أمّ من أمّهات المؤمنين، ولو سحبنا هذا الموقف على أيّ عصرٍ من العصور، وعلى أيّ من رجالاته؛ لن نجدَ لمثل هذا الموقف- وما به من إنسانيات- مثيلًا ولو قريبًا!!

(١) نفسه، ص ٨٢؛ ابن عبد البر: الاستيعاب، حـ ٤، ص ١٨٥١.

بركةُ السيّدة زينب على المسلمين:

كانت السيدةُ زينب عظيمةَ البركة على المسلمين، وللصّحابي الجليل أنس بن مالك رواية رائعةٌ في هذا الباب؛ فقد أسندَ ابنُ سعد من حديث أنس بن مالك- رضي الله عنه- أنّه قال: «لَمَّا تَزَوَّجَ رَسُولُ اللَّهِ- صلّى اللهُ عَلَيْهِ وسلّم- زينب بنت جَحْشٍ وَكَانَتْ تَحْتَ مَوْلاهُ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ قَالَتْ أمّ سُلَيْمٍ: يَا أَنَسُ إِنَّ رَسُولَ اللهِ أَصْبَحَ الْيَوْمَ عَرُوسًا وَمَا أَرَى عِنْدَهُ مِنْ غَدَاءٍ. فَهَلُمَّ تِلْكَ الْعُكَّةَ. فَنَاوَلْتُهَا فَعَمِلْتُ لَهُ حَيْسًا مِنْ عَجْوَةٍ فِي تَوْرٍ مِنْ فَخَارٍ قَدْرَ مَا يَكْفِيهِ وَصَاحِبَتَهُ وَقَالَتْ: اذْهَبْ بِهِ إِلَيْهِ. فَدَخَلْتُ عَلَيْهِ وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ تَنْزِلَ آيَةُ الْحِجَابِ. فَقَالَ: ضَعْهُ. فَوَضَعْتُهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِدَارِ. فَقَالَ لِي: ادْعُ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ وَعَلِيًّا. وَذَكَرَ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِهِ سَمَّاهُمْ. فَجَعَلْتُ أَعْجَبُ مِنْ كَثْرَةِ مَنْ أَمَرَنِي أَنْ أَدْعُوَهُ وَقِلَّةِ الطَّعَامِ. إِنَّمَا هُوَ طَعَامٌ يَسِيرٌ وَكَرِهْتُ أَنْ أَعْصِيَهُ. فَدَعَوْتُهُمْ فَقَالَ: انْظُرْ مَنْ كَانَ فِي الْمَسْجِدِ فَادْعُهُ. فَجَعَلْتُ آتِي الرَّجُلَ وَهُوَ يُصَلِّي أَوْ هُوَ نَائِمٌ فَأَقُولُ: أَجِبْ رَسُولَ اللهِ فَإِنَّهُ أَصْبَحَ الْيَوْمَ عَرُوسًا. حَتَّى امْتَلأَ الْبَيْتُ. فَقَالَ لِي: هَلْ بَقِيَ فِي الْمَسْجِدِ أَحَدٌ؟ قُلْتُ: لا. قَالَ: فَانْظُرْ مَنْ كَانَ فِي الطَّرِيقِ فَادْعُهُمْ. قَالَ: فَدَعَوْتُ حَتَّى امْتَلأَتِ الْحُجْرَةُ. فَقَالَ: هَلْ بَقِيَ مِنْ أَحَدٍ؟ قُلْتُ: لا يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: هَلُمَّ التَّوْرَ. فَوَضَعْتُهُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَوَضَعَ أَصَابِعَهُ الثَّلاثَ فِيهِ وَغَمَزَهُ وَقَالَ لِلنَّاسِ: كُلُوا بِسْمِ اللَّهِ.

فَجَعَلْتُ أَنْظُرُ إِلَى التَّمرِ يَرْبُو أَوْ إِلَى السَّمْنِ كَأَنَّهُ عُيُونٌ تَنْبُعُ حَتَّى أَكَلَ كلّ مَنْ فِي الْبَيْتِ وَمَنْ فِي الْحُجْرَةِ وَبَقِيَ فِي التَّوْرِ قَدْرُ مَا جِئْتُ بِهِ. فَوَضَعْتُهُ عِنْدَ زَوْجَتِهِ ثمّ خَرَجْتُ إِلَى أُمِّي لأُعْجِبَهَا مِمَّا رَأَيْتُ. فَقَالَتْ: لا تَعْجَبْ. لَوْ شَاءَ اللهُ أَنْ يَأْكُلَ مِنْهُ أَهْلُ الْمَدِينَةِ كُلُّهُمْ لأَكَلُوا»[1].

ولا أجدُ من تعليقٍ على هذا الخبر أفضلَ وأدلّ من قول أمّ أنس الذي أردّده وراءها بكلّ فخر: لَوْ شَاءَ اللهُ أَنْ يَأْكُلَ مِنْهُ أَهْلُ الْمَدِينَةِ كُلُّهُمْ لأَكَلُوا.

وليمةُ الزّواج:

أخرجَ البخاريّ من حديث أنس قال: «ما رأيتُ النبي - ﷺ - أَوْلَم على أحدٍ من نسائه ما أولمَ عليها [أي زينب بنت جحش] أولم بشاة»[2] ولعلّ ذلك كان شكرًا لله على ما أنعمَ به عليه من تزْويجه إيّاها بالوحي. ولقد بارك الله في هذه الوليمة؛ فأشبع المسلمين خبزًا ولحمًا من وليمة رسول الله ﷺ.

الحجاب:

ومِن بركتها- رضي الله عنها- نزولُ آية الحجاب، يقول ابنُ سعد- رحمه الله-: «أَخْبَرَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ حَرْبٍ. أَخْبَرَنَا حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ عَنْ

---

(١) الطبقات الكبرى، حـ ٨، ص ٨٢: ٨٣.

(٢) صحيح البخارى (حديث رقم ٥١٧١).

أَيُّوبَ عَنْ أَبِي قِلابَةَ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: أَنَا أَعْلَمُ النَّاسِ بِهَذِهِ الآيَةِ آيَةِ الْحِجَابِ. لَمَّا أُهْدِيَتْ زَيْنَبُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ- صلّى اللهُ عَلَيْهِ وسلّم- صنع طعامًا، ودعا القومَ فجاؤوا وَدَخَلُوا. وَزَيْنَبُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ- صلّى اللهُ عَلَيْهِ وسلّم- فِي الْبَيْتِ. فَجَعَلُوا يَتَحَدَّثُونَ. فَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ يَخْرُجُ ثمّ يَرْجِعُ وَهُمْ قعود. قال: فنزلت: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلى طَعامٍ غَيْرَ ناظِرِينَ إِناهُ وَلكِنْ إِذا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلاَ مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذلِكُمْ كانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ. وَإِذا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتاعًا فَسْئَلُوهُنَّ مِنْ وَراءِ حِجابٍ» [الأحزاب: ٥٣]. فَقَامَ الْقَوْمُ وَضُرِبَ الْحِجَابُ»[١].

وهذا الذي أورده المؤرّخ ابنُ سعد أورده البخاري ومسلم- وغيرهما- بألفاظ متقاربة، وذكرتْهُ كتبُ التّفاسير مثل القرطبي وابن كثير، والغاية: أنّ ضربَ الحجاب على زوْجات رسول الله- ﷺ- كان مطلبًا لبعض الصّحابة كعمر بن الخطاب- رضي الله عنه- الذي كان يخشى على زوجاتِ رسول الله- ﷺ- من أعين الأشرار، فيقول لرسول الله: «إنّ نساءك يدخل عليهنّ البرّ والفاجر، فلو حجبتهنّ؟ فأنزل الله آيةَ الحجاب ببركة السيدة زينب بنت جحش- رضي الله عنها-.

---

(١) الطبقات الكبرى، حـ ٨، ص ٨٣: ٨٤.

فضلُ السّيدة زينب:

لا أجد- والله- بعد ما قدّمت كلماتٍ أصفُ بها فضلَ السيدة زينب بنت جحش رضي الله عنها؛ فيكفيها فضل أنّ الذي زوّجها لنبيّه من فوق سبع سماوات إنّما هو ربّ العالمين، لكنْ لو أحببنا أن نذكرَ بعض فضائلها، نجد أنّ النّبي- ﷺ- سمّاها أوّاهة، فقد أورد الذّهبي خبرًا جاءَ فيه «أنّ رسول الله قال لعمر: إنّ زينب بنت جحش أوّاهة. قيل: يا رسول الله، ما الأوّاهة؟ قال: الخاشعة، المتضرّعة..»[1] وإنْ كان إسنادُه ضعيفًا، فقد جاء في الصّحيح من حديث عائشة أنّها قالت في حقّ السيّدة زينب بنت جحش: «وهي التي كانت تُساميني منهنّ [أي من نساء النّبي] في المنزلةِ عند رسولِ الله صلّى اللهُ عليهِ وسلّم. ولم أرَ امرأةً قطّ خيرًا في الدِّينِ من زينبَ، وأتْقَى لله، وأصدقَ حديثًا، وأوصلَ للرحمِ، وأعظمَ صدقةً، وأشدَّ ابتذالًا لنفسها في العملِ الذي تصدق به، وتقرّب به إلى الله تعالى»[2]. وقد وصفتها السيدة أمّ سلمة بأنّها «صالحة صوّامة قوّامة»[3]. وأراني بعد شهادة السيدة عائشة وأمّ سلمة قد أضفتُ بريقًا إلى بريق، وسناءً إلى سناء؛ فرضيَ الله عن زوْجات رسول الله- ﷺ- اللّاتي لم يمنعهنّ ما كان بينهنّ من غيرة من أنْ يصدعنَ بالحَقّ.

---

(١) سير أعلام النبلاء، حـ ٢، ص ٢١٧.

(٢) صحيح مسلم، حـ ١٥، ص ٢٩٠٣ (حديث رقم ٢٤٤٢).

(٣) ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة، حـ ٨، ص ١٥٤.

مؤسّسة زينب بنت جحش الخيرية:

ماتَ رسول الله- ﷺ- سنة ١١ هجريًّا، وترك من بعده أمّ المؤمنين زينب بنت جحش التي آثرتِ الإقامة في بيتها زاهدةً متقلّلة من الدّنيا[١]، جاعلةً من دارها مؤسسة خيريةً ترعَى الفقراء والمساكين واليتامى؛ حيث:

١ – كانت تعمل بيدِها في بعض الحرف إذْ كانت «امرأة صناع اليدين»، أي تُجيد بعض الصّناعات اليدوية «فَكَانَتْ تَدْبَغُ وَتُخَرِّز»؛ وما يأتيها من خيرٍ من وراء ذلك تتصدّق به على المساكين وأصحاب الحاجة[٢].

ولعلّ فعلَ السيّدة زينب، هذا الفعلُ النّبيل المؤثّر القدوة، دفع نساءَ الصّحابة وغيرهنّ في مجتمعِ المدينة إلى شراء مثل هذه الصّناعات البسيطة منها وبأثمانٍ عالية من أجل إعانتها في مشروعِها الخيري الذي تقصد به وجهَ الله، ولعلّ بعضهنّ قلّدها في سلوكها الرّاقي هذا.

٢- ولقد ترتّب على تصدّق السيدة زينب على أهلِ الحاجة، وتفريغها وقتَها للعمل على خدمة الآخرين أنْ صارت مفزعَ اليتامى والأرامل؛ فمَن احتاج لشيء وجدَه عندها، تقول السيدة عائشة-

---

(١) ابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصحابة، حـ٧، ١١٩.

(٢) انظر: ابن سعد: الطبقات الكبرى، حـ ٨، ص ٨٦؛ ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة، حـ٨، ص١٥٤؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، حـ٢، ص ٢١٧.

رضي الله عنها- عن السيّدة زينب حينما وصلها خبرُ وفاتها: «لقد ذهبت حميدةً متعبّدة مفزعَ اليتامى والأرامل»[١].

٣- وحينما فتحَ الله على المسلمين في عهد الفاروق عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- وخصّص عطاءاتٍ للمسلمين، واختصّ أمّهات المؤمنين بالمال الوفير، وجاءت عطية السيدة زينب؛ فإذا بها تنظرُ إليها في كبرياء النّجوم، وارتقاء الأتقياء، وتوزّعها جميعًا في مستحقّيها من الفقراء والمساكين وأصحاب الحاجات؛ لتنظرَ للدّنيا بكبرياء الملائكة، وتقول لها: «غرّي غيري يا مسكينة»؛ ولتؤكّد يقينًا أنّها مؤسّسة خيرية متكاملة تبتغي الأجرَ والثّواب عند الله عزّ وجلّ.

أسندَ ابنُ سعد- رحمه الله- عَنْ بَرْزَةَ بِنْتِ رَافِعٍ أنها قَالَتْ: «لَمَّا خَرَجَ الْعَطَاءُ أَرْسَلَ عُمَرُ إِلَى زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ بِالَّذِي لَهَا. فَلَمَّا أُدْخِلَ عَلَيْهَا قَالَتْ: غَفَرَ اللهُ لِعُمَرَ. غَيْرِي مِنْ أَخَوَاتِي كَانَ أَقْوَى عَلَى قَسْمِ هَذَا مِنِّي. قَالُوا: هَذَا كُلُّهُ لَكِ. قَالَتْ: سُبْحَانَ اللهِ! وَاسْتَتَرَتْ مِنْهُ بِثَوْبٍ وَقَالَتْ: صُبُّوهُ وَاطْرَحُوا عَلَيْهِ ثَوْبًا. ثمّ قَالَتْ لِي: أَدْخِلِي يَدَكِ فَاقْبِضِي مِنْهُ قَبْضَةً فَاذْهَبِي بِهَا إِلَى بَنِي فُلانٍ وَبَنِي فُلانٍ. مِنْ أَهْلِ رَحِمِهَا وَأَيْتَامِهَا.

حَتَّى بَقِيَتْ بَقِيَّةٌ تَحْتَ الثَّوْبِ. فَقَالَتْ لَهَا بَرْزَةُ بِنْتُ رَافِعٍ: غَفَرَ اللهُ لَكِ يَا أمّ الْمُؤْمِنِينَ! وَاللهِ لَقَدْ كَانَ لَنَا فِي هَذَا حَقٌّ. فَقَالَتْ: فَلَكُمْ مَا تَحْتَ

---

(١) ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة، حـ٨، ص١٥٥.

الثَّوْبِ. فَوَجَدْنَا تَحْتَهُ خَمْسَةً وَثَمَانِينَ دِرْهَمًا. ثم رَفَعَتْ يَدَهَا إِلَى السَّمَاءِ فَقَالَتِ: اللَّهُمَّ لا يُدْرِكُنِي عَطَاءٌ لِعُمَرَ بَعْدَ عَامِي هَذَا»[1].

ووالله إنّ القلم ليعجزُ عن وصفِ هذا المشهدِ الرّائع، وإنّ القلب ليرسل بالسّلام والتحية إلى ذلك الجسدِ الطيّب الرّاقد في البقيع، جسدِ أمّ المؤمنين ملجأ اليتامى والأرامل والمساكين.

لكن، انظرْ معي لجمال هذا التعبير، «وَاسْتَتَرَتْ مِنْهُ بِثَوْبٍ» الذي يختصر القول، ويبرز المعنى بوضوحٍ واضح؛ ويجعلُ المسلم يزدادُ شوقًا للاقتداء برسول الله ﷺ وبمَن أحاط به من أعلام، فالسيدة زينب ترى أنّ المال فتنة، وأنَّ للفقراءِ فيه حقًّا، فاسْتَتَرَتْ مِنْهُ بِثَوْبٍ، إلى أن فرّقته في سبيل الله.

٤- وحينما جاءها مرضُ الموت أبتْ هذه المؤسّسةُ الخيرية إلّا أنْ تستمرّ في عملها حيّة وميتة؛ فقد قالت حين حضرتْها الوفاة: «إنّي قد أعددت كفني؛ فإنْ بعث لي عمرُ بكفنٍ، فتصدّقوا بأحدهما؛ وإنِ استطعتم إذْ أدليتموني أن تصدّقوا بحقوتي، فافعلوا»[2].

---

(١) الطبقات الكبرى، حـ ٨، ص ٨٦: ٨٧.

(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء، حـ ٢، ص ٢١٧.

مشروعٌ واقتراحٌ للمرأة المسلمة:

أختي المسلمة، ها هو مشروعٌ عظيمُ النّفع ساقه الله إليكِ من غير تقديرٍ منك ولا تدبير، إنه مشروعُ مؤسّسة «زينب بنت جحش» الخيرية؛ فادرسيه جيدًا، وافْعليه مع أخواتك المسلمات، فالله اللهَ في تعلّم حرفةٍ يدوية وإتقانها، وعملُك فيها من خلال بيتك، ومشاركة نساء آخريات نفس الفكرة في بيوتهنّ، ثمّ جمع هذا الإنتاج بشكل دوريّ، وعمل معرض صغير في بيت إحداكنّ، وبيع هذا الإنتاج، وإنفاق ما يدرّ من مال في حاجات المسلمين على اختلاف هذه الحاجات، فهناك أهلُ الحاجة من أيتامٍ وفقراء ومساكين وأرامل، وهناك فتياتٌ لا يجدن مَن يجهّزهنّ، وهناك مرضى بسطاء لا يجدون ثمنَ الدّواء، فأبوابُ الخير كثيرة، ومشروع السيدة زينب جديرٌ بأن يفعَل.

وتفعيلُ هذا المشروع ليس حكرًا على الأفراد، رجالًا كانوا أو نساء، فبإمكانِ المؤسّسات الخيريّة- المدنية والرسمية- تبنّي هذا المشروع، وعمل إطار عامّ له، وتفعيله على نطاق كبير لخدمة المجتمع والارتقاء ببلادنا، والإفادة من أيادٍ عاملة متصدّقة نحن غافلونَ عنها.

زينبُ والرّواية عن رسول الله:

لم تكتفِ السيدة زينب بالعبادة والزّهد في الدّنيا ورعاية الفقراء واليتامى، فقد روتْ عن رسول الله- ﷺ- عددًا من الأحاديث، وبلّغت عنه العلم،

فقد ذكر الذّهبي- رحمه الله- ما نصّه «وحديثها في الكتب الستة»[١]، وذكر في موضعٍ آخر «ولزينب أحد عشر حديثًا، اتّفقا لها على حديثين»[٢].

وقد روى عنها: ابن أخيها محمد بن عبد الله بن جحش، وأمّ المؤمنين أمّ حبيبة، وزينب بنت أبي سلمة، وأرسل عنها القاسم بن محمد»[٣].

وفاتُها رضي الله عنها:

بشّر رسول الله- ﷺ- زوجاته بأنّ أسرعهنّ لحاقًا به أطولهنّ يدًا، وظنّت زوجاتُ النّبي- ﷺ- أنّه قصد طول اليد الحقيقية، فلمّا ماتت السيدة زينب بنت جحش كانت أوّلَ مَن لحق برسول الله مِن زوجاته، وكانت قصيرة؛ فعرفنَ أنّ النبي- ﷺ- قصدَ بطول اليد، طولَ اليد في الصّدقة وفعلِ الخير[٤]، وهذه كما قال الإمام النّووي- رحمه الله-: «معجزةٌ باهرة لرسول الله- ﷺ-، ومنقبة ظاهرة لزينب- رضي الله عنها-»[٥] وهذا يؤكّد ما ذهبنا إليه من أنهّا «كانت مؤسّسة خيرية» بما تعنيه هذه الكلمات، وبأكثر ممّا تعنيه لو أحببت.

---

(١) سير أعلام النبلاء، حـ ٢، ص ٢١٢.

(٢) نفسه، ص ٢١٨.

(٣) نفسه، ص ٢١٢.

(٤) انظر: صحيح مسلم، حـ ١٦، ص ٢٩٢٧ (حديث رقم ٢٤٥٢)؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، حـ ٢، ص ٢١٦.

(٥) صحيح مسلم بشرح النووي، حـ ١٦، ص ٢٩٢٧.

ولقد كانت السيدةُ زينب تستشعرُ هذا المعنى الذي بشّرها به رسول الله؛ لذلك حينما فُتحت عليها الدّنيا، وجاءها عطاءُ عمر بن الخطاب الوفير؛ فرّقته في سبيل الله، وخشيتْ على نفسها من فتنة المال، واستعجلتْ بشارة رسول الله، ورجتْ أن تكون هي التي قصدها في حديثه، فقالت: «اللَّهُمَّ لا يُدْرِكُنِي عَطَاءٌ لِعُمَرَ بَعْدَ عَامِي هَذَا»، فماتت- رضي الله عنها- ولم يدركها عطاءُ عمر مرّة أخرى.

وفي مرض موتها، كانت وصيّتها التي قدّمناها: «إنّي قد أعددت كفني؛ فإنْ بعث لي عمر بكفن، فتصدّقوا بأحدهما، وإنِ استطعتم إذ أدْليتموني أن تصدقوا بحقوتي، فافعلوا»، فحتّى إزارها طلبتْ أن يتصدّقوا به إن استطاعوا!؛ لذلك يذكر الرّواة أنّها لما ماتت «مَا تَرَكَتْ.. دِرْهَمًا وَلا دِينَارًا. كَانَتْ تَصَدَّقُ بِكُلِّ مَا قَدَرَتْ عَلَيْهِ»[١]

وقد توفّيت- رضي الله عنها- سنة عشرين للهجرة، وهي بنت خمسين، وقيل ثلاث وخمسين[٢]. وقد صلىّ عليها الفاروقُ عمر بن الخطاب، رضي الله عنه[٣]، ودفنت بالبقيع[٤].

---

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى، حـ ٨، ص ٩٠.

(٢) ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة، حـ ٨، ص ١٥٥.

(٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء، حـ ٢، ٢١٢.

(٤) ابن سعد: الطبقات الكبرى، حـ ٨، ص ٨٩.



٨- المجاهدة
أمّ حبيبة بنت أبي سفيان
رضي الله عنها

مفتاحُ شخصيّتها:

ونحن نتحدّث عن السيدة أمّ حبيبة- رضي الله عنها- نجدُ أننا أمام طاقةٍ إيمانية عالية زُرعت في وجدانها فأخرجتها مجاهدةً صابرة محتسبة، ونجد- وبكلّ وضوح- مفتاحَ شخصيّتها قد صيغَ من هذه القوّة الإيمانية، فأفصح عن نفسه، فإذا هو: ميلٌ للحقّ، ومعاداة للباطل، وبذل الغالي والنّفيس من أجل الحقّ وأهله، وهذا الميل للحقّ أكسبها جلدًا، وقدرة على التحمل، جعلتْها قدوة للمسلمين في هذا الباب.

كلمةٌ قبل البداية:

جميلٌ هو الإسلام، وجميلٌ كلّ ما ينتمي إليه؛ فكلّما مضينا قدُمًا في هذا البستان الطيّب، بستان أمّهات المؤمنين، وجدنا ما يزيدُ هذا المعنى جلاءً، وردّدنا بصوتٍ هامس: «جميل هو الإسلام، وجميل كلّ

ما ينتمي إليه». والسيدة أمّ حبيبة جميلةٌ في أفعالها، معبّرة عن الإسلام تعبيرَ الابنة البارّة المفصحة عن جوهر هذا الدّين العظيم، المؤكّدة أنّ العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، فأبوها- قبل أن يسلم- كان زعيمَ المشركين، المطاعَ في ضلاله، المسلطَ على عباد الله المسلمين الأوائل، الباطشَ بالعبيد والإماء ممّن أسلم مع رسول الله، المدبّرَ للقضاء على الإسلام ودعوته. وعلى الرّغم من هذه السّطوة وهذا الجبروت يأسرُ الإسلامُ قلبَ رملة بنت أبي سفيان، فتسلم لله- عزّ وجلّ- ولا تخشى في الله لومةَ لائم، تسلم معلنةً أنّها بنت الإسلام والإسلام فقط، وتهونُ في عينيها غربة الدّنيا وتهاجر بدينها للحبشة محتسبةً صابرة مجاهدة، فتعالوا نقتربُ من بنت الإسلام، جميلةِ الفِعال، نقتبسُ من ضيائها ضياءً ننير به الطريق للأمة في ليلها الطويل الذي تحياه، عسى الله أن يجعل لها من عُسْرها يسرًا، ويبدّلها من ليلها نهارًا تعود فيه إلى ربّها، فيعفو عنها؛ فتعود عزيزةً كريمة، عارفةً بخالقها، مفصحة عن هويّتها الحقّ، حاملةً مشعلَ النور والأمل للإنسانية.

بطاقةُ حياة:

- هي رملة بِنْت أبي سُفْيَان بْن حرب بْن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي القرشية الأموية.

- تكنى أمّ حبيبة، وهي بها أشهرُ من اسمها.

- وأمّها صفية بنت أبي العاص بْن أمية بْن عَبْد شمس، عمّة عثمان بن عفان.

- ولدَتْ قبل البعثة بسبعة عشر عامًا[١]

- وهي من بنات عمّ الرسول، ﷺ، ليس في أزواجه مَن هي أقرب نسبًا إليه منها، ولا في نسائه مَن هي أكثرُ صداقًا منها، ولا مَن تزوّج بها وهي نائية الدّار أبعد منها.[٢]

إسلامُها ورسالتُها للأمّة:

حينما يأتي الخير، وتتيقّنه الأنفس الطيبة، تحرصُ عليه، وتنتمي لأهله مهْما كانت العقبات والصّعاب، وهذا ما ينسحبُ على السيدة رملة، رضي الله عنها، فهي- كما أسلفنا آنفًا- ابنة زعيم قريش أبي سفيان، ذلك المُعادي- آنذاك- للإسلام عن حماسةٍ منقطعة النظير، شأنه شأنَ سادات مكّة الذين تمتّعوا بالثروة والسّلطان، وخشوا أنْ يسلبهم الإسلام ذلك جميعًا فعادوه، وحرصوا على وأدِه في مهده. وبهذه الخلفيّة كان يصعب على السيدة رملة بنت أبي سفيان أن تسلم وتعتنق الدّين الجديد؛ ذلك لو كانت كأيّ سيّدة منزوعة الإرادة، مشوّشة الفكر، لم ترزق الهدى- فالهدى رزق-، لكنّها لم تكنْ كأيّ

(١) ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة، حـ٨، ص ١٤٠.

(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء، حـ ٢، ص ٢١٨.

سيدة، بل هي طراز فريدٌ تعتزّ الأمّة وتفتخر به، فهي قد رأت الحقّ حقًّا، والباطل باطلًا، فاعتنقتِ الحقّ ومالت إليه، وعادت الباطل وإن كان أبوها سيدَه وسلطانَه، ووضعت الدنيا تحت أقدامها، واختارت رضوانَ الله عزّ وجلّ؛ ذلك أنها عرفت معنى «لا إله إلّا الله، محمّد رسول الله» فأسلمتْ لله ربّ العالمين عن قناعة ورضى، فهي «قديمة الإسلام» إذ «أسلمت قديمًا بمكّة»(١).

ولا شكّ أنّ إسلامها حملَ معنًى من معاني التّضحية، فهي المُقربة من أبيها، بنت سيد قريش، سوف تصبح بإسلامها، المُبعدة عن أبيها، المهجورة من أهلها، الفاقدة لمكانتها من السّيادة المزعومة!! لكن كلّ ذلك لم تأهبْ به السّيدة رملة، فهي تعلم أنّ المذموم مَن ذمّه الله، وأنّ المحمود مَن حمده الله، وتعلم أنّ الناس أصحابُ قبور لا حولَ لهم ولا قوّة، وتعلم أنّ الغاية هي الله، وقد عرفتْه، فهانتْ عليها الدنيا وما فيها، فانتمتْ بكلّ جوارحها إلى أمّة التوحيد.

والأمّة الآن وهي محاطةٌ بالأعداء من كلّ مكان، تعصفُ بها الفتن، عليها أن تستفيد من يقين السّيدة رملة، فما ضربت الأمّة المحن والملمّات إلّا لأنّ جزءًا كبيرًا من أبنائها منزوع الإرادة، مشوّش الفكر، لم يفهمْ معنى لا إله إلّا الله كما فهمتْه هذه الطيّبة الكريمة، ولم يصلح ما

---

(١) ابن الأثير: أسد الغابة ،جـ ٧، ص ١١٦.

بينه وبين ربّه فيرزقه الهدى. وعليه فإنَّ الأمّة عليها الآن- إنْ أرادت النّجاح والفلاح- أن ترى الأمورَ بشكلٍ أوضح كما رأتْها السّيدة رملة، فتعلم أنّه «لا إله إلّا الله»، وتعلم أنّها أمّة التّوحيد، صاحبة الدّين الخاتم، صاحبة حضارة القمّة والرقيّ؛ فلتنبذ الفرقة وتتّحد على كلمة سواء، ولتطبق جوهرَ الإسلام الدّاعي للعمل وقيادة البشرية لكلّ خير، ولتسفر عن وجه الإسلام الحقّ، وتختار- كما اختارت السيدة رملة- بين الحقّ والباطل، وتتحمّس للحقّ، وتعادي الباطل؛ حتى تشرقَ الأرض بنور ربها.

زواجُها وهجرتُها للحبشة:

وقد تزوّجت السيدة رملة بنت أبي سفيان من عبيد اللهَّ بن جحش بن رئاب بن يعمر الأسدي، من بني أسد بن خزيمة، ويبدو أنّ ذلك كان قبل أن تسلم بقليل؛ فأسلم الزّوجان، ثمّ هاجرا إلى الحبشة، يُقال في الهجرة الثّانية، وهناك رزقتْ بطفلةٍ أسمّتها حبيبة؛ فبها كانت تكنّى[(١)]. وهي بهجرتها للحبشة، وتركها لبلدها مكّة، وتغرّبها في سبيل الله لا زالت تضرب المثل الطيّب لكلّ مثابر صبورٍ في سبيل دينه، وهي مازالت تسير على الأشواك في سبيل الله تبارك وتعالى. ولك أن تعلم

(١) ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة، حـ ٨، ص ١٤٠؛ ابن سعد: الطبقات، حـ ٨، ص ٧٦.

أنّها حينما هاجرت من مكّة للحبشة- هذه الهجرة الطويلة- كانت حاملًا في ابنتها حبيبة[1]، فتخيّل معي كمّ المشقة التي لاقاها أصحابُ النّبي ﷺ، وتأمّل عظمة هذا الجيل الفريد.

وبشّر الصّابرين:

وهناك في أرض الحبشة، وبعد فترةٍ طالتْ أو قصرت من هجرتها- لا نعلم على وجه الدقّة-، تعرّضت السيدة أمّ حبيبة لبلاءٍ شديد، فالزّوج الذي هاجرت معه، لم يعدْ هو الزّوج الذي تعرفه، فقد فتنَ في دينه، وتنصّر في الحبشة وترك الإسلام[2]؛ لتعاني هذه المسكينة غربةً عامّة حينما تغرّبت عن بلدها وموطنها مكّة، وغربة خاصّة في بيتها مع زوج أكبّ على شرب الخمر، وخرج عن دينه وتنكّر له، بل حاول أن يفتنَ زوجته، لكنّه لم يستطع إلى ذلك سبيلًا.

ومسألة ارتدادِ عبيد الله بن جحش تحتاجُ منّا لوقفة قصيرة، فالرجلُ كما تروي كتبُ السير كان على النّصرانية قبل الإسلام[3]، فلمّا جاء الإسلام اعتنقه وتحمّس له، وهاجر مع من هاجر إلى الحبشة، وإلى هنا والأمورُ تسير في مجراها الطّبيعي، ويا ليته ثبت! لكنْ بعد فترة من

(١) نفسه.

(٢) نفسه، ص ٧٧؛ ابن عبد البر: الاستعاب حـ ٤، ص ١٨٤٤؛ ابن حجر: الإصابة، حـ ٨، ص ١٤٠؛ ابن الأثير: أسد الغابة، حـ٧، ص ١١٦؛ الذهبى، حـ ٢، ٢٢٠.

(٣) ابن سعد، حـ ٨، ص ٧٧؛ الذهبي، حـ ٢، ٢٢١.

هجرته للحبشة وقد غلبتْ عليها النّصرانية، بدأ الرجلُ في النّظر في أمره، ثمّ اتّخذ قرارًا بالعودة إلى النّصرانية، وقال لزوجتِه أمّ حبيبة حينما عابتْ عليه تغيّر حاله: «يَا أمّ حَبِيبَةَ إِنِّي نَظَرْتُ فِي الدِّينِ فَلَمْ أَرَ دِينًا خَيْرًا مِنَ النَّصْرَانِيَّةِ وَكُنْتُ قَدْ دِنْتُ بِهَا. ثمّ دَخَلْتُ فِي دِينِ مُحَمَّدٍ ثمّ قَدْ رَجَعْتُ إِلَى النَّصْرَانِيَّةِ «فأنكرت عليه السيدة أمّ حبيبة وقالت له: «وَاللهِ مَا خَيْرٌ لَكَ»[1].

وتحليلُ ما حدث للرّجل، وبكلّ بساطة، أنّه فُتن في دينه، فهو قد كان على النّصرانية، ثمّ تركَها إلى الإسلام، ثمّ هاجر إلى الحبشة وبها كثيرٌ من النّصارى، فتأثّر بهم وعاد للنصرانية مرّة أخرى، وظنّ المسكين أنّه على الحقّ، ويبدو أنّ رجوعه للنصرانية لم يكن رجوعَ الواثق في فعله، المتثبّت من أمره، يدلّ على ذلك أنّه أكبّ على الشّرب حتى مات[2]، بمعنى أنّ الرجل كان مخمورًا، فاقدَ الوعي، مسلوب الإرادة؛ فاللّهم ثبّتنا على دينك حتى نلقاك.

وفي مقابل هذا الضّعف والهوان والردّة، وقفت أمّ حبيبة محافظةً على دينها الحقّ، ثابتة على يقينها[3]، سائلةً الله- عزّ وجلّ- الفرج، فإذْ

(١) ابن سعد، حـ ٨، ص ٧٧.

(٢) ابن حجر: الإصابة، حـ ٨، ص ١٤٠.

(٣) ابن عبد البر: الاستعاب، حـ ٤، ص ١٨٤٤ «وأبت أمّ حبيبة أن تتنصر. وثبتها اللهَّ عَلَى الإسلام».

بالفرج يأتيها في أجْمل معانيه، فبعد انقطاع صلتِها بهذا الزّوج المرتد، ثمّ وفاته، يرسل رسول الله- ﷺ- إليها في الحبشة يطلبها للزّواج، فكان الفرج فرجًا اسمًا ومعنى.

زواجُ النّبي- عليه السلام- من أمّ حبيبة:

أسند ابنُ سعد- رحمه الله- من حديث أمّ حبيبة أنّها قالت: «.. فَمَا هُوَ إلّا أَنِ انْقَضَتْ عِدَّتِي فَمَا شَعَرْتُ إلّا بِرَسُولِ النَّجَاشِيِّ عَلَى بَابِي يَسْتَأْذِنُ فَإِذَا جَارِيَةٌ لَهُ يُقَالُ لَهَا أَبْرَهَةُ كَانَتْ تَقُومُ عَلَى ثِيَابِهِ وَدَهْنِهِ فَدَخَلَتْ عَلَيَّ فَقَالَتْ: إِنَّ المَلِكَ يَقُولُ لَكِ: إِنَّ رَسُولَ اللهَّ- صلّى اللهُّ عَلَيْهِ وسلّم- كَتَبَ إِلَيَّ أَنْ أُزَوِّجَكَهُ. فَقَالَتْ: بَشَّرَكِ اللهُّ بِخَيْرٍ. قَالَتْ: يَقُولُ لَكِ المَلِكُ وَكِّلِي مَنْ يُزَوِّجُكِ. فَأَرْسَلَتْ إِلَى خالد بن سعيد بن العاص فوكلته وأعطت أَبْرَهَةَ سِوَارَيْنِ مِنْ فِضَّةٍ وَخَدَمَتَيْنِ[1] كَانَتَا فِي رِجْلَيْهَا وَخَوَاتِيمَ فِضَّةً كَانَتْ فِي أَصَابعِ رِجْلَيْهَا سُرُورًا بِمَا بَشَّرَتْهَا.

فَلَمّا كَانَ الْعَشِيُّ أَمَرَ النَّجَاشِيُّ جَعْفَرَ بْنَ أَبِي طَالِبٍ وَمَنْ هُنَاكَ من المسلمين فحضروا فخطب النجاشي فقال: أحمد للهَّ المَلِكِ الْقُدُّوسِ السَّلام المُؤْمِنِ المُهَيْمِنِ الْعَزِيزِ الْجَبَّارِ. أَشْهَدُ أَنَّ لا إِلَهَ إلّا اللهُّ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ وَأَنَّهُ الَّذِي بَشَّرَ بِهِ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ- صلّى اللهُّ عَلَيْهِ وسلّم- أمّا بَعْدُ فَإِنَّ رَسُولَ اللهَّ كَتَبَ إِلَيَّ أَنْ أُزَوِّجَهُ أمّ حَبِيبَةَ بِنْتَ أَبِي

(١) مثنى خدمة، وهي الخلخال الذي يلبس في الرجل.

سُفْيَانَ فَأَجَبْتُ إِلَى مَا دَعَا إِلَيْهِ رَسُولُ اللهِ وَقَدْ أَصْدَقْتُهَا أَرْبَعَ مِائَةِ دِينَارٍ. ثمّ سَكَبَ الدَّنَانِيرَ بَيْنَ يَدَي الْقَوْمِ . فَتَكَلَّمَ خَالِدُ بْنُ سَعِيدٍ فَقَالَ: الْحَمْدُ للهِ أَحْمَدُهُ وَأَسْتَعِينُهُ وَأَسْتَنْصِرُهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ لا إله إلّا الله وأن محمدًا عبدُه ورسوله أَرْسَلَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ. أمّا بَعْدُ فَقَدْ أَجَبْتُ إِلَى مَا دَعَا إِلَيْهِ رَسُولُ اللهِ وَزَوَّجْتُهُ أمّ حَبِيبَةَ بِنْتَ أَبِي سُفْيَانَ فَبَارَكَ اللهُ رَسُولَ اللهِ. وَدَفَعَ الدَّنَانِيرَ إِلَى خَالِدِ بْنِ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ فَقَبَضَهَا ثمّ أَرَادُوا أَنْ يَقُومُوا فَقَالَ: اجْلِسُوا فَإِنَّ سُنَّةَ الأَنْبِيَاءِ إِذَا تَزَوَّجُوا أَنْ يُؤْكَلَ طَعَامٌ عَلَى التَّزْوِيجِ. فَدَعَا بِطَعَامٍ فَأَكَلُوا ثمّ تَفَرَّقُوا.

قَالَتْ أمّ حَبِيبَةَ: فَلَمَّا وَصَلَ إِلَيَّ الْمَالُ أَرْسَلْتُ إِلَى أَبْرَهَةَ الَّتِي بَشَّرَتْنِي فَقُلْتُ لَهَا: إِنِّي كُنْتُ أَعْطَيْتُكِ مَا أَعْطَيْتُكِ يَوْمَئِذٍ وَلا مَالَ بِيَدِي فَهَذِهِ خَمْسُونَ مِثْقَالًا فَخُذِيهَا فَاسْتَعِينِي بِهَا. فَأَبَتْ. فَأَخْرَجَتْ حُقًّا فِيهِ كلّ مَا كُنْتُ أَعْطَيْتُهَا فَرَدَّتْهُ عَلَيَّ وَقَالَتْ: عَزَمَ عَلَيَّ الْمَلِكُ أَنْ لا أَرْزَأَكِ شَيْئًا وَأَنَا الَّتِي أَقُومُ عَلَى ثِيَابِهِ وَدَهْنِهِ. وَقَدِ اتَّبَعْتُ دِينَ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهِ- صلّى اللهُ عَلَيْهِ وسلّم- وَأَسْلَمْتُ للهِ. وَقَدْ أَمَرَ الْمَلِكُ نِسَاءَهُ أَنْ يَبْعَثْنَ إِلَيْكِ بِكُلِّ مَا عِنْدَهُنَّ مِنَ الْعِطْرِ.

قَالَتْ: فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ جَاءَتْنِي بِعُودٍ وَوَرْسٍ وَعَنْبَرٍ وَزَبَادٍ[1] كَثِيرٍ فَقَدِمْتُ بِذَلِكَ كُلِّهِ عَلَى النَّبِيِّ- صلّى اللهُ عَلَيْهِ وسلّم- فَكَانَ يَرَاهُ عَلَيَّ وَعِنْدِي فَلا يُنْكِرُهُ. ثمّ قَالَتْ أَبْرَهَةُ: فَحَاجَتِي إِلَيْكِ أَنْ تُقْرِئِي رَسُولَ اللهِ

(١) زَباد: مادَّةٌ عَطِرَةٌ

مِنِّي السَّلامَ وَتُعْلِمِيهِ أَنِّي قَدِ اتَّبَعْتُ دِينَهُ. قَالَتْ: ثمّ لَطَفَتْ بِي وَكَانَتِ الَّتِي جَهَّزَتْنِي فَكَانَتْ كُلَّمَا دَخَلَتْ عَلَيَّ تَقُولُ: لا تَنْسَيْ حَاجَتِي إِلَيْكِ.

قَالَتْ: فَلَمَّا قَدِمْتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ أَخْبَرْتُهُ كَيْفَ كَانَتِ الْخِطْبَةُ وَمَا فَعَلَتْ بِي أَبْرَهَةُ؛ فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللهِ. وَأَقْرَأْتُهُ مِنْهَا السَّلامَ فَقَالَ: وَعَلَيْهَا السَّلامُ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ»[١].

وهذا النصّ تدور حوله أغلبُ كُتب السّيرة التي أرّخت للسيدة أمّ حبيبة سواء بذكر جزءٍ منه أو إيراده مختصرًا أو ذكر معناه، وهو على كلّ حال يُشتمّ فيه رائحة الأصالة تاريخيًّا، وهو يشي بعدّة دلالاتٍ هامّةً، نوجزها فيما يلي:

أوّلها: أنّ النّبي - ﷺ - كان مطلعًا على أحوال أصحابه في الحبشة، فلمّا علمَ من حال أمّ حبيبة ما علم أرسلَ إليها جابرًا بخاطرها، مُعليًا من قدرها، فقد صيّرها أمًّا للمؤمنين؛ تكريمًا وتشريفًا لها، فهي المهاجرة الأولى، والمجاهدةُ والمحتسبة، التي ضحّت بنعيم الدّنيا مرضاةً لله ورسوله، ومحْنتها في الحبشة - كما رأيت - كانت شديدة، وليس لها من جبرٍ إلّا بما فعله رسولُ الله ﷺ.

ثانيها: قد يقول قائلٌ إنّه كان بالإمكان أن يتقدّم للزّواج من أمّ حبيبة أيّ صحابي من أصحابِ رسول الله فيجبر هذا بخاطرها.

(١) الطبقات الكبرى، حـ٨، ص ٧٧: ٧٨.

وأقول: إنّ الجبر الحقيقيّ لخاطر السيدة أمّ حبيبة أن تتزوّج من رسول الله، ﷺ، فهي قريبتُه القريبة، وابنة زعيم مكّة، وليس لها كفء خلا رسول الله ﷺ. واعلمْ- رحمك الله- أنّ الجبر الحقيقيّ لخاطر السيّدة أمّ حبيبة هو تحوّل كُنيتها من أمّ حبيبة إلى أمّ المؤمنين، وبهذا فقط يجبرَ خاطرها عن جدارةٍ واستحقاق، فهذه الغريبةُ التي فتنَ زوجُها وتركها، هل تقبل أنتَ لها مكانة أقلّ من أن تصير أمًّا للمؤمنين؟!

ثالثها: نلحظُ من النصّ السّابق مدى نجاح المسلمين في الحبشة، فقد أسلم ملك الحبشة النّجاشي لله عزّ وجلّ، وأسلم فريقٌ من المحيطين به، وهذا ببركةِ صدق هؤلاء النّفر من المجاهدين الأوائل الذين هاجروا للحبشة لا يبغون إلّا وجهَ الله؛ فأكرمهم الله بالفتح على أيديهم، وأعني بالفتح هنا فتحَ القلوب للإسلام والمسلمين.

رابعها: أقام النّجاشي- رضي الله عنه- في احتفاليّة زواج النّبي- ﷺ- من أمّ حبيبة المظاهر الإسلامية كاملة، فهو يطلب من أمّ حبيبة أن توكّل مَن يزوّجها، ثمّ يصدقها بصداقٍ مميّز إكرامًا لرسول الله ﷺ، ثمّ هو يُولم بوليمةٍ كريمة احتفالًا بهذا الزّواج المبارك. وفي هذا كلّه دلالةٌ واضحة على حُسن إسلامه، وحبّه الشّديد للإسلام، وحرصِه على إقامة سنّته والاقتداء برسول الله ﷺ.

خامسها: وفي هذا النّص إنسانيّاتٌ ملائكيّة تتمثّل في موقف جارية النّجاشي «أَبْرَهَة» التي بشّرت أمّ حبيبة بخطبة رسول الله- ﷺ- لها، ثمّ أهدتها أمّ حبيبة ببعض متعلّقاتها إكرامًا لها، ثمّ أرادتْ أن تزيدها بعد أن قبضتْ صَداقها؛ فإذا بأَبْرَهَة ترفض أن تأخذ منها شيئًا، بل وتردّ ما أهدتها السيدة أمّ حبيبة، وتتعلّل- بصدق- بأنّ الملك أمرها ألّا تأخذ منها شيئًا، وأنّها أسلمت لله ربّ العالمين، واتّبعت ما جاء به رسولُ الله. فأيّ عظمةٍ صنعها الإسلام بأتْباعه! وأيّ رقيّ زُينت به البشرية حينما اتّبع فريقٌ منها هذا النّبي الكريم!

ولم تكتفِ أَبْرَهَة بهذه الملائكيّة الصّادقة، بل طلبت من أمّ حبيبة طلبًا عزيزًا، وهو أن تبلغ رَسُولَ اللهَّ مِنِّها السَّلامَ وتعلمَه أنّها قد اتّبعت دينه، وقد ألحّت في هذا الطلب، ورأَتْ في ذلك أفضلَ جائزة، وأجزلَ عطاء، أن تبلّغ صوتها وسلامَها لرسول الله، وتعلمه أنّ له أحبذةً مسلمين في بلاد الحبشة، وأنّها واحدة منهم.

وقد جهّز النَّجَاشِيُّ- رضي الله عنه- السّيدة أمّ حبيبة، وبعث بها مع شرحبيل بن حَسَنَةَ إلى رسول الله في المدينة[١]، وقد تزوّجها رسول الله- ﷺ- سنة سبع للهجرة، وقيل سنة ستّ، والأوّل أشهر[٢].

---

(١) نفسه، ص ٧٩؛ ابن الأثير: أسد الغابة، حـ ٧، ص ١١٦.

(٢) ابن حجر: الإصابة، حـ ٨، ص ١٤١.

أمّ حبيبة في بيت النبوّة:

كان رسولُ الله- ﷺ- يعتزّ بالسيدة أمّ حبيبة، ويقدّر جهادَها وتضحياتها في سبيل الله، ويعلم مدى المحنة التي تعرّضت لها في الحبشة؛ فكان زواجُه منها بلسمًا لقلبها، ودواءً لجرحها، ورفعًا لمكانتها في الدّنيا والآخرة. ولقد قابلت أمّ حبيبة هذه المشاعرَ الطيبة لرسول الله بحفْظ بيته ومكانِه حاضرًا وغائبًا؛ فعندما نقضتْ قريش الصلحَ مع رسول الله- ﷺ- وجاء أبو سفيان إلى المدينة، وأرادَ أن يجدّد الصّلح، وفشل في مسعاه دخل عَلَى ابْنَتِهِ أمّ حَبِيبَةَ،» فَلَمَّا ذَهَبَ لِيَجْلِسَ عَلَى فِرَاشِ النَّبِيِّ- صلّى اللهُّ عَلَيْهِ وسلّم- طَوَتْهُ دُونَهُ فَقَالَ: يَا بُنَيَّةُ أَرَغِبْتِ بِهَذَا الْفِرَاشِ عَنِّي أمّ بِي عَنْهُ؟ فَقَالَتْ: بَلْ هُوَ فِرَاشُ رَسُولِ اللهَّ وَأَنْتَ امْرُؤٌ نَجِسٌ مُشْرِكٌ. فَقَالَ: يَا بُنَيَّةُ لَقَدْ أَصَابَكِ بَعْدِي شَرٌّ»[1].

وهي لم تصبْ أبدًا بعده بِشَرّ، بل لقد أكرمَها الله واختارها لتكون أمًّا للمؤمنين، فيتشرّف بنو أميّة جميعًا بها، فأبو سفيان على مكانته إنْ جاز له أن يفخرَ فليفخر بأنّه ينتمي للمجاهدة الصّبورة أمّ المؤمنين، رملة بنت الإسلام.

---

(١) ابن سعد: الطبقات، حـ ٨، ص ٧٩.

دورُها الدّعوي، وإبلاغُها عن رسول الله:

عاشت السيدةُ أمّ حبيبة سعيدةً راضية بقربها من رسول الله، ﷺ، وبعد وفاتِه أخذت تبلّغ ما تيسّر لها من حديثه ﷺ، فمسندُها- عن رسول الله- خمسة وستون حديثًا، واتّفق لها البخاري ومسلم على حديثين، وتفرّد مسلم بحديثين»[1]. «وقد حدّث عنها، أخواها: الخليفة معاوية، وعنبسة، وابنُ أخيها عبد الله بن عتبة بن أبي سفيان، وعروة بن الزبير، وأبو صالح السمان، وصفية بنت شيبة، وزينب بنت أبي سلمة، وشتير بن شكل، وأبو المليح عامر الهذلي. وآخرون»[2] ممّا يدلّ على دورها المميّز في الدعوة ونشر الخير بين النّاس وبلاغ سنة رسول الله ﷺ.

حرصُها الشديد على سنّة رسول الله :

كانت السيدة أمّ حبيبة شديدةَ الحرص على سنة رسول الله- ﷺ-، فقد روى البخاريّ- رحمه الله- من حديث زينب بنت أبي سلمة- رَضِيَ اللهَّ عَنْهُما- قَالَتْ: «دَخَلْتُ عَلَى أمّ حَبِيبَةَ رَضِيَ اللهَّ عَنْهَا زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ حِينَ تُوُفِّيَ أَبُوها أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ، فَدَعَتْ بِطِيبٍ فِيهِ صُفْرَةُ خَلُوقٍ أَوْ غَيْرِهِ، فَدَهَنَتْ مِنْهُ جَارِيَةً، ثمّ مَسَّتْ بِعَارِضَيْهَا.

---

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء، حـ ٢، ص ٢١٩.

(٢) نفسه.

ثمّ قَالَتْ: وَاللهَّ مَالي بِالطِّيبِ مِنْ حَاجَةٍ، غَيْرَ أَنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهَّ ﷺ يقُولُ عَلى المِنْبرِ: لا يحِلُّ لامْرأَةٍ تُؤْمِنُ بِاللهَّ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَنْ تُحِدَّ عَلَى مَيِّتٍ فَوْقَ ثَلاثِ لَيَالٍ، إِلّا عَلى زَوْجٍ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا»[١].

عبادتُها رضي الله عنها:

وقد كان من الطّبيعي أن تتأثّر السيدة أمّ حبيبة برسول الله ﷺ، ومن مظاهر تأثّرها به تأثّرها بعبادته وحرصِه على الصّلاة، فقد كانت إلى جوار الفريضة تحرص على صلاةِ التطوّع، وتُكثر من ذلك، فقد روى الإمامُ مسلم في صحيحه من طريق شعبة عن النّعمان بن سالم عن عمرو بن أوس عن عنبسة بن أبي سفيان عن أمّ حبيبة زوج النبي- صلّى الله عليه وسلم- أنّها قالت: «سمعت رسولَ الله- صلّى الله عليه وسلم- يقول: «ما من عبدٍ مسلم يصلّي لله كلّ يوم ثنتي عشرة ركعة تطوّعًا غير فريضةٍ إلّا بنى الله له بيتًا في الجنة- أو إلّا بُني له بيتٌ في الجنة» قالت أمّ حبيبة: فما برحتُ أصليهُنّ بعد»[٢]. وفي رواية: فما تركتُهُنَّ منذ سمعتُهُنَّ من رسول الله ﷺ[٣].

---

(١) صحيح البخاري، حديث رقم ٥٣٣٤.

(٢) صحيح مسلم، حديث رقم ٧٢٨.

(٣) نفسه.

ويا ليتَ نساء الأمّة ينشغلنَ بصلاة التطوّع إلى جوار الفريضة كما فعلت السيدة أمّ حبيبة رضي الله عنها، فالصّلاةُ تنهى عن الفحشاء والمنكر، وهي مناجاةٌ بين العبد وربّه، وفيها استغلالٌ للوقت في طاعة الله عزّ وجلّ، ونحن نرى هذه الأيام الكثيرَ من النسوة- إلّا من رحم الله- ينفقنَ الوقت فيما لا طائلَ منه، من ذلك الجلوس بالسّاعات أمام شاشات التلفاز، أو متابعة مواقع التّواصل الاجتماعي التي تُسمّى «الفيس بوك»، أو التحدّث بالساعات من خلال الهاتف المحمول، لدرجة أنّ بعض النسوة يضعنَ الهاتف المحمول بين الحجاب والأذن ويتحدّثن أثناء سيرهنّ في الشارع، كأنّهن يكلمنَ أنفسهن!! ولا حول ولا قوّة إلّا بالله.

إذًا: فلننشغلْ بالصّالح، ونقتدي بأمّ المؤمنين أمّ حبيبة، التي اقتدتْ برسول الله ﷺ، وبلّغت حديثه وطبّقته في صورةٍ عمليّة في رسالة للأمّة من بعدها، تلك الأمّة التي ضاعَ منها المسجد الأقصى، وهو لن يعود بالجلوس أمام التّلفاز أو مواقع التواصل، بل يعود إذا عُدنا إلى الله، فهدانا إلى العمل الجادّ للنهوض بأمّتنا في كافة المجالات.

مكانتُها في خلافة أخيها معاوية:

ذكرَ الذّهبي- رحمه الله- نصًا لطيفًا حول مكانة السّيدة أمّ حبيبة في خلافة أخيها معاوية بن أبي سفيان، جاء فيه: «وقد كان لأمّ حبيبة

حرمةٌ وجلالة، ولا سيّما في دولة أخيها؛ ولمكانه منها قيل له: خال المؤمنين»[1]. ولا شكّ أنّ كلّ زوجات رسول الله ﷺ كان لهنّ الحرمة والجلالة طوالَ حياتهنّ، بل وبعدَ مماتهنّ، والسيدة أمّ حبيبة واحدةٌ منهنّ، فلم ترتبط حرمتُها وجلالها بانتسابها لبني أميّة، أو لكوْنها أختَ الخليفة، لكن يبدو أنّ مكانتها زادت في أعين البعض في دولة أخيها معاوية، وهذا البعض في اعتقادي من شراة الدّنيا، الذين كانوا يبغون الحظوة والمكانة الرفيعة عند معاوية، أمّا جماهير المؤمنين فتقديرُهم للسيدة أمّ حبيبة عالي الشأن منذ إسْلامها المبْهر، ومرورًا بزواجها من رسول الله وحتّى الآن، ويكفيني للدّلالة على هذا المعنى أنّ معاوية بن أبي سفيان مع ملكه وسلطانه قيل له: «خال المؤمنين» لمكانِه من المجاهدة أمّ حبيبة، فقد زيّنته- رضي الله عنها- بهذا اللّقب، وزادته مكانة، وأعلتْ من قدره، أمّا هي فحرمتُها وجلالها في قلوب المؤمنين عالٍ كالنّجوم قبل معاوية وبعد معاوية، رضي الله عنه.

رقّةُ قلب مؤمن:

ونحن نقترب من مشهدِ النّهاية في حياة السيدة أمّ حبيبة- رضي الله عنها- نجد أنفسنا بحاجةٍ إلى أن نستدعي أجمل التّعابير، وأفضل الصّور الجمالية لنعبّر- إن استطعنا إلى ذلك سبيلًا- عن هذه اللّقطة

(١) سير أعلام النبلاء، حـ ٢، ص ٢٢٢.

الرّقيقة الممتلئة بالمشاعر السّامية، فقد أخرج ابنُ سعد من طريق عوف بن الحارث، عن عائشة قالت: «دَعَتْنِي أمّ حَبِيبَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ- صلّى اللهُ عَلَيْهِ وسلّم- عِنْدَ مَوْتِهَا فَقَالَتْ: قَدْ كَانَ يَكُونُ بَيْنَنَا ما يكون بين الضَّرَائِرِ فَغَفَرَ اللهُ لِي ولك مَا كَانَ مِنْ ذَلِكَ. فَقُلْتُ: غَفرَ اللهُ لَكِ ذَلِكَ كُلَّهُ وَتجَاوَزَ وَحَلَّلَكِ مِنْ ذَلِكَ. فَقَالَتْ: سَرَرْتِنِي سَرَّكِ اللهُ. وَأَرْسَلَتْ إِلَى أمّ سَلَمَةَ فَقَالَتْ لَهَا مِثْلَ ذَلِكَ»[1]. فالسيدة الكريمة أمّ حبيبة تريد أن تخرج من الدنيا دون أن يكون لأحدٍ مظلمةٌ عندها، أو ضيقُ نفس، وتريد أن تلقى ربّها متسامحةً مع خلقه راجيةً عفوه، وهذا ما يليق بنساء بيت النبوّة أمّهات المؤمنين رضي الله عنهنّ أجمعين.

وفاتُها رضي الله عنها:

تُوُفِّيَتْ- رضي الله عنها- سَنَةَ أَرْبَعٍ وَأَرْبَعِينَ فِي خِلافَةِ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ[2]، ودفنت بالمدينة النبويّة[3] بعد رحلةِ كفاحٍ وصبر ضربتْ خلالها أروعَ الأمثال للمسلمة المحبّة لدينها الحريصةِ على رضا ربّها، فاللّهم اجمعنا معها في الجنّة يا ربّ العالمين.

---

(١) الطبقات، حـ٨، ص ٧٩: ٨٠؛ ابن حجر: الإصابة، حـ٨، ص ١٤٢.

(٢) ابن سعد :الطبقات، حـ٨، ص ٨٠.

(٣) ابن حجر: الإصابة، حـ٨، ص ١٤٢.



٩- أعظمُ النّساء بركةً على قومها جُوَيْرِيَة بنت الحارث رضي الله عنها

مفتاحُ شخصيّتها:

حينما تتوفّر لك أسبابُ الرّضا، يكون الرّضا مفتاحًا لشخصيتك، وهذا ما ينطبقُ على السيدة جُوَيْرِيَة- رضي الله عنها- فقد أعطاها الله الجمال، فكانت امرأةً حُلْوَة مُلاحة، لا يراها أحدٌ إلّا أخذتْ بنفسه، وأعطاها النّسب والمال، فهي بنت زعيم بني المُصطلق، فأورثها هذا جميعُه الرّضا، فلمّا جاءها الإسلامُ اعتنقته ولم تتردّد لحظة، فالرّضا أكسبها الثقةَ فيما تفعل وتعتقد. وهذه الرّاضية مطمئنّة النّفس حينما مَنَّ الله عليها بالإسلام أفصحتْ عن رضاها بشكلٍ عملي، فكانت تُكثر من التّسبيح والتّعبد في صورةٍ ملائكية تليقُ بتلك الحُلوة المُلاحة زوج النّبي المصطفى ﷺ.

كلمةٌ قبل البداية:

قد تسيرُ في طريق، ويأخذك الله لآخَر أهْدى وأرشدَ منه، قد يُكتب عليك الضّلال، وتمتدّ يد العناية الإلهيّة لإنقاذك. هذه المعاني، وتلك الجُمل تلخّص حياة السيدة الكريمة جُوَيْرِيَة بنت الحارث رضي الله عنها، فقد كانت مجرّد امرأةٍ عاديّة، تعيش في قبيلة تمكرُ برسول الله ﷺ، وتتحالفُ مع أعداء الإسلام؛ وإذْ بيدِ القدر تصيّرها أمًّا للمؤمنين، وزوجةً لخير المرسلين، وداعية لربّ العالمين.. فتعالوا نتعرّف عن قربٍ على سيرة هذه السيدة الكريمة.

بطاقةُ حياة:

- هي السّيدة الكريمة جُوَيْرِيَة بنت الحارث بن أبى ضِرار بن حبيب بن عائذ بن مالك بن جذيمة بن المصطلق من خزاعة.

- كان أبوها الحارث سيّدَ قومه.

- ولدَتْ- رضي الله عنها- حوالي عام ١٥ ق. ه / ٦٠٨م.

- كانت- رضي الله عنها- من أجمل النساء.

- أسلمت على يد رسول الله ﷺ.

حياتُها قبل رسول الله ﷺ:

كانت السيّدة جُوَيْرِيَة بنت زعيم بني المصطلق، تلك القبيلة التي عادتِ الدّعوة الإسلامية وتحالفتْ مع المشركين ضدّ رسول الله ﷺ، وكانت زوجةً لمسافع بن صفوان المصطلقي[1].. ولو قدّر لها أن تسير في حياتها تلك، التي ما اختارتها، لما كانت إلّا امرأة مشركة، بنت زعيمٍ مشرك، وزوجٍ كذلك.. لكن يبدو أنّ هذه الأميرة الشّابة كان في قلبها شيء بينها وبين خالقها، وهذا الشيء قد يكون رفضًا للجاهلية، بحثًا عن الحقّ، رغبة في النجاة، توحيدًا حائرًا في قلبها، نورًا مختبئًا في يقينها.. شيء لا أعلمه، لكنّ الله يعلمه، وقد اطّلع- سبحانه وتعالى- من قلبها على ذلك؛ فأكرمَها بكرمه، وهداها بهداه، فها هي قبيلتُها تتعارك مع رسول الله وتُهزم، ويقتَلُ زوجُها، وتسبَى، ثمّ تُعتَق، وتسلم ويتزوّجها رسول الله، فأيّ كرامة بعد ذلك من الله لهذا القلبِ الطيّب الذي اطّلع الله على ما فيه فهداه للحقّ، ورفع من قدره في الدنيا والآخرة!

زواجُها من رسول الله ﷺ:

لمّا أراد الله الخيرَ للسيدة جُوَيْرِيَة، جاءها الخيرُ في صورة بلاءٍ مؤقّت آخره نعيمٌ ومقام رفيع، فقد سَباها رسول الله- ﷺ- يوم المُرَيْسِيع، وهي غزوة بني المصطلق، سنة خمس، وقيل: سنة ست.

(١) ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة، حـ ٤، ٣٥٠ (طبعة مكتبة مصر).

فلمّا قسم رسول الله- ﷺ- سبايا بني المصطلق، وقعت جُوَيْرِيَة بنت الحارث في السهم لثابت بن قيس بن شماس، أو لابن عمّ له، فكاتبته على نفسها، وكانت امرأةً حُلْوَة مُلاحة، لا يراها أحدٌ إلّا أخذتْ بنفسه، فأتت رسول الله تستعينُه في كتابتها.. فقالت: يا رسولَ الله، أنا جُوَيرية بنت الحارث، سيّد قومه، وقد أصابني من البلاء ما لم يَخفَ عليك، وقد كاتبتُ على نفسي، فأعنِّي على كتابتي. فقال رسول الله: «أو خير من ذلك، أُؤَدّي عنك كتابك وأتزوّجك؟» فقالت: نعم. ففعل رسولُ الله ﷺ، فبلّغ الناس أنّه قد تزوّجها، فقالوا: أصهارُ رسول الله، فأرسلوا ما كان في أيديهم من بني المصطلق، فلقد أُعتق بها مائة أهل بيتٍ من بني المصطلق. وتعلّق عائشة راوية هذا الخبر فتقول: «فما أعلمُ امرأةً أعظم بركةً منها على قومِها»[1].

وهذا النصّ الذي روتْه السّيدة عائشة، وسجّلته كتبُ التّراجم والسير عن أكثر من طريق يحمل معنيَيْن غايةً في الأهميّة:

أوّلهما: سببٌ ظاهرٌ لزواج النّبي- ﷺ- من السيدة جُوَيْرِيَة بنت الحارث، وهو إعجابُه بها، فقد كانت «امرأة حُلْوَة مُلاحة، لا يراها أحدٌ إلّا أخذت بنفسه»، وهذا أمرٌ لا يُعاب على رسول الله ﷺ.

(١) انظر: ابن سعد: الطبقات الكبرى، حـ ٨، ص ١٣٤ (طبعة المكتبة القيمة)؛ ابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصحابة، حـ ٧، ص ٥٣ : ٥٤، المكتبة التوفيقية، القاهرة، ٢٠٠٣م.

ثانيهما: أنّ هذا السببَ الظاهر لم يكنْ هو السببَ الحقيقيّ لزواج النّبي- ﷺ- من السيدة جُوَيْرِيَة بنت الحارث- وهذا هو الجديرُ برسول الله عليه السلام- وإنّما كان السّبب الحقيقي، والدّافع الرئيس أنذ النّبي- ﷺ- رأى ما تعرّض له بنو المصطلق من سبيّ، وما لحقهم من عارٍ نتيجة لهزيمتهم؛ فأرادَ أن يستألفهم ويخفّف عنهم بطريقةٍ لا تحمل معنى الأمر لأصحابه أن يطلقوا ما بأيديهم، فتزوّج- ﷺ- بابنتِهم وابنة سيّدهم؛ فلمّا رأى هذا أصحابُه قالوا: «أصهار رسول الله- ﷺ- يُسْتَرقون!»[1] فأعتقوا ما كان في أيديهم من سبي بني المصطلق، فلقد أُعتق بها مائة أهل بيت من بني المصطلق، فكانت امرأةً عظيمةَ البركة على قومها.

وهنا تبدو معالمُ من عظمتِه، ﷺ، ورحمتِه بالنّاس، وحرصه على هداهم للحقّ وإرشادهم إليه.

ولقد اختتمَ هذا المشهد الرّائع بإسلام والد السيدة جُوَيْرِيَة الحارث بن أبي ضرار، يقول ابن هشام- رحمه الله-: إنّه بعد وصول النّبي- ﷺ- إلى المدينة عائدًا من غزوة بني المصطلق ومعه جُوَيْرِيَة، أقبل الحارث بفداءِ ابنته، فلمّا كان بالعقيق نظرَ إلى الإبل التي جاء بها للفداء فرغبَ في بعيريْن منها فغيّبهما في شِعبٍ من شعاب العقيق،

---

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى، حـ٨، ص ١٣٤ (طبعة المكتبة القيمة).

ثمّ أتى النّبي ﷺ، وقال: يا محمّد، أصبتم ابنتي، وهذا فداؤها، فقال رسول الله ﷺ: «فأينَ البعيران اللّذان غيّبتهما بالعقيق في شعبِ كذا وكذا»؟ فقال الحارث: أشهد أن لا إله إلّا الله وأنّك محمد رسول الله، فوالله ما اطّلع على ذلك إلّا الله، فأسلمَ الحارث، وأسلم معه ابنان له وناسٌ من قومه، وأرسل إلى البعيريْن فجاء بهما، فدفع الإبل إلى النّبي- ﷺ- ودُفِعَت إليه ابنته جُوَيْرِيَة، فأسلمت، وحسن إسلامها، فخطبها النّبي- ﷺ- إلى أبيها؛ فزوّجه إيّاها، وأصدقها أربعمائة درهم[1].

وهذه الرّواية لا تتعارض مع ما تقدّم؛ فقد كان ما كانَ بين جُوَيْرِيَة ورسول الله- ﷺ- على نحْو ما تقدّم، ثمّ جاء أبوها وأسلم وتمّم الأمرَ على ما ذكر ابن هشام.

ولقد اتّبع إسلامَ الحارث إسلامُ بني المصطلق قومه، فقد أسلموا وحَسُن إسلامهم، والحمدُ لله ربّ العالمين[2].

السيّدة جُوَيْرِيَة في بيت النبوّة:

تزوّج رسولُ الله- ﷺ- السّيدة جُوَيْرِيَة وهي بنت عشرين سنة[3] فقد كانت- رضي الله عنها- في أوْج شبابها وجَمالها؛ فضرب رسولُ

---

(١) السيرة النبوية، حـ ٣، ص ١١١٩، دار الفكر، القاهرة، ١٩٨٠ م.

(٢) نفسه، ص ١١١٩: ١١٢٠.

(٣) ابن سعد: الطبقات الكبرى، حـ ٨، ص ١٣٨.

الله عليها الحجاب، أي حجبَها، وغيّر اسمها، فقد كانتْ تسمّى بَرّة فسمّاها رسولُ الله جُوَيرية، وقسم لها كما يقسم لنسائه[١]. وهذا يعني أنّ النّبي - ﷺ - جبرَ بخاطرها، وأحاطها برعايته، وحبّه، وهذا هو الخليقُ ببيت النبوّة.

عبادتُها:

كانت السّيدة جُوَيرية- رضي الله عنها- كثيرةَ التّسبيح، فقد روى ابنُ عباس عنها «أنَّ النّبي - ﷺ - خرجَ من عندها بُكرةً حين صلّى الصّبح، وهي في مسجدها [أي موضع صلاتها] ثمّ رجع بعد أنْ أضحى، وهي جالسة. فقال: مازلت على الحال التي فارقتك عليها؟ قالت: نعم. قال النّبي ﷺ: لقد قلتُ بعدَك أربعَ كلمات- ثلاث مرّات- لو وزنتْ بما قُلتِ منذ اليوم لوَزَنَتْهُنَّ: سبحانَ الله وبحمده عددَ خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته»[٢].

وكانت- رضي الله عنها- إلى جوار تسْبيحها، كثيرةَ الصّوم، مجتهدةً فيه، لدرجة أنّها صامتْ يومَ الجمعة منفردًا فأمرها رسول الله- ﷺ- بالفطر، وعلّمها عدمَ إفراد يوم الجمعة بالصّوم[٣].

(١) ابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصحابة، حـ٧، ص ٥٤ .

(٢) صحيح مسلم، حـ١٧، ص ٣١٤٨ (حديث رقم ٢٧٢٦) باب التسبيح أول النهار وعند النوم.

(٣) ابن سعد: الطبقات الكبرى، حـ٨، ص١٣٧.

روايتُها عن رسول الله ﷺ :

ذكر الذّهبي- رحمه الله- أنّ السيدة جُوَيْرِيَة بنت الحارث «جاء لها سبعة أحاديث، منها: عند البخارى حديث، وعند مسلم حديثان»[١].

وقد روى عنها ابنُ عباس، وجابر، وابن عمر، وعُبَيد بن السَّبَاق، وغيرهم[٢].

وفاتُها رضي الله عنها:

قيلَ توفّيت- رضي الله عنها- سنة خمسين، وهي يومئذ ابنة خمسة وستين سنة، وصلّى عليها مروانُ بن الحكم. وقيل بقيتْ إلى ربيع الأوّل سنة ستّ وخمسين[٣].

---

(١) سير أعلام النبلاء، حـ ٢، ص ٢٦٣.

(٢) ابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصحابة، حـ ٧، ص ٥٤ .

(٣) ابن سعد: الطبقات الكبرى، حـ ٨، ص١٣٨؛ ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة، حـ ٤، ص ٣٥١ (طبعة مكتبة مصر). والروايتان للواقدى.

١٠- صفيّةُ رسولِ الله
أمّ المؤمنين صفيّة بنت حييّ
رضي الله عنها

مفتاحُ شخصيّتها:

هي امرأةٌ رقيقة، حالمة، راجيةٌ للخير، حريصةٌ عليه، صاحبةُ إحساس مرهَف، ومشاعر نبيلة، كأنّ العصافير تهمسُ إليها لتستمدّ من رقّتها رقّة، ومن بهائها وجَمالها بهاءً وسناءً، فتبادلها هي همسًا بهمس، وهذا يختصر- لعَمْري- مفتاحَ شخصيتها، رضي الله عنها. ويكفيها أنّها صفيّةُ رسولِ الله ﷺ التي مسح دمعَها بيده الشّريفة، وكان يُكثر مجالستَها والسّماعَ إليها.

كلمةٌ قبل البداية:

نشأتْ السيدةُ صفية- رضي الله عنها- في بيئةٍ معادية للإسلام والمسلمين؛ فأبوها حييّ بن أخطب، ذلك الرجلُ الذي لم يلمْ نفسَه يومًا في عداوة النّبي ﷺ، والذي دبّر غيرَ مرةّ للقضاء على الإسلام والمسلمين. وعلى الرّغم من هذه البيئة العاتية في قسوتها وغلظتها

على الإسلام وأهله إلّا أنّ الإسلام- بأمر ربّك- نجح في النّفاذ إليها واستخلاص عدد من أهلها من براثن الكفرِ إلى نعيم الإيمان، وكان مِن بين هؤلاء- لا شكّ- السيدة صفية التي حوّلها الإسلام من مجرّد بنتٍ لزعيم اليهود إلى أمّ من أمّهات المؤمنين، فتعالوا معًا ننظر كيف كان هذا، وكيف كانت مسيرةُ هذه الطيبة الكريمة.

بطاقةُ حياة:

- هي صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيِّ بْنِ أَخْطَبَ بْنِ سَعْيَةَ بْنِ عَامِرِ بْنِ عُبَيْدِ بن كعب بن الخزرج بن أبي حبيب بن النضير بن النحام بن ينحوم، من بني إسرائيل من سبط هارون بن عمران.

- وأمّها برّة بنت سموأل، أخت رفاعة بن سموأل، من بني قريظة إخوة النضير.

- أسلمتْ- رضي الله عنها- سنة ٧ للهجرة على يدِ رسول الله، ﷺ، يوم خيبر.

حياتُها قبل رسول الله ﷺ، وهل عرفتِ الإسلامَ قبل خيبر؟!

كانت صفيّة بنت حيي قد تزوّجت سلام بْن مشكم القرظي، وَكَانَ شاعرًا، ثمّ فارقها، فتزوّجها كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق النّضري، وهو شاعر أيضًا، فقُتل عنها يوم خيبر[1].

(١) ابن سعد: الطبقات، حـ ٨، ص ٩٥؛ ابن عبد البر: الاستيعاب، حـ ٤، ص ١٨٧١.

وهذا يعني أنّها- رضي الله عنها- كانت محطّ أنظار الشّعراء والأدباء قبل أن تُسْلم، وهذا يدلّ على رقّتها وتفرّدها بين أهلها. والشّعراء يهيمون في أوْدية الخيال، فلو قدّر للسيدة صفية أنْ تسير في حياتها الطّبيعية لهامتْ من وادٍ إلى آخر، خيالًا في خيال، لكنْ الله قدّر لها الخير فأخرجها من كلّ ذلك، فكأنّها كانت نائمةً في خيالاتها فأيقظتها يدُ العناية إلى حقيقة التوحيد والطّهر ونقاء الإسلام.

والسّيدةُ صفيّة في بيئتها الأولى تلك ابنةُ زعيمٍ من زعماء اليهود كارهٍ للإسلام، وهو حيي بن أخطب سيّد بني النّضير، وزوجة لسلام بن مشكم ثمّ كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق، وهما شاعران معاديان للإسلام، يوظّفان شعرهما وبيانهما لمهاجمة الإسلام ونبيه محمد ﷺ، فهي إذًا: مطّلعة على أخبار الإسلام، يدور ذكر رسول الله في بيتها كثيرًا حتى لو كان على سبيل العداوة والبغْضاء، وهي لا شكّ قد تكون تعاملت في بيعٍ أو شراء مع بعض مسلمي المدينة، وأدركت مدى التناقض بين ما تسمع من أبيها وزوجها، وبين ما تخابره من أخلاق المسلمين، وسماحة دينهم، وبالتالي فهي مهيّئة تمامًا- بعد هزيمة اليهود في خيبر ٧هـ- لقبول الإسلام والتحمّس له، ولعلّ النّصوص تشي بذلك، فقد ذكر ابنُ سعد ما نصّه «أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عُمَرَ. حَدَّثَنِي إِبْرَاهِيمُ بْنُ جَعْفَرٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: لَمَّا دَخَلَتْ صَفِيَّةُ عَلَى النَّبِيِّ- صلّى اللهُ عَلَيْهِ وسلّم- قَالَ لَهَا: لَمْ يَزَلْ أَبُوكِ مِنْ

أَشَدِّ يَهُودَ لِي عَدَاوَةً حَتَّى قَتَلَهُ اللهُ. فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ اللهَ يَقُولُ فِي كِتَابِهِ: «ولا تزر وازرة وزر أخرى». فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللهِ: اخْتَارِي. فَإِنِ اخْتَرْتِ الإِسْلامَ أَمْسَكْتُكِ لِنَفْسِي وَإِنِ اخْتَرْتِ الْيَهُودِيَّةَ فَعَسَى أَنْ أُعْتِقَكِ فَتَلْحَقِي بِقَوْمِكِ. فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ لَقَدْ هَوِيتُ الإِسْلامَ وَصَدَّقْتُ بِكَ قَبْلَ أَنْ تَدْعُوَنِي حَيْثُ صِرْتُ إِلَى رَحْلِكَ وَمَا لِي فِي الْيَهُودِيَّةِ أَرَبٌ وَمَا لِي فِيهَا وَالِدٌ وَلا أَخٌ. وَخَيَّرْتَنِي الْكُفْرَ وَالإِسْلامَ فَاللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الْعِتْقِ وَأَنْ أَرْجِعَ إِلَى قَوْمِي. قَالَ: فَأَمْسَكَهَا رَسُولُ اللهِ لِنَفْسِهِ»[1] وهذا النّص يؤكّد ما ذهبنا إليه، ويؤكّد معرفتها التامّة بالإسلام، بل معرفتها ببعض آيات القرآن. والنصّ رغم أنّه للواقدي- وهو عند أهل الحديث متروك- إلّا أنّ التّحليل التاريخي للأحداث يقوّيه تاريخيًّا على الأقلّ.

زواجُها من النّبي ﷺ:

عادى اليهودُ النّبي- ﷺ- وتجمّعوا ضدّه في خيبر شمال المدينة، وأخذوا يكيدونَ للإسلام والمسلمين؛ فغزاهم رسولُ الله في سنة سبعة للهجرة، ونصره الله عليهم، وقُتل مَن قُتل منهم، ووقعتْ صفيّة بنت حيي بن أخطب في السّبي، وهنا تختلف الرّوايات في كيفية زواج النّبي- ﷺ- منها، وذلك على النحو التالي:

(١) الطبقات الكبرى، حـ ٨، ص٩٧.

هناك رواياتٌ تتحدّث عن أنَّ السيّدة صفية سُبيتْ مع مَن سُبيَ مِن نساء خيبر، وأنَّ النّبي - ﷺ - «اصطفاها لنفسه وَعَرَضَ عَلَيْهَا أَنْ يُعْتِقَهَا إِنِ اخْتَارَتِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ. فَقَالَتْ: أَخْتَارُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ. وَأَسْلَمَتْ فَأَعْتَقَهَا وَتَزَوَّجَهَا وَجَعَلَ عِتْقَهَا مَهْرَهَا»، وذلك على ما روى ابنُ سعد عن جماعة[1].

وروى أنس بن مالك أنّ رسول الله - صلّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلّم - لمّا افتتح خيبر وجمع السّبي، أتاه دحْية بن خليفة فقال: أعطني جاريةً من السّبي. قال: «اذهب فخُذْ جارية». فذهب فأخذ صفيّة. قيل: يا رسول الله، إنّها سيدة قريظة والنضير، ما تصلح إلّا لك، فقال له رسول الله صلّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلّم: «خذْ جارية من السّبي غيرها». وأخذها رسولُ الله - صلّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلّم - واصطفاها، وحجبها وأعتقها وتزوّجها، وقسم لها.

وهناك إضافاتٌ لهذه الرّواية تقول إنَّ النّبي - ﷺ - عوّض دحية، رضي الله عنه، بسبعة أنفس تطييبًا لقلبه، ورواية أنس هذه وإضافتُها ذكرهما الإمام مسلم في صحيحه[2].

---

(١) نفسه، ص ٩٥: ٩٦.

(٢) صحيح مسلم بشرح النووى، حـ ٩، ص ١٧١٣: ١٧١٦ (حديث رقم ١٣٦٥)؛ ورواية أنس ذكرها ابن الأثير في أسد الغابة، حـ ٧، ص ١٦٨، والنصّ في المتن له.

ويعلّق ابنُ عبد البرّ على هذه الروايات، ويقول: «اسْتَصْفَاهَا رَسُولُ اللهَّ- صلّى اللهُّ عَلَيْهِ وسلّم- وَصَارَتْ فِي سَهْمِهِ، ثمّ أَعْتَقَهَا وَجَعَلَ عِتْقَهَا صَدَاقَهَا. لا يَخْتَلِفُونَ فِي ذَلِكَ، وَهُوَ خُصُوصٌ عِنْدَ أَكْثَرِ الْفُقَهَاءِ لَهُ صلّى اللهُّ عَلَيْهِ وسلّم، إِذْ كَانَ حُكْمُهُ فِي النِّسَاءِ مُخَالِفًا لِحُكْمِ أُمَتِهِ»[1].

وبعد الاطّلاع على هذه الرّوايات وتحليلها نخلصُ إلى ما يلي:

١- تقديرًا لرواية الإمام مسلم الذي اعتمد على شروطٍ خاصّة بأهل الحديث ينبغي أن تكون محلّ تقديرٍ واحترام، نرى أنَّ السيدة صفية- رضي الله عنها- كانت في البداية من نصيب الصّحابي دحية بن خليفة الكلبي، الذي طلب من رسول الله- ﷺ- أن يأخذ جاريةً من السّبي، فأذن له رسولُ الله؛ فأخذ صفية بنت حيي بن أخطب، وكانت من أنفس السّبى. ولما كان مع رسول الله- ﷺ- مِن الصّحابة مَن يعرف مكانة السيدة صفيّة، وأنّها سيدة قريظة والنّضير، خشي هؤلاء أنْ تتعالى صفية على دحية، وخشوا أن يميزَ دحية على باقي الصّحابة إذ أنّ النّبي- ﷺ- أذنَ له أن يأخذ جاريةً من حشو السّبي لا أفضلهنّ، وبالتّالي أشاروا على رسول الله- ﷺ- بأنّها لا تصلح لدحية، وأنّه- ﷺ- أوْلى بها؛ فعوّض رسول الله دحية بديلًا مجزيًا عن صفية، ثمّ أعتقها وتزوّجها على نحو ما تقدّم.

---

(١) الاستيعاب، حـ ٤، ص ١٨٧٢.

٢- وهذا الذي خلصنا إليه لا يتنافى مع ما ذُكر مِن أنّ النّبي- ﷺ- اصطفى صفيّة لنفسه، فهو اصطفاها بهذه الكيفيّة التي أوضحنا، وأعتقها، وجعلَ عتقَها صداقها، وتزوّجها ﷺ.

٣- كان زواجُ النّبي- ﷺ- من السيّدة صفية لغايةٍ نبيلة جمعها أهلُ الفضل من العلماء فيما يلي:

أ- إعزازُ السيدة صفية وإكرامُها ورفعُ مكانتها، فهي بنتُ سيّد قومها، ولا يليقُ بها زوج خلا رسول الله ﷺ، ولو أنّها وقعتْ في نصيبِ غيره لكان هذا انتهاكًا لمرتبتها، وهي بعدُ حديثةَ عهدٍ بالإسلام وتعاليمه التي لا تميّز بين الناس لمكانتهم أو حسبهم ونسبهم.

ب- لو أنّ النّبي، ﷺ، ترك صفية للصّحابي دحية بن خليفة الكلبي، وهي بعْدُ مشروعُ مسلمةٍ حديثةِ الإيمان؛ لاستعلتْ عليه بسبب مرْتَبتها، وربّما ترتّب على ذلك شقاقٌ أو غيره. كذلك كان تمْييزُ دحية على باقي الجيش بأخذه أنفس السّبايا مفسدة لا يُخفى عواقبها، ولهذا كلّه كان أخذه- ﷺ- إيّاها لنفسه قاطعًا لكلّ هذه المفاسد المتخوّفة[١].

حـ- كان في زواج النّبي، ﷺ، بالسيدة صفية تعويضًا لها خيرًا ممّن فقدت من أهلها وقومها.

(١) اظر: النووي: صحيح مسلم بشرح النووي، حـ ٩، ص ١٧١٦.

ء- وقد ترتّب على هذه الزّيجة الكريمة إيجادُ رابطة المُصاهرة بينه- ﷺ- وبين اليهود، لعلّه يخفّف عداءهم ويمهّد لقبولهم الإسلام.

صورٌ إنسانيّة راقية في قصّة زواج النّبي ﷺ من صفية:

المتتبّع للرّوايات التاريخية التي قصّتْ خبرَ زواج النّبي- ﷺ- من السيدة صفيّة يلمح العديدَ من الصّور الإنسانية الرّاقية، من ذلك مثلًا:

١- أنّ السّيدة صفية- رضي الله عنها- رفضتْ أن يبني بها رسولُ الله، ﷺ، وهو لايزال قريبًا من خيبر، وذلك خوفًا على رسول الله من غدْر اليهود[١]، وهذا الحرصُ على رسول الله- ﷺ- يؤكّد ما ذهبنا إليه آنفًا من تعرّفها على الإسلام واقْتناعها به قبل غزوة خيبر، وأنّها كانت مهيّئة لقبول الإسلام والتحمّس له.

٢- ومن الصّور الجميلة، أيضًا، موقفُ الصّحابي الجليل أبي أيوب، الذي بات يحرسُ رسولَ الله- ﷺ- يوم زفاف صفيّة إليه، فقد أسند ابنُ سعد من حديث أبي هريرة قَالَ: «لَمَّا دَخَلَ رَسُولُ اللهَّ- صلّى اللهُّ عَلَيْهِ وسلّم- بِصَفِيَّةَ بَاتَ أَبُو أَيُّوبَ عَلَى بَابِ النَّبِيِّ- صلّى اللهُّ عَلَيْهِ وسلّم- فَلَمَّا أَصْبَحَ رَسُولُ اللهَّ كَبَّرَ وَمَعَ أَبِي أَيُّوبَ السَّيْفُ. فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهَّ كَانَتْ جَارِيَةً حديثةَ عَهْدٍ بِعُرْسٍ وَكُنْتُ قَتَلْتُ أَبَاهَا وَأَخَاهَا وَزَوْجَهَا فَلَمْ آمَنْهَا عَلَيْكَ. فَضَحِكَ رَسُولُ اللهَّ وَقَالَ لَهُ خَيْرًا»[٢].

---

(١) ابن سعد: الطبقات، حـ ٨، ص ٩٦.

(٢) نفسه، ص ٩٩: ١٠٠.

وهذا المشهدُ يُكتب- والله- بماءِ العيون؛ فحبّ الصّحابة لرسول الله، ﷺ، وحرصُهم عليه فاقَ الوصف، وما فعله أبو أيوب جزءٌ بسيط من هذا الحبّ، وذلك الحرص فهو- رضي الله عنه- يعلم ما كان بين رسول الله واليهود، ويعلم أنّ هناك دماءً قد تحولُ دون تصفيّة الأمور بين السيدة صفية ورسول الله ﷺ؛ لذلك فهو يضحّي براحته ويسهرُ الليل على باب النّبي- ﷺ- شاهرًا سيفَه خشية أن يتعرّض رسول الله لأذى، فلمّا رآه رسولُ الله على هذه الحالة قال له خيرًا، وشكَرَ له فعله، وقدّر حرصَه عليه، لكنه قبل هذا كلّه ضحك؛ لأنّه يعلم مِن أمر صفية ما لم يعلمه أبو أيوب، والذي لا يعلمه- وقتذاك- أبو أيوب وعلِمَه رسولُ الله، ﷺ، هو أنّ صفية لم تُسلم مضطرّة، وإنّما أسلمت مقتنعة، وأنّه قد حَسُن إسلامها؛ فهانَ عليها الأب والأخ والزّوج ممّن لم يمُنّ الله عليهم بالهداية وقُتلوا ظالمينَ لأنفسهم، بعيدينَ عن الحقّ، والذي كان لا يعلمه أبو أيوب أيضًا أنّ النّبي- ﷺ- أصبح قرّة عين السيدة صفية وملء قلبها.

٣- ومن الصّور الرّائعة، أيضًا، أنّ النّبي- ﷺ- بعد أنْ بنى بأهله طلب من أصحابه أنْ يُخرجوا فضلَ طعامهم حتى يصنعَ من فضلهم وليمةً يأكل منها الجميع[١]، «فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَأْتِي بِفَضْلِ السَّوِيقِ[٢]

---

(١) صحيح مسلم، حـ ٩، ص ١٧١٣ (حديث رقم ١٣٦٥).

(٢) السَّويقُ: طعامٌ يُتَّخَذ من مدقوق الحنطةِ والشعير: سُمِّي بذلك لانسياقه في الحلق. والجمع: أسْوِقَةٌ.

المعجم: المعجم الوسيط

وَالتَّمْرِ وَالسَّمْنِ حَتَّى جَمَعُوا مِنْ ذَلِكَ سَوَادًا فَجَعَلُوا حَيْسًا[1] فَجَعَلُوا يَأْكُلُونَ مَعَهُ وَيَشْرَبُونَ من سماء[2] إِلَى جَنْبِهِمْ. فَكَانَتْ تِلْكَ وَلِيمَةَ رَسُولِ اللَّهَّ على السيدة صفية»[3]. وقد أراد رسول الله- ﷺ- بفعله هذا أن يُعلِّم أصحابه معنى من معاني العطاء والمشاركة، ويشعرُهم بحقيقة أخوّة الإيمان، ويعلّمهم التواضع، ويهوّن في أعينهم أمرَ الدّنيا والحرصَ عليها. وقد استنبط العلماءُ من فعل رسول الله- ﷺ- «أنه يستحبّ لأصحاب الزّوج وجيرانه مساعدته في وليمتِه بطعام من عندهم»[4].

هذا وقد بنى رسولُ الله- ﷺ- بأهله بِالصَّهْبَاءِ وَهِيَ عَلَى بَرِيدٍ[5] مِنْ خَيْبَرَ، وقد جهزتها له السيدة أمّ سُليم[6].

صفيّةُ في بيت النبوّة:

وفي بيت النبوّة زاد القربُ بين صفية وبين رسول الله ﷺ، فقد أحبّها رسول الله حبًّا جمًّا، وبادلته هي هذه المشاعر الطيبة، وتذكرُ كُتب

---

(١) الحَيْسُ: تمرٌ وأَقِطٌ وسمنٌ تخُلَط وتُعجَن وتُسوَّى كالثَّريد.(المعجم الوسيط)

(٢) سماء: ماء مطر.

(٣) ابن سعد: الطبقات، حـ ٨، ص ٩٨.

(٤) انظر: النووي: صحيح مسلم بشرح النووي، حـ ٩، ص ١٧١٨.

(٥) البرَيدُ المسافه بين كلّ منزلين من منازل الطريق، وهي أميال اختُلِفَ في عَددِها.

(٦) ابن سعد: الطبقات، حـ ٨، ص ٩٦.

السّير أنّ النّبي - ﷺ- كان يجلس إليها يحدّثها ويستمع إليها[1]. ورغم هذه الأجواءِ الطيّبة إلّا أنّ بيت النّبي - ﷺ- لم يخلُ ممّا يقع في العادة بين النّساء من غيرة فطرية، كان يعالجها رسولُ الله بكلّ حكمةٍ وحبّ، فتعالوا نقترب أكثرَ من هذه النّقاط من خلال ما يلي:

(أ) حبّ النّبي، ﷺ، لصفية:

أحبّ النّبي - ﷺ- السّيدة صفية، وكان يدرك أنّها ربما شعرتْ بشيء من الغربة وهي بعدُ ضيفةً جديدة على مدينة رسول الله، وكان يعلم أنّ أكثر ما يضايقها هو غيرة بعضِ زوجاته منها؛ فكان- ﷺ- يخفّف عنها، ويرفع من معنويّاتها، ومن ذلك ما أخرجه التّرمذيّ من طريق كنانة مولى صفيّة أنّها حدّثته، قالت: «دخل عليّ النبيّ- صلّى اللهَّ عليه وسلّم- وقد بلغني عن عائشة وحفصة كلامٌ فذكرت له ذلك. فقال: «ألا قلت: وكيف تكونان خيرًا منّي وزوجي محمّد وأبي هارون وعمّي موسى». وكان بلغها أنّهما قالتا: نحن أكرم على رسول اللهَّ- صلّى اللهَّ عليه وسلّم- منها، نحن أزواجه وبنات عمّه»[2]. فانظر إلى كياسة النّبي ﷺ، وانظرْ إلى أدبه الجمّ، فهو يخفّف عن صفيّته بقولٍ لطيف، ويرفع من شأنها، ويقوّيها، دونما يحمل هذا أذى لأيّ من زوجاته، اللّاتي قدّر رسول الله ﷺ غيرتهنّ الطبيعية تجاه العروس الجديد.

---

(١) نفسه، ص ٩٦.

(٢) ابن حجر: الإصابة، حـ٨، ص ٢١١.

ولم أرَ فيما قرأتُ من مصادر صورًا أوضحَ لحبّ النّبي- ﷺ- للسّيدة صفيّة من أنها كانت تأتيه في معتكفه في المسجد لتحدّثه في بعض حاجاتها، فيخرج رسول الله- ﷺ- بنفسه ليوصلها لبيتها في صورةٍ نادرة من صور الحبّ والصفاء، فقد روى عنها علي بن الحسين، أنّها قالت: «جئتُ إلى النبي- صلّى اللهُ عَلَيْهِ وسلّم- أتحدّث عنده، وكان معتكفًا في المسجد، فقام معي يبلغني بيتي، فلقيَه رجلان من الأنصار، قالت: فلمّا رأيَا رسولَ الله رجعَا، فقال: «تعاليا فإنّها صفيّة»، فقالا: نعوذ بالله! سبحان الله! يا رسول الله، فقال: «إنّ الشيطان ليجري من ابن آدم مجرى الدم»[1] . فيا ليت الأزواجَ يتعلّمون فنّ معاملة الزّوجات، ويهتدون بهدي النّبي- ﷺ- في هذا الباب الراقي.

ومن الصّور- أيضًا- التي لا تقلّ روْعة عمّا تقدّم: «أنّ النبي- ﷺ- حجّ بنسائه، فبرك بصفية جَملُها؛ فبكتْ، وجاء رسول الله- ﷺ- لمّا أخبروه، فجعل يمسحُ دموعها بيده، وهي تبكي، وهو ينهاها..»[2] فأيّ رحمةٍ، وأيّ صورةٍ من صور الرّقي مثّلها رسولُ الله ﷺ!

(١) ابن الأثير: أسد الغابة، حـ ٧، ص ١٦٨.

(٢) الذهبي، حـ ٢، ص ٢٣٣.

(ب) حبُّها لرسول الله:

ولقد بادلت السّيدة صفية النّبي - ﷺ - حبًّا بحبّ، وتعطّرت بالمشاعر الطيّبة تجاهه، ومن أروع الأمثلة الدّالة على ذلك ما أسنده ابنُ سعد عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ «أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ - صلّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلّم - فِي الْوَجَعِ الَّذِي تُوُفِّيَ فِيهِ اجْتَمَعَ إِلَيْهِ نِسَاؤُهُ. فَقَالَتْ صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ: أمّا وَاللَّهِ يَا نَبِيَّ اللَّهِ لَوَدِدْتُ أَنَّ الَّذِي بِكَ بِي. فَغَمَزْنَهَا أَزْوَاجُ النَّبِيِّ - صلّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلّم - وَأَبْصَرَهُنَّ رسول الله - ﷺ - فقال: مَضْمِضْنَ. فَيَقُلْنَ: مِنْ أَيِّ شَيْءٍ يَا نَبِيَّ اللَّهِ؟ قَالَ: مِنْ تَغَامُزِكُنَّ بِصَاحِبَتِكُنَّ. وَاللَّهِ إِنَّهَا لَصَادِقَةٌ»[1]. ولا أظنّ أنّ هناك شهادة أشهد، أو دليلُ أدلّ من ذلك على حبّ السيدة صفيّة لرسول الله ﷺ.

(حـ) غيرةُ زوجاتِ النّبي من السيدة صفية:

كان مِن الطّبيعي - والوضعُ كذلك - أن تغارَ زوجات النّبي، ﷺ، من السّيدة صفية، تلك الوضيئة الصّافية، فعن عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ قَالَ: «لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ - صلّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلّم - من خَيْبَرَ وَمَعَهُ صَفِيَّةُ أَنْزَلَهَا فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ حَارِثَةَ بْنِ النُّعْمَانِ فَسَمِعَ بِهَا نِسَاءُ الأَنْصَارِ وَبِجَمَالِهَا فَجِئْنَ يَنْظُرْنَ إِلَيْهَا وَجَاءَتْ عَائِشَةُ مُتَنَقِّبَةً حَتَّى دَخَلَتْ عَلَيْهَا فَعَرَفَهَا. فَلَمَّا خَرَجَتْ خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ عَلَى أَثَرِهَا فَقَالَ: كَيْفَ رَأَيْتِهَا يَا عَائِشَةُ؟

---

(١) الطبقات، حـ٨، ص ١٠١.

قَالَتْ: رَأَيْتُ يَهُودِيَّةً. قَالَ: لا تَقُولِي هَذَا يَا عَائِشَةُ فَإِنَّهَا قَدْ أَسْلَمَتْ فَحَسُنَ إِسْلامُهَا»[١].

وهناك من المظاهر الأخرى الكثيرُ الذي يدلّ على غيْرة زوجات النّبي -ﷺ- من السيدة صفية، ولكنّي أعرضتُ عن ذكره لأنّه من الأمور العادية التي تحدث بين الزّوجات، خاصّة إذا كان زوجُهُنّ في مكانةٍ عالية من قلوبهنّ، فرضيَ الله عن أمّهات المؤمنين، وتجاوزَ عن ذلك.

حياتُها بعد رسول الله:

عاشتِ السّيدة صفية- رضي الله عنها- بعد رسول الله، ﷺ، محافظة على دينها، عارفةً بمكانتها السّامية بين الناس، عاقلة حليمة فاضلة، ومن مظاهرِ ذلك ما رواه أبو عمر بن عبد البرّ إذ يقول: «روينا أنّ جارية لصفية أتت عمر بن الخطاب، فقالت: إنّ صفية تحبّ السبت، وتصلُ اليهود، فبعث عمرُ يسألها، فقالت: أمّا السّبت، فلم أحبّه منذ أبدلني الله به الجمعة؛ وأمّا اليهود، فإنّ لي فيهم رحمًا، فأنا أصلها، ثمّ قالت للجارية: ما حملَكِ على ما صنعتِ؟ قالت: الشّيطان. قالت: فاذهبي، فأنت حرّة»[٢]. فانظرْ معى إلى دينها وأدبِها وحلمها، وقلْ بكلّ فخر: إنّها زوجةُ رسول الله ﷺ.

---

(١) نفسه، ص ١٠٠؛ الذهبي، حـ ٢، ص ٢٣٧.

(٢) انظر: ابن حجر: الإصابة، حـ ٨، ص ٢١١: ٢١٢، الذهبي، حـ ٢، ص ٢٣٢: ٢٣٣.

دورُها في مساعدة عثمان رضي الله عنه:

لم تكنِ السّيدة صفية عالية الهمّة في شأن نفسها فقطْ ككثيرٍ من أصحاب التديّن الزائف، بل هي أيضًا عالية الهمّة بما يخدم دينها، وأمّتها؛ فقد رأتْ بعينها الظّلمَ الذي تعرضَ له الخليفة الرّاشد المظلوم عثمان بن عفان رضي الله عنه، ورأتْ حفنةً عفنةً من القتلة، واقفةً ببابه، محاصرةً له، مانعةً عنه الطّعام والشراب يريدونَ قتله، فحاولتْ أن تزودَ عنه، فلم تستطع، فوضعتْ- رضي الله عنها- الخشبَ بين دارها ودار عثمان، وأخذتْ تنقل له الماء والطعام[1]، لتثبتَ يقينًا لا تخمينًا حُسنَ إسلامها، وصدقَها مع الله ورسوله، وتقدّم صورة وضّاءة كوجهها الجميل للمرأة المسلمة المُدافعة عن الحقّ، الحريصة عليه.

دورُها العلمي:

ساهمتِ السّيدة صفيّة في نشر سنة النّبي- ﷺ- بشكلٍ عمليّ من خلال إجابتها على بعض استفساراتِ الناس لها، خاصّة أسئلة النسوة بما يخصّ أمور المحيض، والأمور الخاصّة بين المرأة وزوجها. وفضلًا عن هذا كانت من رُواة الحديث عن رسول الله ﷺ، فقد ذكر الذّهبي- رحمه الله- أنّه «وردَ لها من الحديث عشرة أحاديث، منها واحدٌ متّفق

(١) ابن سعد: الطبقات، حـ ٨، ص ١٠١؛ الذهبي، حـ ٢، ص ٢٣٧.

عليه»[1]. وقد روى عنها ابنُ أخيها ومولاها كنانة ومولاها الآخر يزيد بن معتب، وزين العابدين علي بن الحسين، وإسحاق بن عبد اللهَّ بن الحارث بن مسلم بن صفوان[2].

وفاتُها رضي الله عنها:

هناك خلافٌ بين أهل العلم في سنةِ وفاة السيدة صفيّة رضي الله عنها، لكنّ الرّاجح أنها توفّيت في سنة خَمْسِينَ فِي خِلافَةِ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ وَقُبِرَتْ بِالْبَقِيعِ بعد رحلة طويلة من العطاء؛ فرضي الله عنها، وجمعنا معها في مستقرّ رحمته.

(١) سير أعلام النبلاء، حـ ٢، ص ٢٣٨.

(٢) ابن حجر: الإصابة، حـ ٨، ص ٢١٢.



١١- ميمونةُ بنت الحارث رضي الله عنها

مفتاحُ شخصيتها:

مرّت السّيدة ميمونة بنت الحارث- رضي الله عنها- قبلَ زواجها برسول الله- ﷺ- بظروفٍ قاسية، غلّفتها بلمسةِ شَجن، أخذ يعمل في قلبها فأوْرثها وقارًا وسكينة وجديّة في حياتها، فتراها جادّة في إنكار المنكر، حريصةً على إقامة الدّين، متديّنة في نفسها، حريصةً على سنة النبى- ﷺ-، وهي إلى جوار هذا كلّه عالمةٌ بجوهر الإسلام، ناشرةٌ لفكرته الواضحةِ بين الناس.

كلمةٌ قبل البداية:

كان من الممكن أن تولَدَ السيدة ميمونة، وتعيشَ حياتها بحلوها ومرّها، ثمّ تموت كأيّ إنسان، ولا يذكرها أحدٌ بعد ذلك، ولا تُعرف لها سيرة قط. كان من المُمكن أن يحدث هذا لو لم يقدّر الله لها الخير، ويزوّجها من رسوله محمد ﷺ، ويكتبها في أمّهات المؤمنين؛ لذلك لو أحببنا أن نصِفَ السيدة ميمونة في عبارةٍ وجيزة تُرسم بريشة الشّفق

على صفحة السّماء لقلنا «امرأةٌ أراد الله لها الخير، فصيّرها أمًّا للمؤمنين، وزوجةً لخاتم الأنبياء والمرسلين»، فتعالوا نقتربُ من هذه الشّخصية الكريمة أمّ المؤمنين ميمونة رضي الله عنها، ونعرضُ لصفحةٍ مشرقة من حياتها، وكيف تأثّرت برسول الله ﷺ.

بطاقةُ حياة:

- هي ميمونة بنت الحارث بن حزن بن بجير بن الهزم بن رويبة بن عبد الله بن هلال بن عامر بن صعصعة، الهلالية.

- أمّها هند بِنْت عوف بْن زُهَير بْن الْحَارِث بْن حماطة بن جرش. ويقال ابن جريش، والتي توصف بأنّها أكرم عجوز في الأرض أصهارًا؛ فهي أمّ كلّ مِن:

(١) أمّ المؤمنين زينب بنت خزيمة الهلالية، زوج النبي ﷺ.

(٢) أسماء بنت عُميس الخثعمية، تزوّجت من جعفر بن أبي طالب، ثمّ تزوّجها أبو بكر الصّديق، ثمّ تزوّجها علي بن أبي طالب.

(٣) سلمى بنت عُميس الخثعمية، زوج حمزة بن عبد المطلب.

(٤) أمّ الفضل لبابة الكبرى بنت الحارث الهلالية، زوْج العباس بن عبد المطلب.

(٥) لبابة الصّغرى بنت الحارث الهلالية، زوجة الوليد بن المغيرة، وأمّ خالد بن الوليد.

وبذلك تكون السّيدة ميمونة خالةُ نفرٍ مميّز من أبناء الإسلام كخالد بن الوليد رضي الله عنه، وعبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

حياتُها قبل رسول الله ﷺ :

يقول ابنُ سعد- رحمه الله-: «كان مسعود بن عمرو بن عمير الثقفي تزوج ميمونة في الجاهلية ثمّ فارقها فخلف عليها أبو رُهْمِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى بْنِ أَبِي قَيْسٍ من بني مَالِكِ بْنِ حِسْلِ بْنِ عَامِرِ بْنِ لُؤَيٍّ فتوفي عنها فتزوجها رسول الله- صلّى اللهُّ عَلَيْهِ وسلّم- »[1] وهذا يعني أنّ السّيدة ميمونة تزوّجت قبل رسول الله مرّتين: الأولى من مسعود بن عمرو الثقفي، والذي فارقها، والثّانية من أبي رهم بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى الذي ماتَ عنها، فهي إذًا من أهل البلاء الذي تستشعر المرأةُ مرارته، فهي بين زوجٍ مُفارق، وما بين زوج مُتوفّى عنها، وكلاهما بلاءٌ وكسرٌ لقلب المرأة. وفي هذه الظّروف الصّعبة يأتي زواج النّبي- ﷺ- منها جبرًا لخاطرها ورفعًا لمكانتها، وقد يكون لعلّةٍ أخرى تضمّنت هذا الذي تقدّم، فضلًا عن أمر آخر أراده رسولُ الله ﷺ.

---

(١) الطبقات، حـ٨، ص ١٠٤.

لماذا تزوّج رسولُ الله السيدة ميمونة؟!

لا شكّ أنّ زواج النّبي من السيدة ميمونة تضمّن أسبابًا إنسانية راقية كأغلبِ زيجات رسول الله ﷺ، لكنْ لا شكّ- عندي- أنّ زواجه منها حمل أسبابًا دعوية قوية كما تشي بذلك النّصوص التاريخية، فنحن نعلم أنّ قريشًا عقدت صلحًا مع النّبي- ﷺ-، ذلك الصلح المعروف بـ «صلح الحديبية»، وأنّها أجّلت عمرته للعام القابل، وهو العام السّابع للهجرة، واتّفقت معه أن تخلي له مكّة ثلاثة أيّام ليؤدّي عمرة القضاء هو وصحبُه، ثمّ ينصرف، وقبل ذهابِ النّبي ﷺ لزيارة مكّة وأداء عمرته أرسل رسول الله- ﷺ- رجليْن من أصحابه إلى العباس ليزوّجه ميمونة رضي الله عنها[1]، وهذا يعني أنّ النّبي- ﷺ- خطّط للزّواج من السيدة ميمونة قبل خروجه من المدينة، وذلك لغاية دعويّة نبيلة، وهي أنْ يتزوّج من سيدةٍ من سيدات مكة، فيقرّب هذا

(١) ابن حجر: الإصابة، حـ ٨، ص ٣٢٣ «لما أراد رسول اللهَّ صلىّ اللهَّ عليه وآله وسلّم الخروج إلى مكّة للعمرة بعث أوس بن خولي، وأبا رافع إلى العبّاس ليزوّجه ميمونة، فأضلّا بعيريهما، فأقاما أياما ببطن رابغ إلى أن قدم رسول اللهَّ صلّى اللهَّ عليه وآله وسلّم، فوجدا بعيريهما، فسارا معه حتى قدما مكّة، فأرسل إلى العبّاس يذكر ذلك له فجعلت أمرها إلى رسول اللهَّ صلّى اللهَّ عليه وآله وسلّم، فجاء إلى منزل العباس فخطبها إلى العبّاس فزوّجها إيّاه.

ومن طريق سليمان بن يسار أن النّبيّ صلّى اللهَّ عليه وآله وسلّم بعث أبا رافع، وآخر يزوّجانه ميمونة قبل أن يخرج من المدينة.»

المسافات بينه وبين مشركيها، ويلينُ القلوب القاسية، وقد يتيحُ هذا للنبي- ﷺ- وصحبه البقاء مدّة أطولَ في مكة ممّا يُمكّنه من القرب من بيت الله الحرام فترةً أطول، ويُتيح له فرصةَ نشر الدين بين أهل مكّة، وتفقّد أحوال المسلمين المُسْتضعفين فيها؛ لذلك تذكرُ النّصوص أنّ النّبي- ﷺ- لمّا انتهى من عمرته وقد تزوّج السيدة ميمونة قال لأهل مكة: «دعوني أبتني بأهلي وأصنع لكم طعامًا»، فقالوا: لا حاجةَ لنا بطعامك» وصمّموا على خروج النّبي- ﷺ- من مكّة على شرطهم معه[١]. ومِن هذا يتبينّ لنا أنّ زواج النّبي- ﷺ- من السيدة ميمونة، فضلًا عن أسبابه الإنسانية كانَ له أسباب دعوية معتبرة، لكنّ مشركي مكة رانَ على قلوبهم فلم يفطنوا لهذه الغايات النبيلة.

زواجُ السيدة ميمونة من رسول الله :

تذكرُ بعض النصوص أنّ العباس- عمّ النّبي ﷺ- هو الذي عرض السيدة ميمونة على رسول الله أثناء عمرة القضاء[٢]، وذلك لمكانتها منه فهي أخت زوجته، وخالة أبنائه، وذكرت رواياتٌ أخرى- على نحو ما أسلفنا- أنّ النّبي، ﷺ، أرسلَ للعبّاس ليزوّجه إيّاها، ويمكن التّوفيق بين الروايتين بأنّ العباس هو مَن لفت نظر النّبي

---

(١) ابن الأثير: أسد الغابة، حـ٧، ص ٢٦٢.

(٢) ابن حجر: الإصابة، حـ٨، ص ٣٢٢.

للزّواج من السيدة ميمونة، وأنّ النّبي - ﷺ - أرسل إليه ليتمّم الأمر، وما يعنينا أنّ النّبي - ﷺ - تزوّجها في وقت فراغه من عمرة القضاء سنة سبع في ذي القعدة[1] ولمّا لم تسمح له قريش بالبناء بها في مكّة، بنى بها وهو حلالٌ بسَرِف بطريق مكة[2].

وقد أسند ابنُ سعد أنّ النّبي - ﷺ - «تزوّج السيدة ميمونة عَلَى مَهْرِ خَمْسِ مِائَةِ دِرْهَمٍ وَوَلِيَ نِكَاحَهُ إِيَّاهَا الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ»[3] وهذا هو الأقـربُ، أمّا القول أنّها وهبت نفسَها للرسول- عليه السلام- فهو بعيدٌ، وظاهرُ النّصوص يخالفه.

شهادةُ صدقٍ في حقّ السيدة ميمونة:

لو بحثنا عن شهادة صدقٍ في حقّ السيدة ميمونة بنت الحارث ما وجدنا أرقى وأنقى من شهادة رسول الله- ﷺ- فيها؛ فقد أخرج ابنُ سعد بسندٍ صحيح إلى ابن عباس قَالَ: «قَالَ رَسُولُ اللَّهِ- ﷺ-:

---

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء، حـ ٢، ص ٢٣٩.

(٢) ابن الأثير: أسد الغابة، حـ ٧، ص ٢٦٢. وسِرَف تعرف حاليًا باسم النوارية , هي موضع يقع بين التنعيم ووادي فاطمة شمال غرب مكة المكرمة على بعد ١٢ كم منها , ويعد أحد أحياء ضواحي مكة المكرمة الشمالية الغربية , أصبحت لهذا الوادي أهمية تاريخية فقد تزوّج الرسول ﷺ بميمونة بنت الحارث فيه، وهناك بنى بها , وبه توفيت ودفنت , وقبرها معروف مشهور , إذ يقع على يمين القادم إلى مكة المكرمة.

(٣) الطبقات، حـ ٨، ص ١٠٨.

الأَخَوَاتُ مُؤْمِنَاتٌ. مَيْمُونَةُ وَأُمُّ الْفَضْلِ وَأَسْمَاءُ»[١] فقد وصفها رسولُ الله عن مخابرة ومعرفةٍ بالإيمان، ولا شكّ أنّ هذا تشريف كبير لها ولأخواتها رضوانُ الله عليهنّ أجمعين.

كذلك شهدتْ للسّيدة ميمونة بنت الحارث الصّديقةُ بنتُ الصّديق، فقالت في حقّها معاتبة لقريبٍ لميمونة أخطأ خطأً: «أمّا علمت أنّ اللهَّ ساقك حتّى جعلك في بيتٍ من بيوت نبيّه، ذهبت واللهَّ ميمونة ورمى بحبلك على غاربك، أمّا إنّها كانت مِن أتقانا للهَّ وأوصلنا للرّحم»[٢]. فرضي الله عن السيدة ميمونة، تلك المؤمنة، التّقية، واصلة الرحم.

ميمونةُ في بيت النبوّة:

عاشتِ السّيدة ميمونة في كنفِ رسول الله- ﷺ- راضيةً سعيدة بما قدّر الله لها من خير، فهي في بيت المعلّم والإمام وخاتمِ الأنبياء والمرسلين، تهتدي بهديه، وتسير على سنّته، بل وتبلّغها للناس من بعده، فأيّ جائزة سنية تنالها امرأةٌ أفضل من هذا، وأيّ جوار أنفع من هذا الجوار، جوار النّبي ﷺ.

أمّا عن مدى تأثّرها بسنة النّبي- ﷺ- فنلحظُه في حرصها الشديد على استعمال السّواك، وهو من هدي النّبي ﷺ، يقول ابنُ سعد فيما

---

(١) نفسه، ص ١٠٩.

(٢) ابن حجر: الإصابة، حـ٨، ص ٣٢٤.

رصده من سيرتها العطرة: «كَانَ مِسْوَاكُ مَيْمُونَةَ بِنْتِ الْحَارِثِ زَوْجِ النَّبِيِّ- صلّى اللهُ عَلَيْهِ وسلّم- مُنْقَعًا فِي مَاءٍ فَإِنْ شَغَلَهَا عَمَلٌ أَوْ صَلاةٌ وَإِلا أَخَذَتْهُ فَاسْتَاكَتْ بِهِ»[1].

كذلك في باب التّبليغ ونشر هديِ النّبي ﷺ، فقد كانتِ السّيدة ميمونة تحدّث ابنَ أختها عبد الله بن عباس ببعض الأمور التي تنفع عامّة الناس، من ذلك ما أورده ابنُ سعد قال: «أَخْبَرَنَا سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ عَنْ عَمْرٍو عَنْ أَبِي الشَّعْثَاءِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَخْبَرَتْهُ مَيْمُونَةُ أَنَّهَا كَانَتْ تَغْتَسِلُ هِيَ وَالنَّبِيُّ- صلّى اللهُ عَلَيْهِ وسلّم- مِنْ إِنَاءٍ وَاحِدٍ»[2].

روايتُها عن رسول الله ﷺ :

كان من الطّبيعي أنْ تقتبس السيدة ميمونة من هدي النّبي ﷺ، وكان من الطّبيعي أن تبلّغ ما تيسّر لها من هذا؛ فقد ذكر الذّهبي- رحمه الله- ما نصّه: «روي لها سبعة أحاديث في «الصحيحين»، وانفرد لها البخاري بحديث. ومسلم بخمسة. وجميع ما روتْ ثلاثة عشرَ حديثًا»[3] وقد «حدّث عنها ابن عباس، وابنُ أختها الآخر: عبد الله بن شداد بن الهاد، وعبيد بن السباق، وعبد الرحمن بن السائب الهلالي،

---

(١) الطبقات، حـ ٨، ص ١١٠.

(٢) نفسه، ص ١٠٨.

(٣) سير أعلام النبلاء، حـ ٢، ص ٢٤٥.

وابن أختها الرابع: يزيد بن الأصم، وكريب مولى ابن عباس، ومولاها سليمان بن يسار، وأخوه: عطاء بن يسار. وآخرون»[١].

إنكارُها المنكر، ورسالتُها للمرأة المعاصرة:

ولقد كانت- رضي الله عنها- حريصةً على إمضاء الحقّ، وإنكار المنكر، فيروى «أنّ ذا قرابة لميمونة دخلَ عليها، فوجدت منه ريحَ شراب، فقالت: لئنْ لم تخرج إلى المسلمين، فيجلدوك، لا تدخلْ عليّ أبدًا»[٢] وهذا يدلّ على حرصها على نقاء المجتمع وسلامته من آفات المسْكرات وغيرها. ولعلّ السيدة ميمونة بنت الحارث بفعلها ذلك تبعثُ برسالة للمرأة المسلمة في وقتنا الرّاهن أنّ عليها مسئولية تجاه زوجها وولدها وذوي قرابتها، فكمْ من بيتٍ يتناول فيه الأزْواج والأبناء والأقارب السّجائر، وبعض أنواع المخدرات أو المسكرات، فأين دور المرأة المسلمة كأمّ وأخت وزوجة وقريبة، أين دورُها في زجْر هؤلاء وتذكيرهم بالله عزّ وجلّ، والله تعالى قد علّمنا (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ) التحريم/ ٦. وقال

---

(١) نفسه، ص ٢٣٩.

(٢) نفسه، ص ٢٤٤.

النّبي – ﷺ– فيما رواه عنه ابنُ عمر: «ألا كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ فَالْأَمِيرُ الَّذِي عَلَى النَّاسِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُمْ وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَى بَيْتِ بَعْلِهَا وَوَلَدِهِ وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْهُمْ وَالْعَبْدُ رَاعٍ عَلَى مَالِ سَيِّدِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُ ألا فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»[1]. فعلى المرأةِ المسلمة أن تقوم بدورها في التّوجيه والإرشاد، ولتقتدي بأمّ المؤمنين ميمونة رضي الله عنها.

وفاتُها رضي الله عنها:

توفّيت السّيدة الكريمة ميمونة بنت الحارث سنة إحدى وخمسين على الرّاجح، وقيل سنة إحدى وستّين ولها ثمانون سنة، وهذا بعيدٌ فلم تبقَ إلى هذا الوقت لأنّها توفيت قبل عائشة رضي الله عنها[2].

وقد توفّيت– رضي الله عنها– بسَرِف بعد عودتها من الحجّ، وقيل توفّيت بمكة فحملها عبد الله بن عباس، وَجَعَلَ يَقُولُ لِلَّذِينَ يَحْمِلُونَهَا: ارْفُقُوا بِهَا فَإِنَّهَا أُمُّكُمْ. حَتَّى دَفَنَهَا بِسَرِفَ[3]. وعلى أيّ الأحوال فالثّابت

---

(١) رواه البخاري (حديث رقم ٧١٣٨) ومسلم (١٨٢٩).

(٢) انظر تحقيق ذلك عند الذهبي– رحمه الله– في كتابه سير أعلام النبلاء، حـ ٢، ص ٢٤٥؛ وانظر: ابن حجر: الإصابة، حـ ٨، ص ٣٢٤.

(٣) ابن سعد: الطبقات، حـ ٨، ص ١١١.

أنّها دُفنت بِسَرِف فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي ابْتَنَى بِهَا فِيهِ رَسُولُ اللهَّ صلّى اللهُّ عَلَيْهِ وسلّم، وَصَلَّى عَلَيْهَا ابْنُ عَبَّاسٍ، وَدَخَلَ قَبْرَهَا هُوَ، وَيَزِيدُ بْنُ الأَصَمِّ، وَعَبْدُ اللهَّ بْنُ شَدَّادِ بْنِ الْهَادِي، وَهُمْ بَنُو أَخَوَاتِهَا، وَعُبَيْدُ اللهَّ الْخَوْلَانِيُّ، وَكَانَ يَتِيمًا فِي حجرها[1].

(١) ابن عبد البر: الاستيعاب، حـ ٤، ص ١٩١٨.

الخاتِمةُ

تزوّج النّبي- ﷺ- عددًا كثيرًا من النساء، خُصّ بذلك دون أمّته بجمع أكثر من أربع، والمُجْمع عليه من أزواجه إحدى عشرة امْرأة، وهنّ من تناولنا سيرتهنّ العطرة في هذا الكتاب، وهنّ أمّهات المؤمنين كما سمّاهنّ ربّ العالمين، يقول ربّي في كتابه العزيز ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾[1] والبعض قد يزايد في مسألة خصوصيّة النّبي- ﷺ- في هذا الأمر، ولا شكّ أنّ هذا البعض من ضعاف الإيمان، أو الكارهين للإسلام المعادين لشريعته، أمّا نحن المسلمين المحبّين لله ولرسوله فنعلم يقينًا أنّ هذا أمر الله، فلا نعلّق عليه، أو نحاول أن نقيسه بأيّ ميزان إلّا ميزان اليقين والإيمان المطلق بشرع الله عزّ وجلّ، ولقد رأينا أصحاب النّبي- ﷺ- كيف كانوا يجلّونه ويقدّرونه، ويحترمون خصوصيّته.

ولقد رأينا في كتابنا هذا ظروفَ زيجات النّبي ﷺ، ورأينا أنّ لكلّ زيجة ظروفَها وخصوصيّتها، وأنّ النّبي- ﷺ- لم يتزوّج رغبةً

(١) الأحزاب، آية ٦.

في الزواج، وإنما لمقاصدَ نبيلة. ونستطيع أنْ نسحب هذا على كلّ زيجاته ابتداءً من السيدة خديجة بنت خويلد حتّى السيدة ميمونة بنت الحارث، ونستطيع أنْ نلتمس بوضوحٍ واضح هدفًا نبيلًا أو أكثر في كلّ زيجة من زيجاته ﷺ.

كذلك يمكننا أن نوجّه سؤالًا للعاقلين: ما هي صفاتُ الرجل المـزْواج؟ وسوف تكون الإجابة، أنّه يحبّ المكوث في بيته كثيرًا، ويبحثُ عن الرّاحة، ويُكثر من الطّعام، ويحرص على متاع الدّنيا، ويتزوّج الأبكار من النساء. وكلّ هذه الصفات بعيدةٌ عن رسول الله ﷺ، فهو يرحلُ من مكانٍ لمكان داعيًا لدين الله، يخوضُ الغزوة تلوَ الغزوة من أجل أن تكون كلمة الله هي العليا، يعرّض نفسه للمهالك في الله ولله، ولا يُبالي، لا يبحثُ عن راحة، ولا يلتمس ظلًّا، بل سارَ على الأشواك من أجل كلمةِ لا إله إلّا الله، كذلك فهو متقلّل من متاع الدنيا، لا يوجد في بيته من طيبِ الطّعام إلّا ما يكفيه وأهلَه من الماء والتّمر!! وأحيانًا لا يوجد طعام عنده فيشدّ على بطنه الحجر من شدّة الجوع. ثمّ انظرْ معي ودقّق: كمْ بكرًا تزوّجها رسول الله– ﷺ– على كثرة ما تزوّج؟ لم يتزوّجْ بكرًا خلا عائشة، وعائشة فقط، والتي تزوّجها إكرامًا لأبيها، ومن أجل أن تبلّغ بعده ما تعلّمت منه ﷺ، فأيّ حظّ للنّبي– ﷺ– بعد ما تقدّم من صفات الرّجل المزْواج؟!

وبعد، كانتْ هذه سيرةَ أمّهات المؤمنين، التي استمتعتُ كثيرًا إبّان رحلة جمْع مادّتها، ثمّ كتابتها، وأرجو أن يستمتعَ بها القارئ الكريم، وأن يستفيدَ- هو وأهل بيته- ممّا بثّته أمّهاتُ المؤمنين من رسائلَ في اليقين والإخلاص والعمل والتّضحية والإنفاق، وغير ذلك من قيمٍ سامية.

والله من وراء القصد



قائمة المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم.

٢- ابن إسحاق: السيرة النبوية، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٩ م.

٣- ابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصحابة، دار الكتب العلمية، ١٩٩٤م.

٤- البخاري: الجامع الصحيح، دار ابن الجوزي، القاهرة، ٢٠١١ م.

٥-البوطي: فقه السيرة، دار السلام، القاهرة، ٢٠٠٨ م.

٦- ابن حجر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، دار الحديث، القاهرة، ١٩٩٨م.

٧- ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة، مكتبة مصر، القاهرة، د. ت.

٨- الذهبي: سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٢م.

٩- ابن سعد: الطبقات الكبرى، المكتبة القيمة، القاهرة، د.ت.

١٠- السيوطي: تفسير الجلالين، مكتبة الصفا، القاهرة، ٢٠٠٤م.

١١- السيوطي: لُباب النقول في أسباب النزول، والكتاب مطبوع على هامش «تفسير الجلالين».

١٢- ابن عبد البر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٢ م.

١٣- القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، دار الحديث، القاهرة، ١٩٩٤م.

١٤- ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، المكتبة القيمة، القاهرة، ١٩٩٣ م.

١٥- محمد الغزالي: فقه السيرة، دار الكتاب الحديث، القاهرة، ١٩٧٦.

١٦- المعجم الوسيط.

١٧- النووي: صحيح مسلم بشرح النووي، دار التقوى، القاهرة، ٢٠٠٤ م.

١٨- نبيل بن منصور بن يعقوب البصارة: أنيس الساري في

تخريج وتحقيق الأحاديث التي ذكرها الحافظ ابن حجر العسقلاني في فتح الباري، بيروت، ٢٠٠٥ م.

١٩- ابن هشام: السيرة النبوية، دار الفكر، القاهرة، ١٩٨٠ م.

٢٠- الهيثمي: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، دار الفكر، بيروت، ١٤١٢ هـ.

وغيرُ ذلك الكثير من المصادر والمراجع التي لم تذكَر.

المؤلِّفُ في سطور

د. محمد علي عبد الرحمن

* ولد في محافظة أسيوط من صعيد مصر، عام ١٩٧٤م.

* تلقّى تعليمه الأوّل وحتّى المرحلة الثانوية بمحافظة السويس.

* تخرّج من كلية الآداب، قسم التاريخ، بجامعة عين شمس سنة ١٩٩٦م.

* حصل على درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي عام ٢٠٠٤م من كلية الآداب، جامعة عين شمس.

* حصل على درجة الدكتوارة في التاريخ الإسلامي عام ٢٠١١م من كلية الآداب، جامعة عين شمس.

* له عددٌ من المؤلّفات والأبحاث في التاريخ والحضارة الإسلامية.

* له العديد من المحاضرات ودروس العلم في مجال التاريخ والحضارة الإسلامية.

* مهتمّ بدراسة التاريخ وعرضه برؤية معاصرة.



فهرس المحتويات

إهداء 5

المقدمة 7

1- القلبُ الطيّب: خديجةُ بنت خويلد رضيَ الله عنها 13

مفتاحُ شخصيّتها : 13

خديجةُ.. هديّةُ السّماء: 14

بطاقةُ حياة: 14

مميّزاتُها النّفسية والأخلاقيّة: 15

حياتُها قبلَ رسول الله ﷺ: 16

كيف تعرّفتْ خديجةُ على رسول الله؟ 17

السّببُ الحقيقيّ لإعجاب خديجة برسول الله: 18

كيفيّةُ الوصول لقلبِ رسول الله ﷺ: 19

عمرُ السيّدة خديجة حين تزوّجها رسول الله: 21

دلالةُ زواج النّبي ﷺ من السيدة خديجة: 23

ثمرةُ الزّواج المبارك: 24

حبّ السّيدة خديجة لرسول الله، وإسلامُها: 25

وفاةُ السّيدة خديجة (أمّ العيال، وربّة البيت): 27

وفاءُ النبي ﷺ لذكرى خديجة: 28

فضلُ السّيدة خديجة: 29

بشارةُ السّيدة خديجة بالجنة: 30
كلمةٌ قبلَ الختام: 30
2- سَوْدَةُ بِنْت زَمْعَة (رضي الله عنها) 31
مفتاحُ شخصيّتها: 31
كلمةٌ قبل البداية: 31
بطاقةُ تعارفٍ بالسّيدة سوْدة: 32
زواجُها من رسول الله ﷺ : 34
صانعةُ البهجةِ في بيت النبوّة: 37
أهمّيةُ العامل النّفسي عند اختيار الزّوجة: 38
مراعاةُ خاطر النبيّ ﷺ وقلبه: 39
إكرامُ النّبي ﷺ للسيّدة سوْدة: 40
امتثالُها لأوامر النّبي ﷺ: 41
كرمُها رضي الله عنها: 43
سوْدة وحديث رسول الله ﷺ: 44
وفاةُ صاحبةِ الابتسامة العابدة: 44
3 - صاحبةُ المَقام الرّفيع عَائِشَةُ بِنْتُ أبي بَكْرٍ الصِّدِّيق رضي الله عنها 45
مفتاحُ شخصيّتها: 45
كلمةٌ قبل البداية: 46
بطاقةُ حياة: 46
زواجُها من رسول الله ﷺ : 49
مسألةُ سنّ السّيدة عائشة حين تزوّجها رسول الله: 50

ما الرأي في زواج الصّغيرة الآن؟! 50
هجرتُها وما بها من إنسانيّات: 51
تقديرُ النبي ﷺ لسنّ عائشة، واحترامُه لصغرها: 55
رواياتُ عائشة عن فترة صباها: 57
حبّ النّبي ﷺ لعائشة: 58
غيرةُ زوجات النّبي من عائشة: 60
صورٌ إنسانية ما بين عائشة ورسول الله ﷺ: 61
اختيارُ عائشة اللهَ ورسولَه: 62
فضلُ السّيدة عائشة رضي الله عنها: 63
عمْرُ عائشة حين توفّي عنها رسولُ الله: 65
كُنيتُها رضي الله عنها: 66
علمُ أمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها: 67
مَن روى عنها العلمَ وحدّث: 69
ذكرُ مسندها عن رسول الله ﷺ: 70
زهدُها رضي الله عنها: 70
عبادتُها رضي الله عنها: 71
ملامحُ من حياتها: 71
كرمُها السّخي: 73
وصيّتُها عند موتها، وبعضُ أقوالها: 74
وفاتُها رضي الله عنها: 75
هل هناك مسكوتٌ عنه في تاريخ السّيدة عائشة؟! 77

4 - الصّؤوم القؤوم حفصة بنت عُمَر بْن الْخَطَّابِ رضي الله عنها 79
مفتاحُ شخصيّتها: 79
بطاقةُ حياة: 80
حياتُها قبل الزّواج من رسول الله: 80
زواجُها من رسول الله: 82
تاريخُ زواج النّبي- عليه السلام- من حفصة: 87
طلاقُ النّبي ﷺ لها ثمّ مراجعتُها: 87
عبادتُها رضي الله عنها: 91
فضلُها ومكانتُها عند رسول الله: 91
حارسةُ القرآن: 91
علمُها رضي الله عنها: 93
مسندُها عن رسول الله: 93
وفاتُها: 93
5 - أمّ المساكين زينب بنت خزيمة رضي الله عنها 95
مفتاحُ شخصيّتها: 95
تفرّدُ السّيدة زينب بنت خزيمة: 95
بطاقةُ حياة : 96
حياتُها قبل رسول الله: 96
زواجُها من رسول الله ﷺ : 99
هل روتِ السّيدة زينب شيئًا عن رسول الله؟ 100
وفاتُها رضي الله عنها: 100

6 – صاحبةُ الهجرتيْن أمّ سلمة رضي الله عنها 102
مفتاحُ شخصيّتها: 102
بطاقةُ حياة: 103
حياتُها قبل رسول الله ﷺ : 103
أسرةُ أمّ سلمة رضي الله عنها: 109
وفاةُ أبي سلمة، ورسالتُه الخالدة : 109
زواجُ النّبي ﷺ من أمّ سلمة: 110
أمّ سلمة في بيت النّبوة: 113
أمّ سلمة بعد رسول الله ﷺ: 116
مكانتُها العلميّة: 116
وفاتُها رضي الله عنها: 117
–7 مأوى المَساكين واليتامى زينب بنت جحش رضي الله عنها 119
مفتاحُ شخصيّتها: 119
كلمةٌ قبل البداية: 120
بطاقةُ حياة: 120
زواجُ النّبي– عليه السلام– من زينب: 126
إنسانيّاتٌ عالية: 128
بركةُ السيّدة زينب على المسلمين: 130
وليمةُ الزّواج: 131
الحجاب: 131
فضلُ السّيدة زينب: 133

مؤسّسة زينب بنت جحش الخيرية: 134
مشروعٌ واقتراحٌ للمرأة المسلمة: 137
زينبُ والرّواية عن رسول الله: 137
وفاتُها رضي الله عنها: 138
8- المجاهدة أمّ حبيبة بنت أبي سفيان رضي الله عنها 140
مفتاحُ شخصيّتها: 140
كلمةٌ قبل البداية: 140
بطاقةُ حياة: 141
إسلامُها ورسالتُها للأمّة: 142
زواجُها وهجرتُها للحبشة: 144
وبشّر الصّابرين: 145
زواجُ النّبي- عليه السلام- من أمّ حبيبة: 147
أمّ حبيبة في بيت النبوّة: 152
دورُها الدّعوي، وإبلاغُها عن رسول الله: 153
حرصُها الشديد على سنّة رسول الله : 153
عبادتُها رضي الله عنها: 154
مكانتُها في خلافة أخيها معاوية: 155
رقّةُ قلب مؤمن: 156
وفاتُها رضي الله عنها: 157
9- أعظمُ النّساء بركةً على قومها جُوَيْرِيَة بنت الحارث رضي الله عنها 158
مفتاحُ شخصيّتها: 158

كلمةٌ قبل البداية: 159
بطاقةُ حياة: 159
حياتُها قبل رسول الله ﷺ: 160
زواجُها من رسول الله ﷺ: 160
السيّدة جُوَيْرِيَة في بيت النبوّة: 163
عبادتُها: 164
روايتُها عن رسول الله ﷺ : 165
وفاتُها رضي الله عنها: 165
10 – صفيّةُ رسولِ الله أمّ المؤمنين صفيّة بنت حييّ رضي الله عنها 166
مفتاحُ شخصيّتها: 166
كلمةٌ قبل البداية: 166
بطاقةُ حياة: 167
زواجُها من النّبي ﷺ : 169
صورٌ إنسانيّة راقية في قصّة زواج النّبي ﷺ من صفية: 173
صفيّةُ في بيت النبوّة: 175
(أ) حبّ النّبي، ﷺ، لصفية: 176
(ب) حبُّها لرسول الله: 178
(حـ) غيرةُ زوجاتِ النّبي من السيدة صفية: 178
حياتُها بعد رسول الله: 179
دورُها في مساعدة عثمان رضي الله عنه: 180
دورُها العلمي: 180

وفاتُها رضي الله عنها: 181
11- ميمونةُ بنت الحارث رضي الله عنها 182
مفتاحُ شخصيتها: 182
كلمةٌ قبل البداية: 182
بطاقةُ حياة : 183
حياتُها قبل رسول الله ﷺ : 184
لماذا تزوّج رسولُ الله السيدة ميمونة؟! 185
زواجُ السيدة ميمونة من رسول الله : 186
شهادةُ صدقٍ في حقّ السيدة ميمونة: 187
ميمونةُ في بيت النبوّة: 188
رواياتُها عن رسول الله ﷺ : 189
إنكارُها المنكر، ورسالتُها للمرأة المعاصرة: 190
وفاتُها رضي الله عنها: 191
الخاتِمةُ 193
قائمة المصادر والمراجع 196
المؤلّفُ في سطور 199
فهرس المحتويات 201